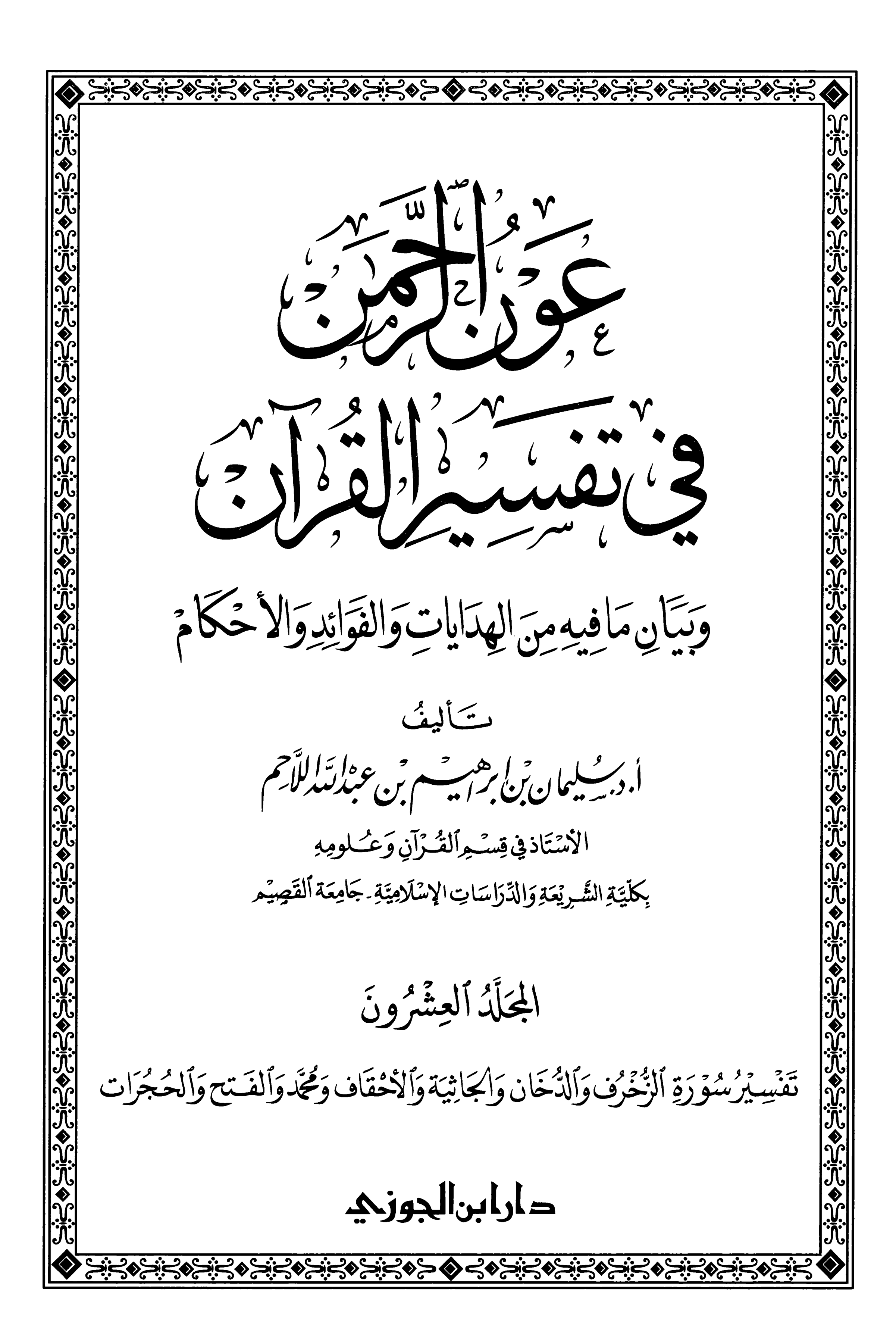


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

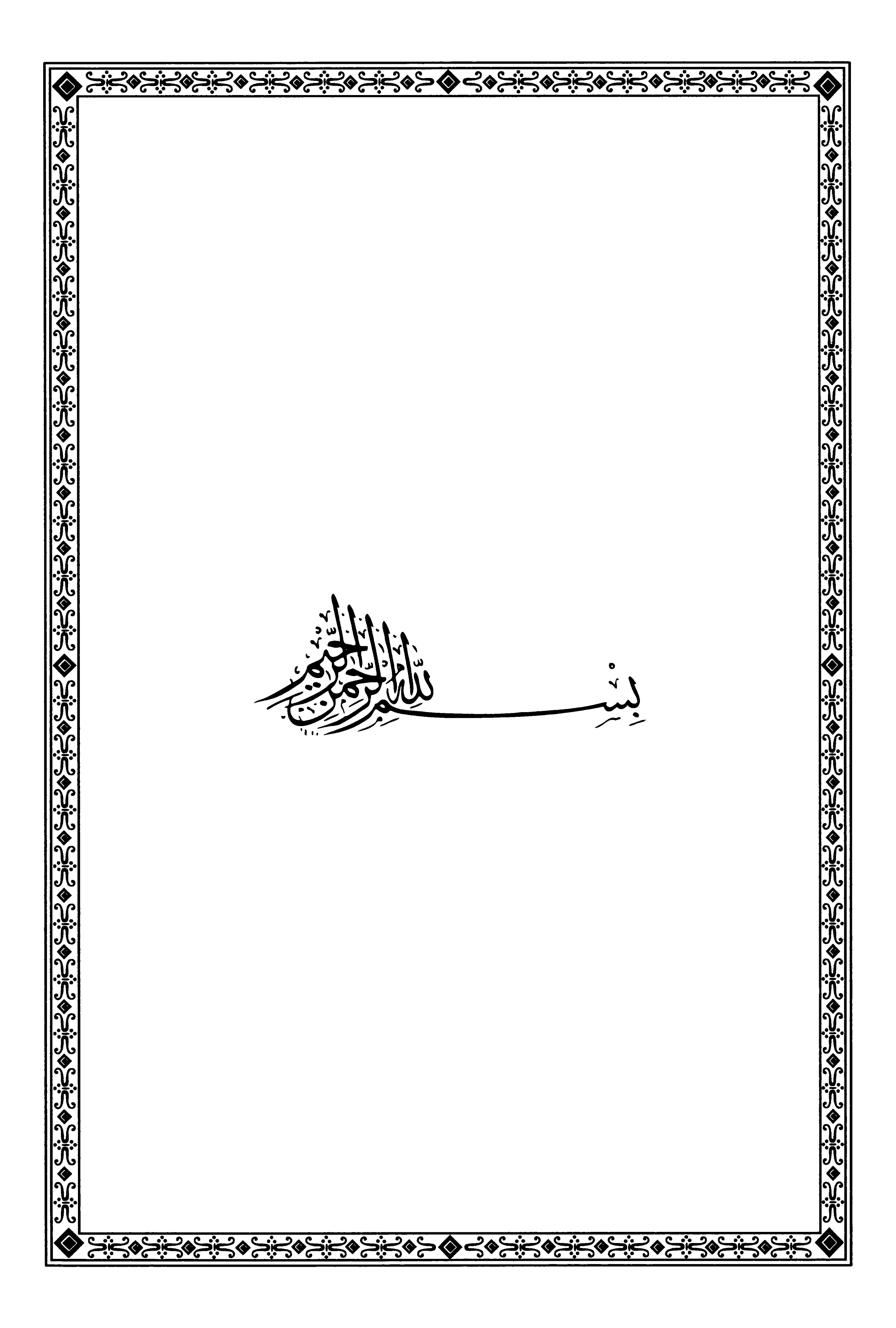
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

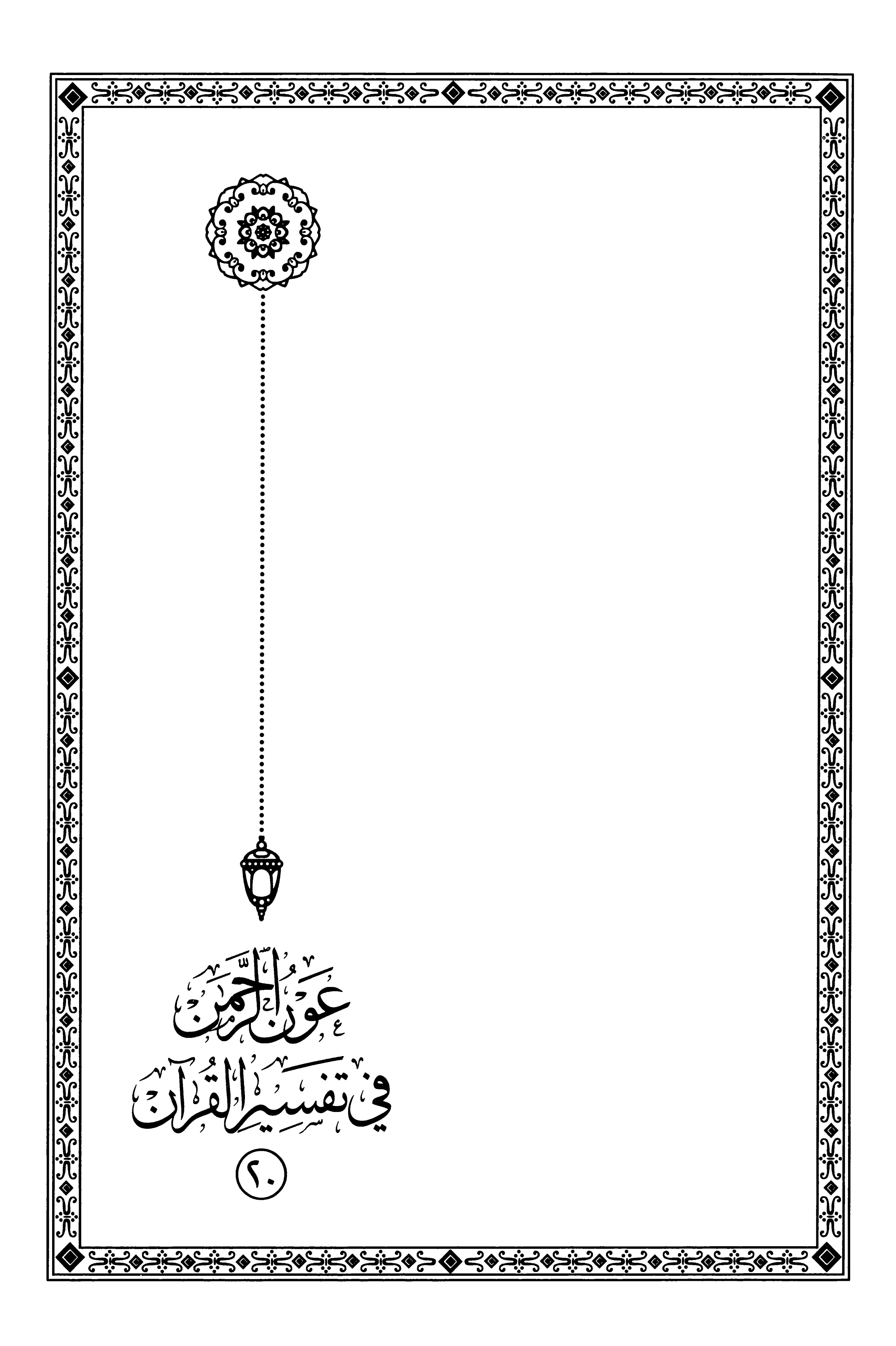
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد العشرون

تفسير سورة الزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح والحجرات

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
٢٠





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٤٠٠ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

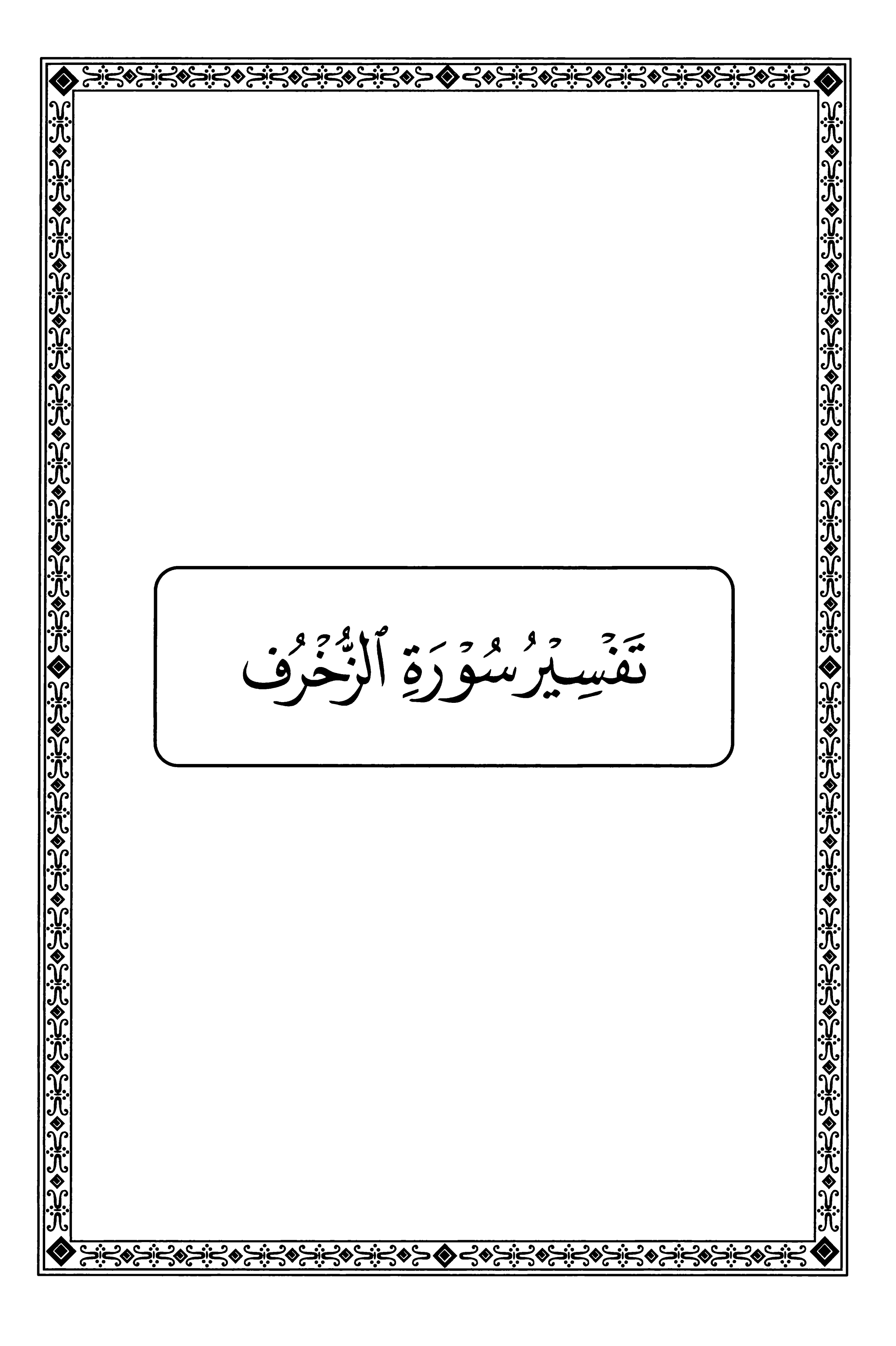
أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

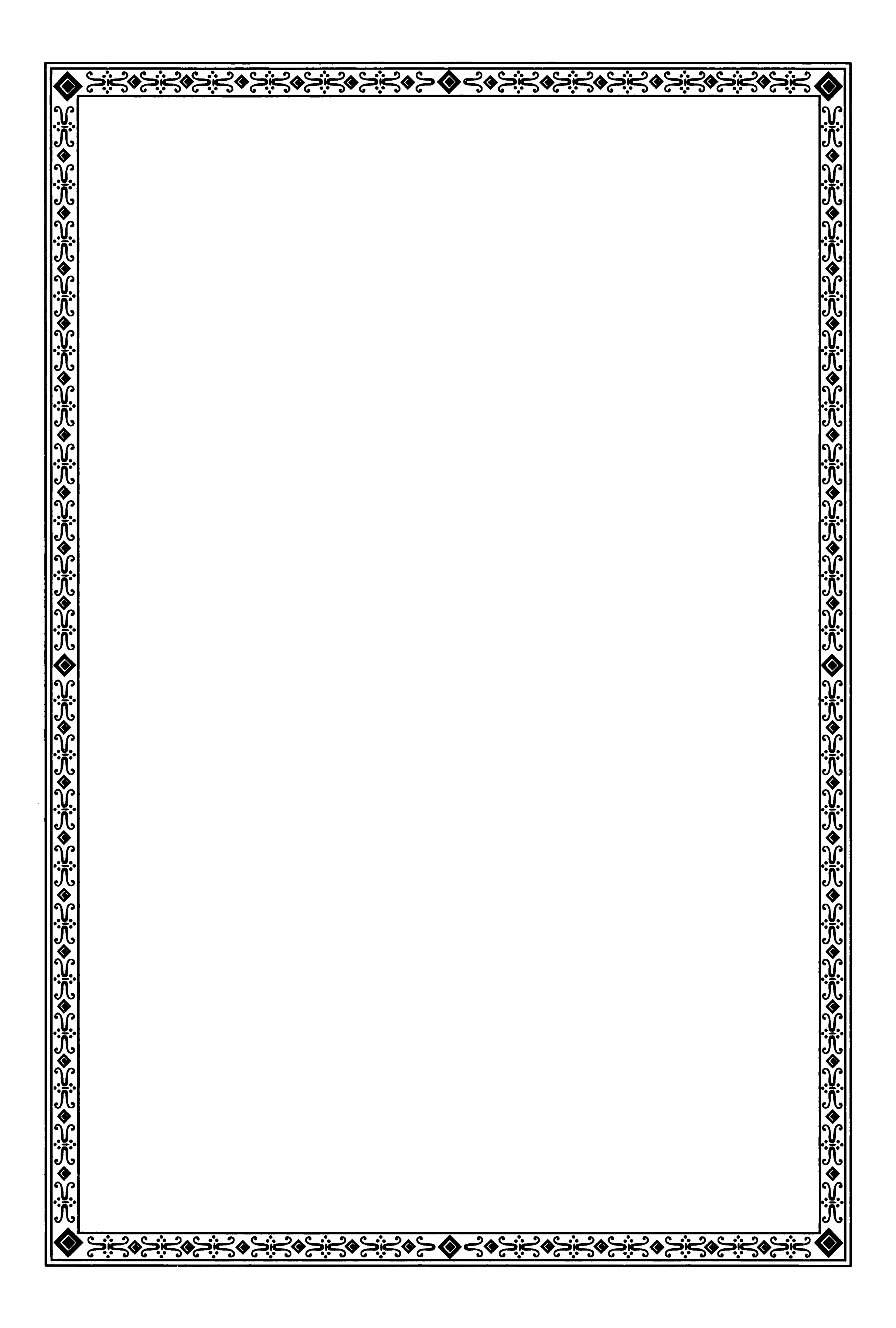
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلزُّخْرُفِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الزخرف» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾.

وتسمى. سورة: «حم الزخرف».

ب- مكان نزولها:

مكية

جـ - موضوعاتها:

١- افتتحت «سورة الزخرف» بقوله تعالى: ﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ بيانًا لإعجاز القرآن وتعظيمًا له.

٢- الامتنان بجعل القرآن عربيًا ليتعقله العرب، وبيان عظم مكانته عند الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

٣- إقامة الحجة على المشركين وإن كانوا مسرفين، كما أرسل عز وجل كثيرًا من الرسل في الأولين، مع إطباقهم على الاستهزاء بالرسل، وأهلكهم مع شدة بطشهم ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

٤- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وجعل الأرض لهم مهدًا، وسلك لكم فيها السبل، وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض إلى غير ذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا

لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٥- ذم المشركين في نسبتهم الولد لله، وجعل البنات له ولهم البنون، وتشاؤمهم بالأنثى، وجعلهم الملائكة بنات الله، وعبادتهم إياهم، واحتجاجهم بالقدر وتقليدهم آباءهم على جهل، والرد عليهم، وانتقام الله منهم وإهلاكهم: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

٦- التذكير بإبراهيم عليه السلام وبراءته مما يعبده أبوه وقومه، وإخلاصه العبادة لله تعالى وحده: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٧- نكران المشركين لنعمة الله تعالى عليهم في تمتيعهم وآباءهم، بتكذيبهم الرسول ﷺ وما جاءهم به من الحق، وزعمهم أنه سحر وكفرهم به، وازدراؤهم للرسول ﷺ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

٨- معاقبة الله تعالى لمن يعش عن القرآن وذكر الله تعالى بتسليط الشيطان عليه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٩- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين له، وتقوية جنانه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ

نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

١٠- ذكر إرساله عز وجل موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه بالآيات العظيمة وتكذيبهم بها وضحكهم منها، وأخذهم بالعقوبات وما لقيه موسى عليه السلام من فرعون من الأذى، واستخفافه قومه وطاعتهم له، وغضب الله عليهم وانتقامه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

١١- ضرب المشركين المثل بعيسى بن مريم في كونه عبد من دون الله، ومعارضتهم بذلك القرآن وإعراضهم بسبب ذلك وخصامهم: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

١٢- التهديد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ بإتيان الساعة وعداوة بعضهم لبعض ووعيدهم بعذاب جهنم خالدين فيه، لا يفتر عنهم وهم فيها مبلسون، والوعد لعباد الله المتقين بالسلامة من الخوف والحزن وبدخول الجنة لهم فيها ألوان النعيم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ

جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

١٣- تنزيه الله عز وجل عن الولد، وإثبات عموم ربوبيته، وتهديد الكافرين ووعيدهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

١٤- إثبات عموم ألوهيته في السماء والأرض، وتمام حكمه وحكمته، وواسع علمه وتعاليه، وكثرة بركته، واختصاصه بملك السموات والأرض وما بينهما، وبعلم الساعة، ورجوع الخلائق إليه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

١٥- بطلان عبادة كل من يُدعى من دون الله، لأنهم لا يملكون الشفاعة، وليس لهم من الأمر شيء: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

١٦- الانكار على المشركين والتعجب من عبادتهم غير الله وكفرهم وعدم إيمانهم مع إقرارهم بربوبية الله تعالى لهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

قوله: ﴿حمٓ ۝١﴾ سبق الكلام عليه.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ الواو: واو القسم، و«الكتاب»: مقسم به مجرور متعلق بفعل محذوف تقديره: أقسم، والمراد به: «القرآن الكريم»؛ لأنه مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي المصاحف بأيدي المؤمنين.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة لـ«الكتاب»، أي: البين الواضح الجلي في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، المبين للحق، ولعظمة من أنزله، وصدق من جاء به، ولكل شيء يحتاج إليه العباد، من أمور الدين والدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ جملة جواب القسم، ﴿قُرْآنًا﴾: مفعول به ثانٍ منصوب لـ«جعل»، و﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة لـ«قرآنًا».

والمعنى: إنا أنزلناه وأوحيناه وصيرناه قرآنًا عربيًّا، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)﴾ [يوسف:٢] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى:٧].

والمعنى: جعلناه بلغة العرب، التي هي أفصح اللغات وأبينها وأوضحها وأوسعها، وفي هذا ثناء على القرآن، وامتداح له؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء:١٩٥]، وإقامة للحجة على المعاندين له، وهو بلغتهم، وتحدٍّ لهم؛ كما في قوله: ﴿حم (١)﴾.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، «لعل»: للتعليل، أي: لعلكم تعقلونه وتتفهمونه وتتدبرونه، فتنتفعوا بعقولكم.

فامتن عليهم بجعل القرآن عربيًّا بألفاظه ومعانيه وأحكامه؛ ليعقلوه؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)﴾ [فصلت:٣]، وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾ [الزمر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)﴾ [طه:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧].

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا الكتاب المبين: «القرآن الكريم» ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾، أي: في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، أي: وإنه في اللوح المحفوظ لدينا، أي: عند الله في الملأ الأعلى، وسمي اللوح المحفوظ: أم الكتاب؛ لأنه مرجع لجميع ما يكتب من بعده.

﴿لَعَلِيٌّ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لذو مكانة عالية، وشأن عظيم، وشرف رفيع.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو حُكْم وحِكْمة، مشتمل على الأحكام التامة المحكمة: الشرعية والجزائية والقدرية.

قال ابن القيم: «والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات

والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج:٢١-٢٢] وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح المحفوظ أفعاله وكلامه، فـ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب»[١].

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به: النفي، ﴿ٱلذِّكْرَ﴾: القرآن الكريم.

﴿صَفْحًا﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر، أو مصدر في موضع الحال، أي: أفنصرف عنكم الذكر، ونترك تذكيركم بالقرآن إعراضًا عنكم؟

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة: «إِنْ» على أنها شرطية.

وقرأ الباقون بفتح الهمزة: ﴿أَن﴾ على أنها مصدرية.

أي: بسبب كونكم قومًا مسرفين، أي: متجاوزين الحد في الكفر والإعراض عن القرآن.

وفي إقحام ﴿قَوْمًا﴾ في قوله: ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ دلالة على أن ذلك كان طبعًا لهم.

قال ابن القيم: «أي: نترككم، فلا ننصحكم، ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم»[٢].

والمعنى: أنه عز وجل يقول للمسرفين: لا نترك تذكيركم بالقرآن بسبب كونكم قومًا مسرفين معرضين عنه، بل اقتضت حكمتنا أن نذكركم به؛ رحمة ولطفًا بالعباد؛ ليهتدي من قدَّر الله هدايته، وتقوم الحجة على من ضل.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣١- ١٣٢.

فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

لما ذكر إسراف المشركين في الإعراض عن القرآن، والتكذيب له ﷺ، أتبع ذلك بذكر ما حصل لكثير من الأنبياء السابقين من الاستهزاء والتكذيب من أقوامهم، وإهلاكهم؛ تسلية له ﷺ، وتشجيعًا له على الصبر، وتهديدًا للمكذبين من قومه.

قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾، «كم»: خبرية تفيد التكثير، أي: وكثيرًا من الأنبياء أرسلنا في الأولين، أي: في الأمم السابقة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾، «من» لتوكيد عموم النفي.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: وما يأتيهم أيُّ نبي إلا كانوا به يستهزئون؛ تكذيبًا له، وبما جاءهم به من الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات:٧١].

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، «بطشًا»: تمييز، أي: فأهلكنا المكذبين للرسل بالعذاب وأنواع العقوبات، وهم أشد من المكذبين لك يا محمد قوة وآثارًا في الأرض، فما أغناهم ذلك، ولا دفع عنهم عذاب الله.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم:٩]، وقال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر:٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق:٣٦].

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: مضت سنة الله في إهلاك المكذبين، وجعلهم عبرة

لمن بعدهم من أمثالهم؛ كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥٦]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر:٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد:٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣٨]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢].

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «ومضى مثلهم»، مع أنه سبق قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾؛ ليكون الإخبار عنهم صريحًا، وجاريًا مجرى المثل.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الواو: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: والله لئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين، الذين يعبدون غير الله من الأصنام والأنداد:

﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾، أي: من الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهما على غير مثال سبق؟

﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، والنون للتوكيد، أي: ليقولن: خلقهن العزيز العليم، أي: الله وحده لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

ﱡﭐ﴿ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان:٢٥، الزمر:٣٨].

فاعترفوا بأن الخالق لهن ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أي: الله العزيز العليم، وفي قولهم: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ إشارة إلى كمال عزته عز وجل، وَسعة علمه، وتعريض بنقص أصنامهم، فلا عزة ولا علم.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ الجملة مستأنفة، من كلام الله عز وجل، وليست من كلام المسؤولين عن خلق السموات والأرض.

قرأ عاصم: ﴿مَهۡدٗا﴾ بدون ألف بعد الهاء، وقرأ الباقون: «مِهَادًا» بالألف بعد الهاء.

أي: هو ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾، أي: فراشًا ممهدة، وقرارًا منبسطة مذللة، تتمكنون من السكن والبناء عليها، والسير والتصرف فيها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك:١٥].

﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾، أي: طرقًا تسلكونها لمعاشكم بين الجبال والأودية، ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن تهتدوا وتعرفوا الطرق في أسفاركم من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، فلا تتيهون الطريق.

﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾، فانتقل من الامتنان عليهم بالسكن، إلى الامتنان عليهم بالرزق، وأعيد الموصول للاهتمام.

أي: والذي نزل شيئًا فشيئًا من السحاب الذي في العلو بين السماء والأرض- كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾، أي: مطرًا بتقدير معلوم، وقدر الحاجة؛ لسقي الناس والأنعام، والزروع والثمار، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر:٤٩].

﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ﴾، أي: فأحيينا بهذا الماء؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ [عبس:٢١، ٢٢].

﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، أي: بلدة أرضها مقفرة من النبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر:٩].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ [يس:٣٣-٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر: «تَخْرُجُونَ» بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون بالبناء للمفعول: ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

أي: كما أحيينا بالمطر الأرض بعد موتها، كذلك نخرجكم من قبوركم أحياء يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر:٩].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق:٩-١١].

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾، «الذي»: معطوف على الموصول الأول في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أي: والذي خلق الأصناف كلها، من الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام:١٤٣].

ومن النباتات، ومن كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات:٤٩]، كالأرض والسماء، والشمس والقمر، والليل والنهار، والحر والبرد، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ﴾، أي: السفن البحرية بأنواعها المختلفة، الشراعية والبخارية، وغير ذلك.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾، أي: وجعل لكم من الأنعام ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي تركبونه في البحر، وهي السفن، وفي البر الإبل التي تسمى: «سفائن الصحراء».

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)﴾ [يس:٤١، ٤٢].

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لتستووا على ظهور هذا المركوب من الفلك والأنعام، أو لتستووا على ظهور ما جعله الله لكم من الفلك والأنعام ركوبًا، أي: تعلوا عليه وتستقروا عليه.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: إذا استويتم على ظهر هذا المركوب بالاعتراف له بها بقلوبكم، ونسبتها إلى الله وحده، والثناء على الله بها، وشكره عليها بطاعته بجوارحكم.

﴿وَتَقُولُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿تَذْكُرُوا﴾، أي: وتقولوا بعد ركوبكم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾، أي: تنزيهًا لله تعالى، وتقديسًا له وتعظيمًا، الذي ذلل لنا هذا المركوب، وذلك لإبعاد الزهو والخيلاء عن النفوس حال الركوب.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: وما كنا لهذا المركوب مطيقين وقادرين على تسخيره، لولا تسخير الله وتذليله لنا ذلك.

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنا إلى ربنا وحده لراجعون وصائرون.

وهذا أيضًا تأكيد لإبعاد الخيلاء والكبر عن النفوس؛ لما فيه من التذكر للآخرة، والاستحضار في هذا السفر الدنيوي السفر الأخروي إلى الله تعالى، وإلى الدار الآخرة، مع بعد الشقة، وقلة الزاد.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا، ثم قال: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى

رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾»، **اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل**»، وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن: «**آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون**»[1].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- إقسام الله عز وجل بالقرآن؛ تعظيمًا له، وتنويهًا ببيانه ووضوحه، وتبيينه لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾.

٣- الامتنان على العرب وغيرهم بجعل القرآن عربيًّا بأفصح اللغات، وأوسعها، وأكثرها ألفاظًا، وأوضحها معانيَ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾.

٤- أن الحكمة من جعل القرآن عربيًّا بأفصح اللغات وأوسعها؛ لأجل أن يتدبر العرب وغيرهم في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره ويتفهموه، ويعقلوه، وتقوم عليهم الحجة بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾﴾.

٥- أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

٦- أن القرآن عند الله عز وجل، وفي الملأ الأعلى ذو مكانة عالية، وشأن عظيم، وشرف رفيع؛ لما اشتمل عليه من أحكام وحكم، ولإحكامه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾﴾

---

(١) أخرجه مسلم في الحج، ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ١٣٤٢، وأبو داود، في الجهاد، ما يقول إذا سافر ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات، ما يقول إذا ركب الدابة ٣٤٤٧، وأحمد ٢/ ١٤٤.

[عبس:١١-١٤].

٧- أن الله عز وجل لم يترك تذكير العباد بالقرآن- رحمة منه ولطفًا بهم- وإن أسرفوا في الإعراض عنه؛ ليهدي عز وجل بذلك من كتبت له الهداية، ويُصِر من كتبت عليه الشقاوة، وتقوم الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾.

٨- كثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله في الأولين إقامة للحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾.

٩- استهزاء الأمم السابقة بجميع أنبيائهم، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾.

١٠- إهلاك المكذبين من الأمم السابقة، وقد كانوا أشد قوة من كفار قريش، ولم تغن أو تدفع عنهم قوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

١١- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه بذكر ما لقي الأنبياء- مع كثرتهم- من أقوامهم من الاستهزاء بهم، والتكذيب لهم، وإهلاكه عز وجل للمكذبين.

١٢- تهديد ووعيد المكذبين له ﷺ أن يحل بهم ما حل بالمكذبين للرسل من قبلهم؛ مما يوجب عليهم أخذ العظة والعبرة، فهذه سنة الله في المكذبين، والسعيد من وعظ بغيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٣- إقرار المشركين واعترافهم بربوبية الله تعالى، وأنه الذي خلق السموات والأرض، ومع ذلك يعبدون غيره من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾.

١٤- إثبات اسمين من أسمائه عز وجل، هما: «العزيز العليم»، وصفة العزة التامة، والعلم الواسع له عز وجل، واعتراف المشركين بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

١٥- إثبات اختصاصه عز وجل بالخلق؛ لكمال عزته وعلمه، والتعريض بنقصان الأصنام والأنداد، فلا عزة لها ولا علم.

١٦- الامتنان بجعل الأرض ممهدة مذللة صالحة للعيش والبناء والسكن عليها، وجعل السبل فيها، يهتدي فيها السائرون والمسافرون، وبيان تمام قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

١٧- أن الله عز وجل لو لم يجعل الأرض ممهدة لم يستطع الإنسان العيش عليها، ولو لم يجعل الله فيها السبل ما استطاع الإنسان الاهتداء فيها، وفي هذا إشارة لما هو أعظم، وهو الاهتداء إلى جنته بما نصبه من الصراط المستقيم.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

١٩- بيان تمام قدرته تعالى وسابغ نعمته في تنزيل المطر من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

٢٠- حكمة الله تعالى في تقدير كل ما ينزل من السماء من مطر وغيره، فهو ينزل بقدره عز وجل وتقديره، فلا يزيد عن الحاجة فيضر، ولا ينقص عنها فيقل نفعه؛ لقوله تعالى: ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾.

٢١- إثبات البعث بعد الموت، وقدرته عز وجل التامة على ذلك؛ كما أحيا الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

٢٢- كمال عظمته عز وجل وقدرته في خلق الأصناف من الحيوان والنبات ومن كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

٢٣- الامتنان على العباد بجعله وتسخيره لهم من الفلك ما يركبونه في البحر، وهي السفن بأنواعها، ومن الأنعام ما يركبونه في البر، وهي الإبل سفن الصحراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

يضاف إلى ذلك ما هيأه الله لهم، وأنعم به عليهم، وأقدرهم عليه، وعلمهم صنعه، من المراكب؛ كالطائرات والسيارات، وغير ذلك، فكل ذلك بتسخيره وفضله ومنته ونعمته؛ كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٨].

٢٤- أن ما امتن الله به على العباد من الفلك والأنعام لركوبهم؛ لينتفعوا بذلك، ويذكروا نعمته عز وجل عليهم بذلك، ويشكروه بنسبة ذلك إليه، وطاعته، بعيدًا عن الزهو والفخر، والاغترار بالنعمة؛ لقوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾.

٢٥- الترغيب بذكر الله تعالى عند الاستواء على المركوب، وقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ إذا ركب راحلته كبر ثلاثًا، ثم قال: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾» الحديث[1].

٢٦- الحث على تعظيم الله تعالى وتقديسه، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وطاعته وشكره على تسخير هذه المركوبات؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾.

٢٧- الإقرار والاعتراف بأنه لولا تسخير الله تعالى لهذه المركوبات، ما استطاع العباد تسخيرها بأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾.

٢٨- ضعف الإنسان وقصوره ونقصه أمام كثير من المخلوقات لولا لطف الله تعالى به.

٢٩- إثبات البعث والرجوع إلى الله تعالى، وتذكر الآخرة والردِّ إليه عز وجل في حال الركوب؛ بُعدًا عن الكبر والخيلاء؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٣٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين.

* * *

(١) سبق قريبًا ذكره بتمامه وتخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾، أي: وجعل المشركون لله تعالى عز وجل من عباده ومخلوقاته بعضًا ونصيبًا بنسبتهم الولد إليه عز وجل، وقولهم: الملائكة بنات الله؛ كما قال اليهود: عزير ابن الله، وقال النصارى: المسيح ابن الله. والولد جزء من والده، تعالى الله عن ذلك.

وبجعلهم بعض ما أعطاهم الله من الحروث والأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله بزعمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان، ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لجحود بيِّن الكفر والجحود لربه، أو لنعمه، إلا من هداه الله.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾، «أم» في الموضعين: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتخذ الله، أي: جعل ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾، أي: من الذي يخلق ﴿بَنَاتٍ﴾؛ يعني: الملائكة؟ لأنهم يقولون: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم.

﴿وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾، أي: أخلصكم وخصكم بالبنين الذكور؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل:٥٧].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين الذين نسبوا لله تعالى الولد وخصوه بالبنات، تعالى الله عن ذلك كله.

﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا﴾، أي: بالذي ضربه للرحمن مثلًا، أي: بالأنثى التي نسبها للرحمن، حين زعم أن الملائكة بنات الله، أي: إذا أخبر بأنه ولد له بنت.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: صار وجهه مسودًّا.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: كئيب حزين ممتلئ غمًّا، من شدة الغضب والغيظ، والأنفة من كون المولود له أنثى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٨، ٥٩].

قال ابن القيم: «يعني: أن أحدكم لا يرضى أن يكون له بنت، فكيف تجعلون لله ما لا ترضونه لأنفسكم؟»(١).

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بضم الياء، وفتح النون، وتشديد الشين: ﴿يُنَشَّؤُا۟﴾، وقرأ الباقون: بفتح الياء، وإسكان النون، وتخفيف

---

(١) «بدائع التفسير» ٤/ ١٣٢.

الشين: «يَنْشَأُ».

والهمزة في قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾ للاستفهام الإنكاري، و«مَن»: اسم موصول في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره: يجعلون، أي: أيجعلون الذي ينشأ في الحلية، أي: يربى في الزينة، وهي الأنثى التي تربى في الزينة تكميلًا وتجميلًا لها.

﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ﴾، أي: في الخصومة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾، أي: غير مظهر لحجته ومفصح عنها، وهي الأنثى؛ لأن المرأة غالبًا لا تستطيع الإبانة عن حجتها في الخصومة، وعاجزة عن الانتصار لنفسها. قال قتادة: «قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها، إلا تكلمت بالحجة عليها»(١).

والمعنى: أيجعلون من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين، وهي الأنثى، كالذكر الذي ليس كذلك؟

﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بنون ساكنة، ودال مفتوحة، من غير ألف: «عِنْدَ» على أنه ظرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء:١٩].

وقرأ الباقون بالباء وألف بعدها، وضم الدال: ﴿عِبَٰدُ﴾، جمع: «عبد».

والواو استئنافية، أي: وجعل المشركون الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، أي: اعتقدوا فيهم أنهم إناث، وقالوا: إنهم بنات الله. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بهمزتين، الأولى مفتوحة، والثانية مضمومة، مع إسكان الشين: «أَأُشْهِدُوا».

وقرأ الباقون بهمزة واحدة مفتوحة، مع فتح الشين: ﴿أَشَهِدُواْ﴾.

والاستفهام للإنكار، أي: أشهد هؤلاء المفترون الذين جعلوا الملائكة إناثًا، وحضروا خلقه عز وجعل الملائكة، وقد خلقهم إناثًا؟

والمعنى: أأشهدهم الله خلق الملائكة؟ كما قال تعالى في سورة الصافات:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٥٦٤.

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الصافات:١٤٩-١٥٤].

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ بأن الملائكة إناث، أي: سيكتبها عليهم الحفظة الكرام الكاتبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لهم.

والمراد: أنهم ما شهدوا وما حضروا خلق الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الصافات:١٥٠] وقال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف:٥١].

﴿ وَقَالُواْ ﴾ وقال المشركون الذين عبدوا الملائكة، وجعلوا لهم أصنامًا يعبدونها، يزعمون أنها على صور الملائكة:

﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، أي: لو شاء الرحمن وأراد كونًا ما عبدنا الملائكة.

فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة والقدر، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلًا وشرعًا؛ كما في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨] وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل:٣٥].

وقد جمعوا بفعلهم هذا بين عدد من الموبقات؛ الأولى: نسبتهم الولد لله عز وجل، وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

الثانية: عدم إنصافهم في نسبتهم له البنات خاصة؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وآثروا أنفسهم بالبنين، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:٢١-٢٢].

الثالثة: عبادتهم الملائكة بلا حجة، ولا دليل، ولا برهان.

الرابعة: احتجاجهم بالقدر، وزعمهم أن الله أقرهم على ذلك، ولو شاء لحال بينهم وبين عبادتهم.

والاحتجاج بالقدر باطل، فكونه تعالى قدر ذلك وشاءه لا حجة لهم فيه؛ لأن الله قدر وشاء كلًّا من الإيمان والكفر، وأمر شرعًا بالإيمان به، وعبادته وحده، ونهى عن عبادة ما سواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ [النحل:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ [الزخرف:٤٥].

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾، أي: ما لهم بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، «من»: مؤكدة، أي: ما لهم بهذا القول- أي: بالرضا بعبادتهم الملائكة- أيُّ علم؛ لأن العلم بأن الله شاءه لا يحصل لهم إلا بعد وقوع ذلك منهم- فضلاً من أن يكون رضيه- فلماذا لم يتركوا عبادتهم ويقولوا: إن الله شاء ألا نعبدهم؟

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، «إن»: نافية، بمعنى «ما»، أي: ما هم إلا يخرصون، أي: يُخمنون ويَتخرصون بلا علم، وبلا عقل.

قوله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾.

لما نفى أن يكون قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ مستندًا إلى علم أو عقل،

انتقل إلى نفي أن يكون مستندًا إلى نقل.

قوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: بل آتيناهم كتابًا ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: من قبل القرآن، أو من قبل شركهم، يدعوهم إلى عبادة الملائكة وغيرها من المعبودات من دون الله.

﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾، أي: فهم بهذا الكتاب مستمسكون؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم:٣٥].

أي: ليس الأمر كذلك، فلم يأتهم كتاب قبل القرآن، وقبل إشراكهم بالله يستمسكون به فيما هم عليه من الشرك، أي: فلم يعتمدوا في ذلك لا على عقل ولا نقل؛ ولهذا قال:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، فاحتجوا أولًا بالقدر، ثم انتقلوا للاحتجاج بالقدوة، فقالوا في تبريرهم لشركهم، وذكر ما اعتمدوا عليه في ذلك:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: على دين وملة وطريقة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢]، أي: ملتكم ملة واحدة، وهي دين الإسلام.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، أي: على خطاهم وعلى أثرهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، أي: متبعون ومقلدون لهم.

فليس لهم مستند فيما هم عليه من الشرك سوى التقليد الأعمى لآبائهم وأجدادهم، والتعصب لهم، ولو كان آباؤهم هم الآخرون لا مستند ولا دليل لهم لا من علم ولا من عقل ولا من نقل فيما هم عليه من الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ

﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ [هود:١٠٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذا تسلية له ﷺ، وبيان لإطباق المكذبين قبل قومه على هذا المسلك، وترديد هذه المقالة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت:٤٣].

وقال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٣].

وفيه تهديد للمكذبين من قومه بالانتقام منهم.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل هذا الذي قيل لك يا محمد قيل لمن قبلك، أي: مثل ما قال المشركون من قومك من تقليدهم لآبائهم.

﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، أي: منعَّموها وأهل الثراء فيها:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، أي: متبعون مقلدون.

أي: فالمشركون من قومك يا محمد ليسوا ببدع من هؤلاء، وليسوا بأول من قال هذه المقالة، بل كل القرى التي أرسلنا إليهم النذر قال مترفوها هذه المقالة.

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿قَٰلَ﴾ على الخبر، وقرأ الباقون: «قُلْ» على الأمر.

وقرأ أبو جعفر: «جِئْنَاكُمْ» بنون وألف على الجمع، وقرأ الباقون: ﴿جِئْتُكُم﴾ بالتاء مضمومة على الإفراد.

والاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَوْ﴾ تقريري مشوب بالإنكار، أي: قال الرسول للمشركين من قومه: أتقلدون آباءكم ولو جئتكم بأهدى من الذي وجدتم عليه آباءكم؟!

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أي: إنا بالذي أرسلتم به أنت ومن قبلك كافرون، أي: جاحدون له، غير مؤمنين به- وهذا دليل على إيثارهم للباطل والهوى، على الحق والهدى، وعلى شدة عنادهم ومكابرتهم للحق، ولمن جاء به، وشدة تعصبهم وتقليدهم لما عليه آباؤهم، ولو كان آباؤهم على ضلال، لا يعقلون شيئًا، ولا يعلمون، ولا يهتدون.

وفي قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ تنزل معهم؛ إذ لا شك أن ما جاءهم به هو عين الهدى، وليس فقط أهدى مما كان عليه آباؤهم؛ لأن آباءهم ليسوا على هدى بل على باطل وضلال، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، أي: فعاقبناهم بأنواع العقوبات بسبب تكذيبهم وكفرهم.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: فانظر أيها المخاطب كيف كانت عاقبة تكذيبهم وكفرهم، وكيف كانت نهايتهم المؤلمة وهي إهلاكهم بأنواع العقوبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين في نسبتهم الولد إلى الله تعالى، وجعلهم له نصيبًا من عباده ومخلوقاته، وكفرهم البين بالله تعالى، وجحودهم لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾.

٢- إثبات عبودية الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.

٣- أن الولد جزء من والده؛ ولهذا قُدِّم الولد على الوالد في التعصيب في الميراث، فإذا هلك هالك عن أبيه وابنه فلأبيه السدس فرضًا، والباقي للابن تعصيبًا، فسهم الأب واحد من ستة والباقي خمسة أسهم للابن؛ كما أنه يجوز للأب أن يتملك من مال ابنه ما لا يضره، وهذا وذاك؛ لأن الولد جزء من والده.

٤- أن من طبيعة الإنسان إلا من هدى الله الكفر بربه وجحود نعمه؛ مما يوجب الحذر من ذلك.

٥- الإنكار على المشركين جورهم في القسمة بعد أن نسبوا الولد لله- تعالى الله عن ذلك- بجعل البنات له، وتخصيص أنفسهم بالبنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦)﴾.

٦- شدة امتعاض واستياء من وُلدت له أنثى من هؤلاء الذين ينسبونها لله تعالى، واسوداد وجهه، وامتلاء قلبه حزنًا وغمًّا من شدة الغضب والغيظ، والأنفة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

٧- تأثر ظاهر جسم الإنسان وبشرته بما يعتلج في قلبه من فرح وسرور، وضد ذلك.

٨- إثبات اسم الله «الرحمن»، وأنه سبحانه ذو الرحمة الذاتية الثابتة له عز وجل، وذو الرحمة الفعلية التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٩- حكمة الله تعالى في المفاضلة بين الجنسين الذكر والأنثى في القدرات البدنية، والعقلية، والمشاعر، وغير ذلك، وجعل الذكر من حيث العموم أكمل الجنسين في كثير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

وكما قالت امرأة عمران: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦].

١٠- إباحة التحلي بأنواع الحلي كلها للمرأة من الذهب والفضة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾.

١١- أن المرأة من حيث العموم قد لا تستطيع الإبانة عن حجتها في الخصومة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. وهذا لا يمنع أن يكون من بين النساء من هي أفصح من كثير من الرجال؛ كما هو مشاهد.

١٢- إبطال دعوى المساواة بين الرجل والمرأة، وما جبل عليه كل منهما، ولو جعلهما الله على السوية في القدرات كلها ما التأما ولا انقاد كل منهما للآخر وأنس به، فلا يجتمع سيفان في غمد، ولا أميران في بلد واحد، وهذا من السنن الكونية.

١٣- زعم المشركين واعتقادهم ودعواهم أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾.

١٤- إنكاره تعالى عليهم هذا الزعم الكاذب، وأنهم لم يشهدوا ولم يحضروا خلق الملائكة، فكيف يزعمون هذا الزعم الباطل؟ لقوله تعالى: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾.

١٥- تهديدهم بكتابة شهاداتهم، وسؤالهم عنها، ومعاقبتهم عليها؛ لقوله تعالى:

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

١٦- إثبات كتابة أعمال العباد.

١٧- إثبات البعث والمعاد والحساب، والجزاء على الأعمال.

١٨- احتجاجهم بالقدر، وأن الله لو شاء ما عبدوا الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

١٩- بطلان حجتهم هذه؛ لأنه لا حجة لأحد بالمشيئة والقدر، فكل ما يجري في الكون هو مما شاءه الله وقدره، بما في ذلك الشرك والتوحيد، والكفر والإيمان، وغير ذلك، فلماذا لم يتركوا عبادة الملائكة وغيرها من المعبودات، ويقولوا: لو شاء الله ما تركنا عبادتهم، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

٢٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وتقديره مقادير كل شيء.

٢١- أن هؤلاء المحتجين بالقدر لا علم عندهم؛ لأنهم احتجوا بالمشيئة على ما حصل منهم بعد وقوعه، فعلمهم لاحق، وليس بسابق، وإنما يعتمدون على الكذب والتخمين.

٢٢- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يشاء أفعال العباد، وإنهم مستقلون بخلق أفعالهم ومشيئتها.

٢٣- أن الله لم يؤتهم كتابًا قبل القرآن، وقبل شركهم يدل على جواز ما هم عليه من الشرك، فيَدَّعوا أنهم به مستمسكون، ولم ينزل على العرب كتابًا سوى القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فلا حجة لهم فيما هم عليه لا من علم، ولا عقل، ولا نقل.

٢٤- أن قصارى ما لديهم هو التعصب لآبائهم، والتقليد الأعمى لهم فيما هم عليه من الشرك والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٢٥- تسليته ﷺ ببيان أن هذا هو ديدن المكذبين للرسل: التعصب لآبائهم، وتقليدهم فيما هم عليه من الجهل والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

٢٦- ذم الترف، ووجوب الحذر منه؛ لأنه يحمل أصحابه على رد الحق، وعلى الأشر والبطر والكفر.

٢٧- خطر التعصب للآباء، وتحريم التقليد لهم أو لغيرهم على جهل وضلال؛ لأنه كان سبب ضلال كثير من الخلق.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «أن المنافق أو المرتاب عندما يسأل في قبره يقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»(١).

٢٨- الإنكار على هؤلاء المقلدين لآبائهم: كيف يتركون ما جاءهم من الحق على لسان الرسول ﷺ، ويتبعون آباءهم على جهل وضلال؟ لقوله تعالى: ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾.

٢٩- جواز المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل، والتنزل مع الخصم؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾.

ومعلوم أنه ليس فيما هم عليه شيء من الفضل البتة.

٣٠- شدة ما هم عليه من العناد والمكابرة للحق، ولمن جاء به، وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

٣١- إقرارهم برسالة الرسل مع مخالفتهم لهم؛ لقولهم: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾.

٣٢- انتقام الله عز وجل من الأمم السابقة، بسبب تكذيبهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين للنبي ﷺ أن يصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم.

٣٣- وجوب النظر والتأمل فيما حل بالمكذبين السابقين من العقوبات، وأخذ العظة والعبرة من ذلك، والحذر مما حل بهم، فالسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾.

لما ذكر ما عليه المشركون من التعصب لآبائهم، والتقليد لهم على جهل وضلال؛ كحال المكذبين قبلهم، أتبع ذلك بذكر من ينبغي أن يتخذ أسوة، وهو إبراهيم عليه السلام في براءته من أبيه وقومه لما أصروا على الاستمرار على الشرك.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بفعل محذوف، أي: واذكر إذ قال إبراهيم خليل الرحمن، وإمام الحنفاء، لأبيه آزر، وقومه المشركين.

﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، أي: إنني بريء على الدوام من الذي تعبدونه من دون الله من الأصنام التي تنحتونها وتعبدونها؛ كما قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات:٩٥-٩٦].

فلم يقلد أباه وقومه على ما هم عليه من الشرك والضلال، بل أعلن لهم البراءة مما هم عليه من الشرك، بل منهم ما داموا على الشرك؛ كما قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا الذي خلقني، وهو ربي عز وجل الذي يستحق العبادة دون سواه، فإني أعبده وحده وأتولاه.

﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ الفاء: تعليلية، والسين: للاستقبال، أي: فإنه بإذنه وتوفيقه سيهديني إلى العلم بالحق، والعمل به.

﴿وَجَعَلَهَا﴾، أي: وجعل عز وجل شرعًا كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وعبادته تعالى وحده لا شريك له، وموالاته وحده، والبراءة مما سواه:

﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾، أي: دائمة ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾، أي: في ذرية إبراهيم عليه السلام.

أي: عهِدَ عز وجل إليهم بها، يَقتدي به عليه السلام فيها، ويسير عليها من هداه الله من ذريته عليه السلام، ويتوارثها الأنبياء من ذريته وأتباعهم، بعضهم عن بعض، إلى يوم القيامة؛ أسوة به؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ودعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

وقيل: الضمير المستتر في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعود إلى إبراهيم، بمعنى أنه عليه السلام وصى بها بنيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢] والأظهر القول الأول.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضمير يرجع إلى عقبه، أي: لأجل أن يرجعوا إليها، ويتمسكوا بها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ

﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل متعت هؤلاء المشركين وآباءهم بأنواع النعم، وأمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقوبة- مع ما هم عليه من الشرك والكفر- فتطاول عليهم العمر، فتمادوا في طغيانهم وضلالهم.

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾، أي: إلى غاية أن جاءهم الحق؛ يعني: القرآن الكريم، ووصف القرآن بـ«الحق»؛ لأنه أنزل ملابسًا للحق في طريق وصوله إلى النبي ﷺ، وجاء مشتملًا على الحق في أحكامه، وعلى الصدق في أخباره؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾، أي: ورسول بيّن الرسالة، وهو محمد ﷺ، مبين للقرآن بما أوحاه إليه من السنة، ومبين الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

ومبين الأحكام الشرعية؛ من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:٤٤].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الواو: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، متضمن معنى الشرط، والمراد بـ«الحق»: القرآن.

﴿قَالُواْ﴾ مكابرة وعنادًا، وبغيًا وعدوانًا: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾؛ كما قال الوليد بن المغيرة لما قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ [المدثر:٢٤].

﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أي: جاحدون منكرون له.

﴿وَقَالُواْ﴾ معطوف على ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾، أي: وقالوا أيضًا معترضين على الله في اصطفائه محمدًا ﷺ للرسالة، ومقترحين على الله بعقولهم الفاسدة:

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، أي: هلَّا نزل هذا القرآن ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾؛ يعنون: مكة والطائف، ﴿عَظِيمٍ﴾، أي: ذي مكانة عظيمة، أي: لكنا قبلناه، ولكنه لم ينزل على رجل من القريتين عظيم، فلا نقبله.

قيل: أرادوا بالرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي، وقيل غير ذلك.

وفي هذا سوء أدب منهم مع الله تعالى، واعتراض على اختياره وحكمه، واحتقار

للنبي ﷺ، وتنقص له- بأبي وأمي- وهو أفضل الخلق على الإطلاق، وسيد ولد آدم.

وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

كما أن في هذا إبطالًا لقولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾؛ لأنهم هنا أقروا بأنه قرآن، وإنما اعترضوا على المنزَل عليه، وهو النبي ﷺ.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الاستفهام: للإنكار، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: أهم يقسمون رحمة ربك يا محمد؟ يعني: النبوة؛ لأنها أعظم رحمة رحم الله بها العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والمعنى: ليسوا هم الخزنة لرحمة ربك يقسمونها على ما يريدون، فيعطوا النبوة لمن شاؤوا، ويمنعوها عمن شاؤوا.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: أرزاقهم وما فيه عيشهم في الحياة الدنيا.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾، أي: فضلنا بعضهم على بعض.

﴿دَرَجَٰتٍ﴾، أي: منازل ورتب متفاوتة؛ في أرزاقهم، وأحوالهم، وقدراتهم، وغير ذلك.

فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف، وهذا صحيح وهذا مريض، وهذا عالم وهذا جاهل، ونحو ذلك.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، أي: لحكمة عظيمة، وهي أن يجعل بعضهم بعضًا سخريًّا، أي: ليُسخِّر بعضهم بعضًا في الأعمال، والحرف والصنائع؛ لاحتياج بعضهم إلى بعض؛ كما قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم[(١)]

ولو لم يجعل الله بعضهم فوق بعض، ويسخِّرْ بعضهم لبعض؛ لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري. انظر: «ديوانه» (ص١٢٠٣)، «السحر الحلال» (ص١٠٢).

وإذا كان الله عز وجل قسم بينهم معيشتهم وأرزاقهم الدنيوية، وفاوت بحكمته بينهم في ذلك، فكيف يتطاولون بالاعتراض على الله في قسمة رحمته التي هي النبوة، واصطفائه من خيرة عباده من يعلم أنه أهل لها، أزكى الخلق قلبًا ونفسًا، وأفضلهم خلقًا، ظاهرًا وباطنًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلًا ومنبتًا.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ بالتوفيق للإيمان به، وطاعته، والفوز بجنته.

﴿خَيْرٌ﴾ خيرية مطلقة من جميع الوجوه.

﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: خير من جمعهم، أو من الذي يجمعونه من حطام الدنيا الفاني؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨].

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾، «لولا»: حرف شرط غير جازم، و«أن» والفعل «يكون» في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ بحذف مضاف، أي: لولا كراهة كون الناس.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: جماعة واحدة على الكفر، أي: لولا كراهة أن يجتمع الناس كلهم على الكفر حبًّا للمال والدنيا، أو اعتقادًا أن إعطاءنا المال والدنيا دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر.

﴿لَّجَعَلْنَا﴾ اللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لجعلنا كونًا، وصيَّرْنا.

﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، «مَن»: موصولة، أي: للذي يكفر بالرحمن.

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح السين وسكون القاف: «سَقْفًا»، وقرأ الباقون بضمهما: ﴿سُقُفًا﴾، واللام: رابطة لجواب «لولا».

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾: بدل من قوله: ﴿لِمَن﴾، أي: لبيوت من يكفر بالرحمن.

﴿سُقُفًا﴾: مفعول أول لـ«جعل»، وهو جمع: «سَقْف»، وهو أعلى البيت وغطاؤه.

﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: مبنية من فضة، وهي المعدن الثمين المعروف، وأحد النقدين: الذهب والفضة.

﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على «سُقفًا»، أي: ومعارج من فضة، أي: ومصاعد وسلالم ودرجًا من فضة.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: يصعدون ويعلون إلى أعلى بيوتهم وسطوحها؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧]، أي: يعلوه.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ معطوفة على ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: ولجعلنا لبيوتهم أبوابًا من فضة، أي: مداخل وأغلاقًا لبيوتهم مصنوعة من فضة.

﴿وَسُرُرًا﴾ معطوف على ﴿أَبْوَابًا﴾، أي: وسررًا من فضة.

ويجوز أن يكون «سررًا» مفعول به لفعل محذوف تقديره: «جعلنا»، فتكون الجملة معطوفة على «جعلنا» الأولى.

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ نعت لـ«سررًا».

﴿وَزُخْرُفًا﴾ الواو: عاطفة، و«زخرفًا»: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: «جعلنا»، معطوف على جواب الشرط: «جعل»، أي: وجعلنا زخرفًا، أي: ذهبًا، أو أنواع الزخارف الدنيوية.

أي: لولا لطفه عز وجل ورحمته بعباده، وكراهية أن يتسارعوا إلى الكفر والمعاصي، ويجتمعوا على ذلك إيثارًا للحظوظ الدنيوية، أو اعتقادًا أن ذلك دليل رضا الله، لولا ذلك لأعطيناهم كل ما ذكر، ووسعنا عليهم الدنيا توسيعًا عظيمًا.

﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ﴾ الواو: استئنافية، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: وما كل ذلك، والإشارة لكل ما ذكر من السقف، والمعارج، والأبواب، والسرر من الفضة، والزخرف.

﴿لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم، وهي للحصر، أي: وإن كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا.

وقرأ الباقون بتخفيف الميم: «لَمَا»، فتكون «إنْ» مخففة من «إنَّ» المشددة التي للتوكيد، وتكون اللام الداخلة على «لما»: للتوكيد، و«ما»: زائدة للتوكيد أيضًا، أي: وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا.

والمعنى: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية الحقيرة عند الله تعالى، يُتمتع به ثم يزول، وهو من تعجيل حسناتهم بما وسع عليهم في الدنيا؛ ليوافوا الله وليس لهم عنده حسنة.

قال ﷺ: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يُعطَى بها في الدنيا، ويُجزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعَمُ بحسناتٍ ما عمِلَ بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**»[1].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[2].

﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: والآخرة والجنة ونعيمها عند ربك للمتقين خاصة، الذين اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

عن عمر رضي الله عنه؛ أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على رمال[3] حصير قد أثَّر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان ﷺ متكئًا فجلس، وقال: «**أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟!**» ثم قال: «**أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا**».

وفي رواية: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»[4].

وقال ﷺ: «**لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها؛ فإنها لهم في**

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر ٢٨٠٨، وأحمد ٣/ ١٢٣، ١٢٥، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، ما جاء في هوان الدنيا على الله ٢٣٢٠، وابن ماجه، باب مثل الدنيا ٤١١٠، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٣) أي: نسج.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٦٨، وفي تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ومسلم في الطلاق، الإيلاء واعتزال النساء ١٤٧٩، والترمذي في التفسير ٣٣١٨.

الدنيا، ولنا في الآخرة»[١].

الفوائد والأحكام:

١- فضيلة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وثناء الله تعالى عليه، وامتداحه له في براءته من أبيه وقومه ومعبوداتهم لما أصروا على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢- شدة إخلاصه عليه السلام لربه، وعبادته له وحده لا شريك له؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

٣- وجوب البراءة من الشرك وأهله، وأن الشرك والتوحيد لا يجتمعان أبدًا.

٤- إثبات أنه عز وجل هو الخالق وحده؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

٥- أن مِن لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية.

٦- قوة رجاء إبراهيم عليه السلام، وحسن ظنه بربه وهدايته له؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

٧- أن الهداية والتوفيق بيد الله تعالى، فينبغي اللجوء إليه وحده، وسؤاله الهداية والتوفيق، ورجاؤه، وحسن الظن به عز وجل.

٨- فضل الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وذريته، في جعله كلمة التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله كلمة باقية فيهم إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾.

٩- أن الله عز وجل جعل كلمة التوحيد في ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لأجل أن يرجعوا ويتوبوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة، الأكل في إناء مفضض ٥٤٢٦، ومسلم في اللباس والزينة، تحريم استعمال إناء الذهب والفضة ٢٠٦٧، وأبو داود في الأشربة ٣٧٢٣، والنسائي في الزينة ٥٣٠١، والترمذي في الأشربة ١٨٧٨، وابن ماجه في الأشربة ٣٤١٤، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

١٠- وصية إبراهيم عليه السلام بكلمة التوحيد بنيه، ودعاؤه لهم بالتمسك بها، ومجانبة الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وقوله عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

١١- اغترار المشركين المكذبين بما متعهم الله به من النعم، وما أغدق عليهم من الخيرات والمنن، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، وتماديهم في الغي والطغيان والضلال حتى جاءهم الحق، بإنزال القرآن، وبعثة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

١٢- أن القرآن الكريم حق، وجاء ملابسًا للحق، ومشتملًا على الحق.

١٣- أن الرسول ﷺ بيِّنُ الرسالة، مبيِّن للقرآن، ومبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، وللأحكام الشرعية.

١٤- شدة مكابرة المشركين وعنادهم، وبغيهم وعدوانهم؛ لوصفهم القرآن بالسحر، وكفرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

١٥- سوء أدبهم مع الله، واعتراضهم عليه سبحانه باصطفائه محمدًا ﷺ، واقتراحهم على الله عز وجل بعقولهم الفاسدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

١٦- أن القرية تطلق على المدينة الكبيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣].

١٧- تناقضهم؛ فمرة يصفون القرآن بالسحر، ومرة يعترضون على من أُنزل عليه القرآن، وفحوى هذا: أنهم يعترفون بأنه قرآن وليس بسحر.

١٨- عظم جهلهم وسفههم، وحسدهم وحقدهم؛ حيث اعترضوا على إنزال القرآن على محمد ﷺ احتقارًا وتنقصًا له ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأفضل الخلق وأزكاهم على الإطلاق من جميع الوجوه؛ في أخلاقه وصفاته، وشمائله الخَلقية والخُلقية، الظاهرة والباطنة، وفضلوا عليه من لا وزن له عند الله، من الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥].

قال السعدي(١): «وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه إلا من ضل وكابر، فكيف يفضِّل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟».

١٩- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته فوق خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾.

٢٠- إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق، والرد على القدرية.

٢١- إنكاره عز وجل على المشركين اعتراضهم على اصطفائه عز وجل محمدًا ﷺ للرسالة، وإنزال القرآن عليه، واقتراحهم من ليس أهلًا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٢٢- التعجب من تطاولهم في الاعتراض على قسمته عز وجل النبوة، وهم عاجزون عن قسمة معيشتهم وجلبها؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية.

٢٣- أن القرآن الكريم رحمة من الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ وعلى عباده، بل هو أعظم الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾.

٢٥- أن الرحمة كلها بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بفضله وعدله وحكمته.

٢٦- أن الأرزاق كلها من الله، وهو الذي قسم بين العباد معيشتهم في الدنيا، بحكمته وعدله وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢٧- حكمة الله تعالى في المفاضلة بين العباد في أرزاقهم ومعاشهم وأحوالهم؛ ليجعل بعضهم بعضًا سخريًّا في الأعمال والصناعات، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٦٤٤.

٢٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾ الآية.

٢٩- أن الناس لو كانوا كلهم طبقة واحدة، وعلى مستوى واحد من الغنى أو الفقر، ما سخَّر بعضهم بعضًا، وما خدم بعضهم بعضًا، ولما استقام أمرهم، وانتظمت أحوالهم، ولما عمر الكون.

٣٠- أن رحمة الله تعالى بالتوفيق للإيمان به وطاعته، والفوز بجنته، خير مطلقًا من جميع ما يجمعه الناس من حطام الدنيا الفاني، وأن النعمة الدينية خير من النعمة الدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٣١- أن الجنة رحمة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٧]، أي: في جنته.

وفي الحديث القدسي: قوله عز وجل للجنة: «**أنت الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء**»(١).

٣٢- حقارة الدنيا، وكل ما يجمع منها، وأنها لا تعدل شيئًا بالنسبة للآخرة وما عند الله من الرحمة والجنة.

٣٣- أن إعطاء الله الدنيا والمال ليس دليلًا على رضاه، ولولا لطفه بعباده ورحمته بهم لئلا يجتمعوا على الكفر؛ حبًّا للدنيا، أو اعتقادًا بأن إعطاء الله المال دليل محبته، لزاد في زخرفها لكل من يكفر به؛ لهوانها وهوانهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾.

٣٤- أن الله لو وسع الدنيا على الناس، وأغدق عليهم من ملذاتها وشهواتها وزينتها وزخارفها أكثر من حاجتهم، لطغوا وبغوا وتكالبوا على الكفر، وتسارعوا إليه،

---

(١) سبق تخريجه.

واجتمعوا عليه؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق:٦، ٧].

٣٥- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة لله تعالى، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من عباده.

٣٦- أن كل ما يعطاه الناس من زينة الدنيا وزخارفها وملذاتها ونحو ذلك، ما هو إلا متاع الحياة الدنيا يزول بزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾.

٣٧- أن الدار الآخرة وما فيها من الجنان والنعيم، إنما هي للمتقين خاصة دون غيرهم، الذين اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

٣٨- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

٣٩- الترغيب بتقوى الله تعالى، والحث عليها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾، لما ذكر خطر الدنيا وزخارفها، وأن فتنتها قد تؤدي إلى الكفر، حذر وتوعد من ينشغل بها ويعرض عن ذكر الله.

قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: يتعامى ويعرض ويصد عن ذكر الله تعالى: القرآن الكريم الذي هو أعظم رحمة أنزلها الله تعالى على العباد، ورحمهم بها، ويعرض ويغفل عن ذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن كثير(١): «والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد هنا: عشا البصيرة».

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قرأ يعقوب: «يُقَيِّضْ» بالياء، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نُقَيِّضْ﴾، أي: نهيئ له، ونسلط عليه شيطانًا مريدًا.

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾: جملة جواب الشرط «من»، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، والضمير في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ يعود إلى الشيطان، والضمير في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ يعود إلى المعرض عن ذكر الله.

أي: فهو له مقارن، مصاحب على الدوام، يؤزه إلى المعاصي أزًّا؛ كما قال تعالى:

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢١٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم:٨٣]، وقال تعالى: ﴿ ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت:٢٥].

﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾، أي: وإن هؤلاء القرناء من الشياطين ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾، اللام: للتوكيد، أي: ليصرفون من سُلطوا عليهم ممن تعامَوْا عن ذكر الله وأعرضوا عنه.

﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن الصراط المستقيم، والطريق القويم.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: ويظن هؤلاء الذين صُدُّوا عن السبيل بسبب تزيين قرنائهم من الشياطين لهم الباطل وتحسينه، وتزهيدهم بالحق وتشويهه، وبسبب إعراضهم عن ذكر الله.

﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: ويظنون أنهم على هدى، وأنهم على الحق.

وهذه قاصمة الظهر، والمصيبة الكبرى، والبلية العظمى، أن يكون الإنسان على ضلال، ويظن أنه على هدى، فيستمرئ ما هو عليه من الضلال، ولا يطرق باب الهدى، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤].

وقد أحسن القائل:

يقضـــى عـــلى المــرء في أيــام محنتــه   حتــى يــرى حسـنًا مــا لــيس بالحسَـنِ

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم بألف بعد الهمزة على التثنية: «جَاءَانَا»، أي: المعرض عن ذكر الله، وقرينه من الشياطين. وقرأ الباقون بغير ألف على الإفراد: ﴿جَآءَنَا﴾، أي: حتى إذا وافانا يوم القيامة المعرض عن ذكر الله، الذي سُلِّط عليه قرينه من الشياطين بسبب إعراضه.

﴿قَالَ﴾، أي: قال هذا المعرض مخاطبًا لقرينه متبرئًا منه، متحسرًا متندمًا: ﴿يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾.

«يا»: للتنبيه، و«ليت»: للتمني، أي: أتمنى أنه كان بيني وبينك أيها القرين.

﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: بُعد ما بين المشرق والمغرب. وإنما يقال: «المشرقان» من باب التغليب؛ كما يقال: «القمران» للشمس والقمر، و«العُمَران» لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ونحو ذلك.

وقيل: المراد مشرقي الشمس في الشتاء والصيف؛ لأن بينهما مسافة بعيدة جدًّا.

والمعنى: ليت أني كنت بعيدًا عنك كل البعد؛ حتى أسلم من صدك إياي عن سبيل الحق، وغرورك لي.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا؛ صددتني عن الحق، وأضللتني وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

فكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا (٢٩)﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، بأن يُخفّف العذاب عنكم. والخطاب للذين تعاموا عن ذكر الله، ولقرنائهم الذين صدوهم عن السبيل.

﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ بكفركم وضلالكم أنتم وقرناؤكم، ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

قرأ ابن عامر بكسر الهمزة على الاستئناف: «إِنَّكُمْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنَّكُمْ﴾.

والمصدر المؤول: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ في محل رفع فاعل ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، أي: ولن ينفعكم اشتراككم أنتم وقرناؤكم جميعًا في العذاب في النار؛ لأن كلًّا منكم له نصيبه من العذاب، ولا يخفِّف عذابُ فريق منكم عذابَ الفريق الآخر.

فأنتم لكم نصيبكم من العذاب بسبب إعراضكم عن ذكر الله، وطاعة قرنائكم في الضلال، وهم لهم نصيبهم من العذاب بسبب ضلالهم وإضلالهم لكم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا

نَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

فلا يتسلى أحد منكم بمشاركة الآخر له بالعذاب؛ كما هو حال أهل المصائب في الدنيا، يتسلى المصاب بمصاب غيره؛ كما قالت الخنساء(١) :

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكين مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الاستفهام: للتعجب والنفي، أي: أفأنت يا محمد تسمع الصم الذين لا يسمعون، ﴿أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ الذين لا يبصرون؟

أي: أنك يا محمد لا تستطيع إسماع الصم عن سماع الحق إسماع تدبر وفهم وانتفاع، ولا هداية العمي عن طريق الحق بقلوبهم وبصائرهم، أي: لا تستطيع إسماعهم الحق سماع انتفاع، ولا هدايتهم إليه هداية قبول واتباع.

﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ الواو: عاطفة، و«مَن»: اسم موصول في محل نصب معطوف على «العمي»، أي: أو تهدي من كان في ضلال مبين؟ أي: الذي كان في ضلال عن الحق بيِّن ظاهر.

أي: أنك لا تستطيع هداية من هو أصم أعمى لا يسمع الحق، ولا يبصره، ولا يفقهه، ومن كان في ضلال بيِّن ظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة:١٨]، وقال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

وفي هذا تسلية له ﷺ ، فلا ييأس ولا يحزن على ضلال من ضل، ممن أصم الله آذانهم، وأعمى أبصارهم عن الحق، وختم على قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة:٧].

أي: أن هؤلاء ليس لهم إلا العذاب عاجلًا أو آجلًا؛ ولهذا قال:

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ

(١) انظر: «ديوانها» (ص٨٤).

﴿ ٤٢ ﴾.

الفاء: استئنافية، و«إن»: شرطية، و«ما»: مؤكدة، والفاء: رابطة لجواب الشرط في الجملتين، و«أو»: عاطفة، أي: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾، أي: نتوفينك قبل تعذيبهم، ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالة، أي: فلا بد من الانتقام منهم وإن ذهبت أنت، وفي هذا تأكيد لعقابهم وإن توفاه الله قبل ذلك.

﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ ﴾، أي: أو نرينك الذي وعدناهم، أي: الذي توعدناهم به من العذاب بالانتقام منهم في حياتك.

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ الاقتدار: شدة القدرة وتمامها، أي: فإنا عليهم قادرون تمام القدرة، فإما أن نأخذهم بالعذاب العاجل، أو بالعذاب الآجل؛ كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد:٤٠].

وكأنه ﷺ والمؤمنون استبطؤوا تأخير الانتقام من المشركين.

وقد أراه الله عز وجل في حياته ما أقر عينه، وشفى صدور المؤمنين، وأذهب غيظ قلوبهم، في بدر الكبرى؛ حيث نصرهم الله تعالى، فقتلوا من صناديد المشركين سبعين، وأسروا سبعين، وأظهر الله دينه، وأعلى كلمته، وتوالت الهزائم على المشركين، إلى أن تُوج ذلك بفتح الله عز وجل له ﷺ مكة، وتمكينه من رقاب المشركين، فمَنَّ عليهم صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم: «**اذهبوا؛ فأنتم الطلقاء**»(١).

وليس في قوله ﷺ في الحديث: «**أنا أَمَنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون**»(٢)، ما يدل على أن الله لم يُرِ نبيه ﷺ ما وعده من الانتقام من المشركين في حياته؛ لأن هذا الحديث فيه: «أنه ﷺ أمنة لأصحابه»، أي: أمنة لهم من الفتن.

والآية إنما هي في المشركين المستحقين للانتقام والعذاب، وقد انتقم الله منهم في

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٠٠) (١٨٢٧٦)، وفي «معرفة السنن والآثار» (١٣/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣١، وأحمد ٤/ ٣٩٨- ٣٩٩، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

بدر وغيرها، وأراه ذلك.

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«استمسك»: أبلغ من «أَمسِكْ»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا.

أي: فاستمسك بالذي أوحي إليك من القرآن والسنة، وخذ به واتبعه، عملًا به، ودعوة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأحزاب:٢].

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الجملة: تعليلية؛ لتثبيته ﷺ، أي: لأنك على صراط مستقيم، أي: على طريق عدل قويم، لا اعوجاج فيه، موصل إلى الله، وإلى دار كرامته؛ كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل:٧٩].

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾؛ يعني: القرآن الكريم ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنه لتذكير لك ولقومك، أي: عظة وعبرة لكم، وتذكير لكم بالأحكام والأوامر والنواهي؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤].

وأيضًا شرف لك ولقومك؛ لأنه أنزل بلغتكم التي هي أفصح اللغات وأوسعها، فكان به شرفها وخلودها، وشرفكم.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ عن هذا القرآن، وعن الاستجابة له، والعمل به، والدعوة إليه، فالمسؤولية عليكم أعظم من غيركم.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي بتخفيف الهمزة: «وَسَلْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ وَسْـَٔلْ ﴾.

أي: واسأل جميع الذين أرسلنا قبلك من رسلنا؛ لتقوم الحجة على المشركين، أي: استقرئ شرائع من أرسلنا من قبلك من رسلنا.

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الاستفهام للنفي، أي: أجعلنا غير الرحمن آلهة يعبدون؟

أي: أن جميع الرسل لم يقروا الشرك بالله، بل دعوا إلى ما دعوت إليه من توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ونهوا عن الشرك وعبادة الأصنام والأنداد.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ [الأنبياء:٢٥].

فقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩] وهكذا قال هود وصالح وشعيب عليهم السلام لأقوامهم، وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فلا مستند للمشركين في إشراكهم من دون الله، لا من عقل، ولا نقل.

الفوائد والأحكام:

١- عقوبة الله تعالى لمن تعامى عن القرآن الكريم وأعرض عنه؛ بتسليطه عز وجل عليه شيطانًا يقارنه ويلازمه، ويضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦)﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ [طه:١٢٤-١٢٧].

٢- وجوب الحذر من الغفلة والإعراض عن القرآن، وعن ذكر الله تعالى.

٣- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾.

٤- صد هؤلاء القرناء من الشياطين وصرفهم لمن سلطوا عليه عن الصراط المستقيم، والطريق القويم، وتضليلهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٥- عظم مصيبة الذين أعرضوا عن ذكر الله، وصدهم قرناؤهم من الشياطين عن السبيل، حيث تعمى قلوبهم، ويظنون أنهم على هدى، وهذه والله قاصمة الظهر: أن يكون الإنسان ضالًا ويظن أنه على هدى، فيركن إلى ما هو عليه من الضلال، ولا

يبحث عن طريق الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

٦- الحذر من قرناء السوء، وتزيينهم الباطل، وصدهم عن الحق.

٧- إثبات البعث والمعاد، ولقاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾.

٨- تبرؤ المعرض عن ذكر الله يوم القيامة من قرينه، وتحسره وندامته على مصاحبته له، وتمنيه أن لو كان بينهما بُعد ما بين المشرق والمغرب، وذمه له، وهيهات أن ينفعه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

٩- أنه لا ينفع المعذبين من الضالين والمضلين، والأتباع والمتبوعين، اشتراكهم في العذاب بأن يخفِّف عذابُ فريق منهم عذابَ الفريق الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي هذا تهديد بشدة عذابهم، دون أي تخفيف، ولو بالتسلي بمن هو أشد منهم عذابًا، أو بمن هو مثلهم؛ كما هو الحال في مصائب الدنيا.

١٠- أن المعذبين في النار يعلمون أنهم مشتركون في العذاب، ولكن ذلك لا يسليهم، ولا يهون عليهم المصاب.

١١- أن مصير الظالمين بالكفر والشرك واحد هو العذاب في النار، واشتراكهم في ذلك، على اختلاف منازلهم في دركات النار.

١٢- تسليته ﷺ؛ لئلا ييأس ويحزن على ضلال من ضل ممن أصم الله سمعه، وأعمى بصره وبصيرته عن الحق، فضل الضلال المبين، فمهمته ﷺ البلاغ فقط، والهداية والإضلال بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

١٣- أنه لا سبيل إلى هداية من أضله الله، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، ومن كان في ضلال مبين؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

[الجاثية:٢٣].

١٤- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ﴾، وقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وما بعد ذلك.

١٥- وعد الله تعالى له ﷺ بالانتقام من أعدائه المشركين لا محالة، إما عاجلًا في حياته، وإما آجلًا بعد مماته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾.

وقد أراه عز وجل في بدر من الانتقام منهم والنصر عليهم ما أقر عينه، وشفى صدور المؤمنين، وكذا ما بعدها، إلى أن فتح الله له مكة، ودانت له رقاب العرب قاطبة.

١٦- أن الوعد كما يكون في الخير يكون في الشر أحيانًا.

١٧- أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وليس له من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

١٨- أنه لا ضير على الرسول ﷺ في تأخير الانتقام من أعدائه إلى ما بعد وفاته، بل ولا في تأخير النصر أيضًا؛ لأن لله تعالى وحده الحكمة في ذلك كله.

وهكذا ينبغي للدعاة إلى الله تعالى والمصلحين أن يعملوا، ويَدَعوا أمر النتائج إلى الله تعالى.

١٩- الوعيد للمكذبين بالانتقام منهم إما في الدنيا أو في الآخرة، وبيان تمام قدرة الله تعالى.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على الانتقام منهم عاجلًا أو آجلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

٢١- تثبيت الله تعالى له ﷺ؛ بأمره بالتمسك بوحيه إليه، والثناء عليه وعلى هديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾.

وغيره من أتباعه المؤمنين مأمورون من باب أولى.

٢٢- إثبات وحيه تعالى إليه ﷺ، وإثبات رسالته، واستقامة طريقه.

٢٣- أن القرآن الكريم تذكير وعظة وعبرة له ﷺ ولقومه، ولكل من اتبعه؛ فهو

بيان الأحكام والأوامر والنواهي، وغير ذلك؛ كما أنه شرف له ﷺ ولقومه؛ لأنه أنزل بلغتهم أفصح اللغات وأوسعها، فكان به شرفها وخلودها.

٢٤- مسؤولية الأمة عن الاستجابة لهذا القرآن، والعمل به، والدعوة إليه، ونشره، ومسؤولية العرب أشد وأعظم، الذين أنزل القرآن بلغتهم، وشرّفهم الله به؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

٢٥- إفحام المشركين، وإقامة الحجة عليهم في بطلان ما هم عليه من الشرك، الذي لم تقره جميع الرسالات والشرائع السابقة، بل أكدت كلها على النهي عنه، وعلى بطلانه، وعلى وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٢٦- إثبات الرسل والرسالات السابقة، واتفاقها على التوحيد، وأنه ﷺ هو خاتم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾، أي: ولقد ابتعثنا موسى بآياتنا الكونية العظيمة الدالة على صدقه، من الآيات التسع؛ كاليد، والعصا، والطوفان، والجراد، وغير ذلك.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾، أي: إلى فرعون وأشراف قومه.

﴿فَقَالَ﴾ موسى عليه السلام لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: أرسلني رب العالمين إليكم، أدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له دون سواه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، مضمن معنى الشرط، و«إذا»: فجائية، أي: إذا هم منها يضحكون استهزاءً وتكذيبًا بها، وجحودًا لها؛ ظلمًا وعلوًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وما نريهم أيَّ آية.

﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا هي أكبر من الآية التي قبلها؛ تدرجًا في تأكيد صحة دعوته؛ لإقامة الحجة عليهم.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾، أي: عاقبناهم بالعذاب؛ من تسليط الجراد والقمل والضفادع والدم عليهم، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا ويتوبوا عن تكذيب آيات الله وجحودها، والاستهزاء بها، وعن الشرك، ويسلموا وينقادوا للحق.

﴿وَقَالُوا۟﴾ لموسى عليه السلام لما نزل بهم العذاب:

﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ هذا إما على سبيل الذم لموسى والتنقص له، والتهكم به، وتشويه دعوته، وأنه ساحر، وما جاء به سحر.

وإما على سبيل المدح والتعظيم له، أي: يا أيها العالم بالسحر؛ لأن السحر عندهم لم يكن مذمومًا، وكانوا يسمون الساحر بـ«العالم»، ويقوي هذا: أن الحال حال ضرورة وتضرع منهم لدفع العذاب عنهم.

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لم يقولوا: ربنا، أو: ربنا وربك؛ لأنهم لا يؤمنون برب موسى، وهو الله عز وجل، وإنما يؤمنون بربوبية فرعون لهم وألوهيته.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: بسبب عهده عندك، أو بسبب الذي عهده عندك.

أي: بما عهده إليك، وخصك به من الفضائل والمناقب.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إننا إن كشف عنا العذاب لمهتدون ومؤمنون.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلما أزلنا عنهم العذاب ورفعناه.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، «إذا»: فجائية، أي: إذا هم ينقضون عهدهم وقولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ ويستمرون على ما هم عليه من الاستهزاء بآيات الله، والكفر بها، وجحودها؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ

ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الآيات:١٣٣-١٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾، أي: جمعهم ونادى فيهم مستعليًا بباطله، مغترًّا بملكه وسلطانه قائلًا:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: ألست المالك لذلك، المتصرف فيه؟

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ يعني: نهر النيل والترع المتفرعة منه في وسط القصور والبساتين.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾، أي: في مملكتي وتحت تصرفي، أو تجري بأمري وتسخيري لها. وهذا لا يستبعد؛ لأنه ادعى الربوبية؛ كما ادعى الألوهية، قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨].

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفلا تبصرون ما أنا فيه من القوة والملك العظيم.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾، «أم»: هي المنقطعة، التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام، أي: بل أنا خير، وقيل: «أم» عاطفة، والجملة معطوفة على جملة: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ يشير إلى موسى عليه السلام، وأشار إليه بإشارة القريب «هذا» احتقارًا له وتقليلًا من شأنه.

﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾، أي: حقير ذليل ضعيف؛ لا عز له، ولا ملك، ولا سلطان.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، أي: ولا يكاد يفصح عما في ضميره من الكلام، أي: ليس بفصيح اللسان.

وكذَبَ عدو الله، وإنما حمله على هذا الكفرُ والعتو والعناد والحقد والحسد لموسى عليه السلام والتخوف على ملكه وأُبَّهته منه، فموسى عليه السلام كليم الرحمن، الوجيه عند الله تعالى، ثالث أولي العزم من الرسل، وقد بلغ رسالته أتم بلاغ، وما ضره في ذلك ما أصاب لسانه من أثر تلك الجمرة التي تناولها في صغره، وقد سأل الله تعالى فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٧-٢٨] وقد استجاب الله له فقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦].

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

هذا من بقية كلام فرعون.

قرأ يعقوب وحفص: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ بإسكان السين من غير ألف.

وقرأ الباقون بفتح السين وألف بعدها: «أَسَاوِرَةٌ».

قوله: ﴿فَلَوْلَآ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدرة، و«لولا»: حرف تحضيض، أي:فهلا، ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ﴾، أي: على موسى عليه السلام.

﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ الأسورة: ما يجعل في الأيدي من الحلي.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، أي: مقرونين معه يحفون به ويكتنفونه، يخدمونه ويصدقونه.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة في الموضعين، أي: فاستخف عقول قومه بترويج هذه الشبه، وتكذيب موسى، ودعوتهم إلى الضلال.

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾، أي: فاستجابوا له فكذبوا موسى.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ الجملة تعليلية، أي: لأنهم كانوا قومًا فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله تعالى، فقيض الله لهم فرعون، فاستخفهم بهذه الشبه، فأطاعوه، فصدهم عن الحق، فضلوا الضلال المبين.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾، أي: أغضبونا وأسخطونا بكفرهم وضلالهم وتكذيبهم بآياتنا.

﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، أي: عاقبناهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ في اليم وأهلكناهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴾، فلم ينج منهم أحد، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق.

كما قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام: «سُلُفًا»، وقرأ الباقون بفتحهما: ﴿سَلَفًا ﴾.

أي: فجعلناهم عظة وعبرة لمن يعمل مثل عملهم ممن جاؤوا بعدهم، والسعيد من وعظ بغيره.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إرساله عز وجل موسى بآياته إلى فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾.

٢- تبليغ موسى عليه السلام فرعون وملأه أنه مرسل إليهم من رب العالمين، وإقامته الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٤- استهزاء فرعون وملئه بآيات الله، وجحودهم وتكذيبهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٥- تتابع الآيات عليهم، كل آية أكبر من التي قبلها؛ تدرجًا في إقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾.

٦- أخذهم بالعقوبات والعذاب؛ من تسليط الجراد والضفادع والدم وغير ذلك؛ لأجل أن يرجعوا ويتوبوا عما هم عليه من الجحود لآيات الله، والاستهزاء بها، ويسلموا وينقادوا للحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

٧- إثبات العلة والحكمة في أحكام الله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

٨- توسلهم إلى موسى أن يدعو ربه بما عهد إليه وفضَّله به أن يكشف عنهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾.

٩- وعدهم وتأكيدهم له أنهم لمهتدون إن دعا لهم وكشف العذاب عنهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾.

١٠- كذبهم ونقضهم ما وعدوا به من الاهتداء، واستمرارهم- بعد كشف العذاب عنهم- على الكفر والشرك والتكذيب بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

١١- استعلاء فرعون بباطله، واغتراره وافتخاره بملكه وسلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

١٢- افتخاره بما ليس له فيه يد بقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾.
والذي أجرى هذه الأنهار هو الله عز وجل، فكيف يفتخر بجريانها من تحته، أو يدعي تسخيره لها؟!

١٣- ادعاؤه الخيرية لنفسه، واحتقاره لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾.

١٤- لمزه موسى بأنه لا يكاد يفصح عما في ضميره؛ لقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾.
وهذا باطل؛ لأن ما كان في لسانه عليه السلام من عقدة دعا الله عز وجل فحلها، فبلغ رسالة ربه على أكمل وجه، ولا يعاب في الأشياء الخلقية التي ليست من فعل الإنسان، ولا يذم بها.

١٥- طعنه في رسالة موسى، وانتقاصه لما جاء به من الآيات، وقوله عنادًا ومكابرة: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

١٦- استخفافه بعقول قومه بهذه الشبهات، وطاعتهم له، وإضلاله إياهم بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

١٧- أن الفسق والمعاصي سبب لما هو أعظم منها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف:٥] وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام:١١٠].

١٨- أن الكفر والمعاصي سببان لسخط الله وغضبه، وأن غضبه عز وجل سبب لانتقامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾.

١٩- إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿ءَاسَفُونَا﴾.

٢٠- إهلاكهم جميعًا بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

٢١- جعلهم عبرة وعظة لمن فعل مثل فعلهم ممن جاء بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «**إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير**». فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبيًّا وعبدًا من عباد الله صالحًا، وقد عبدته النصارى؟ فإن كنت صادقًا، فإنه كآلهتهم. فأنزل الله: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ قال: يضجون. ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ قال: «**هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة**»[(١)].

وفي رواية: «قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير**» فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبيًّا، وعبدًا من عباد الله صالحًا؟ فقد كان يعبد من دون الله. فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾» [(٢)].

قوله: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾، «ابن»: نائب فاعل، «مثلًا»: مفعول به منصوب بتضمين «ضُرب» معنى «جُعل»، أي: ولما ضرب المشركون عيسى بن مريم مثلًا في كونه عُبِدَ من دون الله، وعارضوا به قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء:٩٨].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣١٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٨٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٨٤.

قال ابن تيمية: «ضاربه هو الذي عارض به قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء:٩٨].

فلما قال ابن الزبعرى: لأخصمن محمدًا، فعارضه بالمسيح، وناقضه به، كان قد ضربه مثلًا قاس الآلهة عليه، ويرجح هذا قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾. فعلم أنهم هم الذين ضربوه- يعني: المشركين- لا النصارى»[1].

﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمزة بكسر الصاد: ﴿يَصِدُّونَ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «يَصُدُّونَ».

«إذا» فجائية، أي: إذا قومك يا محمد ﴿مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، «من» سببية، أي: بسبب هذا المثل الذي ضربوه يلِجُّون في خصومتهم ويضجون ويضحكون فرحًا وجذَلًا؛ اعتقادًا منهم أنهم غلبوا وأفلحوا في حجتهم، ويعرضون بسبب ذلك عن القرآن.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري.

أي: وقال المشركون: أآلهتنا من الأصنام والأوثان خير.

﴿أَمْ هُوَ﴾؟ الهمزة للاستفهام، «أم»: حرف عطف، أي: أم عيسى بن مريم؟

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾، أي: ما ضرب المشركون هذا المثل لك يا محمد وعارضوا به.

﴿إِلَّا جَدَلًۢا﴾؛ إلا: أداة حصر، «جدلًا»: مفعول لأجله، أي: إلا لأجل الجدل، أو مصدر في موضع الحال منصوب، أي: إلا مجادلين، أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلا مراء وخصامًا بالباطل؛ لأن عيسى عليه السلام وكل من عبد من العقلاء وهو غير راضٍ أن يعبد من دون الله؛ كالعزير والملائكة والصالحين، فهو غير داخل قطعًا في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] .

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء:١٠١].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، ﴿خَصِمُونَ﴾ جمع: «خصم»،

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥٢٢.

أي: شديدو الخصومة بالباطل.

عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾[1].

وفي رواية عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضبًا شديدًا، حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال ﷺ: «**لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل**»، ثم تلا: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾[2].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، أي: ما هو، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما عيسى بن مريم إلا عبد من عبادنا أنعمنا ومننا عليه بالنبوة والرسالة، وليس كما زعمت النصارى أنه هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: وجعلناه عظة وعبرة وآية ودلالة على تمام قدرتنا لبني إسرائيل في خلقه من أم بلا أب.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾، أي: بدلكم، ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، أي: يخلفونكم فيها، ويخلف بعضهم بعضًا، ولو فعلنا ذلك، لأرسلنا إليهم ملائكة منهم رحمة بهم؛ ليتمكنوا من الأخذ منهم؛ كما أرسلنا رسلًا منكم رحمة بكم؛ لكي تتمكنوا من الأخذ منهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ الضمير يعود إلى عيسى عليه السلام، واللام: للتوكيد، أي: وإن نزول عيسى عليه السلام علامة وآية وأمارة ودليل على قرب قيام الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الزخرف ٣٢٥٣، وابن ماجه في المقدمة ٤٨، وأحمد ٥/ ٢٥٢، ٢٥٦، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٢٨.

[النساء:١٥٩].

وقد ثبت وتواتر عن النبي ﷺ الخبر بنزول عيسى بن مريم قبل يوم القيامة إمامًا عدلًا، وحكمًا مقسطًا[1].

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، أي: فلا تشكُّنَّ بها؛ فإنها واقعة وكائنة لا محالة.

﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ بفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه، تنجوا وتفوزوا.

﴿هَٰذَا﴾، أي: الإيمان بقيام الساعة، وما آمركم باتباعي عليه وسلوكه ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: طريق عدل قويم، لا اعوجاج فيه، موصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن اتباعي وسلوك الطريق المستقيم.

﴿إِنَّهُ﴾، أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: عدو ظاهر العداوة، حريص على صدكم عن الحق وإغوائكم؛ كما أخرج أبويكم من الجنة.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ﴾ لبني إسرائيل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالآيات البينات الدالة على صدقه وصحة نبوته؛ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾، «قد»: حرف تحقيق، أي: قد جئتكم بالنبوة والعلم والهدى.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن أبين لكم بعض الذي تختلفون فيه من أمر دينكم، أي: لأبين لكم الحق والصواب في ذلك؛ لأنه عليه السلام جاء مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة، وجاء ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاء به.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أنهاكم عنه من الشرك بالله، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ بفعل ما آمركم به من طاعته عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٢٢، ومسلم في الإيمان ١٥٥، والترمذي في الفتن ٢٢٣٣، وابن ماجه في الفتن ٤٠٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: تعليل لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، يفيد الحصر والتوكيد، أي: إن الله وحده ربي وربكم، الذي يجب أن نعبده وحده دون سواه.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له، وأخلصوا له، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: ما أمرتكم به من تقوى الله وطاعته، والإقرار بربوبيته وعبادته وحده لا شريك له: طريق عدل مستقيم، ومنهج قويم، يجب اتباعه وسلوكه، ولا ينبغي العدول عنه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾، «الأحزاب» جمع: حزب، أي: الفرق.

﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، أي: من بين بني إسرائيل الذين جاءهم عيسى عليه السلام بالبينات، أي: اختلفت مواقفهم منه، ومقالاتهم فيه، فمنهم من أقر بأنه عبد الله ورسوله، وشهدوا له بذلك، وصدقوا ما جاء به.

ومنهم من غلا فيه وعبده من دون الله، وهم ثلاث فرق من النصارى: منهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة.

ومن بني إسرائيل من كذبه، وهم اليهود لعنهم الله.

﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة، «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: خسار وهلاك ودمار ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: بالإشراك بالله وتكذيب رسله.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فويل لهم؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، وأنه سبب هلاكهم وخسارهم ودمارهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، أي: من عذاب يوم القيامة المؤلم الموجع، حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

الفوائد والأحكام:

١ - ضرب بعض المشركين مثلًا بعيسى بن مريم، ومعارضتهم ما توعدهم الله به من أنهم ومعبوداتهم حصب جهنم، بقياسهم آلهتهم على عيسى بن مريم الذي عُبد من

دون الله، وفرحهم بذلك، وصدهم وإعراضهم بسبب هذا المثل؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

٢- دعواهم الباطلة أن آلهتهم من الأصنام والأوثان خير من عيسى عليه السلام؛ لقولهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾.

٣- أنهم ما ضربوا هذا المثل له ﷺ إلا مجادلة ومخاصمة بالباطل؛ لأنهم أهل خصومة وجدال بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٤- أن عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد من عباد الله، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، وجعله عبرة وعظة ودلالة على تمام قدرة الله تعالى في خلقه من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

٥- الرد على المشركين الذين استدلوا بعبادة من عبد عيسى بجواز عبادة الأصنام، وعلى النصارى الذين قالوا: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وعلى اليهود الذين أنكروا رسالته وكذبوه، ببيان أنه عبد من عباد الله لا يعبد، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة.

٦- بيان أنه عز وجل لو شاء لجعل بدل بني آدم ملائكة في الأرض يخلفونهم، ويخلف بعضها بعضًا، وأرسل إليهم رسلًا منهم، وفي هذا رد على من يطعنون بكون الرسل من البشر، وتهديد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

٧- إثبات مشيئة الله تعالى، وتمام قدرته، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٨- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في العالم العلوي.

٩- أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان علامة وآية ودلالة على قرب قيام الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾.

١٠- وجوب الإيمان بقيام الساعة، والمعاد والبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾.

١١- وجوب اتباع الرسول ﷺ بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه؛ لقوله:

﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾.

١٢- أن الإيمان بقيام الساعة، واتباع الرسول ﷺ هو الصراط العدل القويم؛ لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

١٣- تحذير العباد من أن يصدهم الشيطان عن اتباع الرسول، وسلوك الصراط المستقيم، وبيان شدة عداوته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٤- إثبات رسالة عيسى عليه السلام، وإتيانه لبني إسرائيل بالآيات البينات الشرعية والكونية الدالة على صدقه، وبالحكمة والعلم، وبيان بعض الذي يختلفون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾.

١٥- أن عيسى عليه السلام جاء مكملًا ومتممًا لشريعة موسى ولأحكام التوراة؛ لقوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾.

١٦- أمره لقومه بتقوى الله تعالى، وطاعته؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

١٧- إثباته وتأكيده ربوبية الله له ولهم، ووجوب عبادته وحده؛ لأن مِن لازِم الإقرار بربوبيته عز وجل الإقرار بألوهيته، وعبادته وحده لا شريك له؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لعيسى عليه السلام وللمؤمنين، وربوبيته العامة لجميع خلقه.

١٩- بيانه عليه السلام أن ما أمرهم به من تقوى الله وطاعته، والإقرار بربوبيته وعبادته وحده لا شريك له طريق عدل مستقيم يجب سلوكه، ولا ينبغي العدول عنه؛ لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

٢٠- اختلاف الأحزاب من بني إسرائيل في مقالاتهم في عيسى؛ فمن النصارى من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة. وكذبه اليهود وأنكروا رسالته، وأقر المؤمنون برسالته، وآمنوا به وهم قليل؛ منهم: زكريا ومريم أمه عليهما السلام، ومنهم الحواريون؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ﴾.

٢٢- التهديد والوعيد بالعذاب للظالمين بالشرك بالله، وتكذيب رسله، بعذاب يوم القيامة الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

٢١- شدة عذاب يوم القيامة، وأنه مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ الاستفهام بمعنى النفي، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا الساعة، أي: إلا قيام الساعة؛ فإنها قريبة وواقعة لا محالة؛ كما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر:٤٦].

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من «الساعة»، أي: أن تأتيهم فجأة، وعلى غرة، ومن غير ترقب.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، أي: وهم غافلون، غير مستعدين لها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء:١].

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ ﴾، أي: الأصدقاء والأصحاب والأحباب، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم قيام الساعة والقيامة.

﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾؛ لأن خلتهم لغير الله؛ إما لأهداف دنيوية، أو لمقاصد سيئة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٥] .

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ

ﵟالشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ﵞ [الفرقان:٢٧-٢٩] وقال تعالى: ﵟحَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨ﵞ [الزخرف:٣٨].

ﵟإِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَﵞ، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا المتقين الذين كانت خلتهم في الله، ولله؛ فإن خلتهم تدوم وتبقى ولا تنقطع، ويلتقون عليها في الجنة.

ﵟيَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ﵞ قرأ حفص والكسائي: ﵟيَٰعِبَادِﵞ بحذف ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإثباتها على الأصل: «يَا عِبَادِي».

أي: يقول الله لهم، بشارة وتكريمًا لهم: ﵟيَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ﵞ، أي: لا خوف عليكم اليوم مما تستقبلون، ولا أنتم تحزنون على ما مضى.

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ﵞ، «الذين»: في محل نصب نعت لـ«عبادي»، أي: يا عبادي الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وكانوا مسلمين منقادين لشرع الله بجوارحهم الظاهرة.

وإذا انتفى المكروه من كل وجه بانتفاء الخوف والحزن ثبت المحبوب؛ ولهذا قال:

ﵟٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَﵞ، أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة.

ﵟأَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡﵞ، أي: أنتم ونظراؤكم وقرناؤكم، من الزوجات والأولاد والأصحاب وغيرهم ممن عمل مثل عملكم.

ﵟتُحۡبَرُونَﵞ، أي: تُنعمون وتكرمون، وتسعدون وتسرون.

ﵟيُطَافُ عَلَيۡهِمﵞ، أي: يطاف على أهل الجنة ﵟبِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖﵞ، «صحاف»: جمع «صَحْفة»، وهي: أواني الطعام، أي: يدار عليهم بأوان من ذهب، فيها أنواع الطعام وألوانه.

ﵟوَأَكۡوَابٖﵞ: معطوف على «صحاف»، أي: وأكواب من ذهب.

و«الأكواب»: جمع «كوب»، وهي: أواني الشراب، فيها أنواع الشراب من ماء ولبن وخمر، وغير ذلك.

وفي الآية الأخرى: ﵟوَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا

﴿نَقْدِيرًا ١٦﴾ [الإنسان:١٥، ١٦].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما...**» الحديث[1]. وفضل الله واسع.

وقد جاء في رواية عن أبي موسى- قال حماد: «لا أعلمه إلا قد رفعه»- في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢﴾، قال: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»[2].

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحفص: ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ بزيادة هاء ضمير مذكر بعد الياء، وقرأ الباقون بحذف الهاء «تَشْتَهِي».

أي: وفي الجنة كل الذي تشتهيه وتحبه الأنفس من أنواع المآكل والمشارب والمناكح، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧﴾ [يس:٥٧].

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: معطوف على «تشتهي»، أي: وفيها كل الذي تلتذ به الأعين، وتبتهج به ويعجبها؛ من المناظر الحسنة الخلابة الجميلة؛ من القصور والأنهار، والأشجار والخضرة، والمجالس والسرر المزخرفة المزينة، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة:١٧].

وقال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[3].

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾، أي: في الجنة ﴿خَٰلِدُونَ﴾، أي: مقيمون فيها، ماكثون أبد الآباد، لا تُخرجون منها، ولا تبغون عنها حولًا، وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، وهو الاطمئنان إلى دوامه وعدم انقطاعه، نسأل الله من فضله.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات وأعظمها.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان، رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٤٨، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٨، والبيهقي في «البعث والنشور» ص٢٤٢.

(٣) سبق تخريجه.

﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾، أي: التي أورثكم الله إياها، وجعلها دارًا لنعيمكم وخلودكم.

وفي قوله: ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ إشارة إلى أن دخولهم الجنة ليس عوضًا عن عملهم؛ لأن الميراث ينتقل إلى الوارث بدون عوض، وإنها العمل سبب لدخول الجنة، وهو ما بينه بقوله:

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الباء: سببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملونه، أو بسبب عملكم الصالح.

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

لما ذكر أنه يطاف عليهم في الجنة بصحاف من ذهب فيها ما يشتهونه من الطعام، وبأكواب من فضة فيها ما يشتهونه من الشراب، ذكر تفكههم بعد ذلك بأكلهم من أنواع الفواكه؛ لتتم النعمة والغبطة.

قوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ﴾ من جميع أنواع الفواكه؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ٥٢﴾ [الرحمن:٥٢].

﴿مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾، أي: من جميع أنواع هذه الفواكه تأكلون، حسب اختياركم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾.

لما ذكر ما أعد للمؤمنين في الجنة من النعيم، أتبع ذلك بذكر ما أعد للمجرمين في جهنم من العذاب الأليم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بكفرهم وتكذيبهم، ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾، أي: مغمورون في عذاب جهنم، محيط بهم عذابها من كل جانب.

﴿خَٰلِدُونَ﴾ في عذابها، لا يخرجون منها.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ عذابها؛ لا بانقطاعه ساعة، ولا بتخفيفه.

﴿وَهُمۡ فِيهِ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، أي: وهم في العذاب.

﴿مُبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من رحمة الله، ومن الفرج، ومن كل خير، ينادون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون:١٠٧] فيناديهم بقوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ في تعذيبهم في جهنم وتخليدهم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] .

﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، «هم»: ضمير فصل؛ لتأكيد القصر في «لكن»، أي: ولكن كانوا هم الظالمين بإجرامهم وكفرهم وتكذيبهم، فظلموا باختيارهم الكفر والإجرام على الإيمان والإسلام، وظلموا أنفسهم فأوبقوها بالكفر، وأوقعوها في عذاب جهنم.

﴿وَنَادَوْا۟﴾ وهم في النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازن النار.

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾، أي: ليقبض أرواحنا ويمتنا، ويرحنا مما نحن فيه من العذاب الأليم، والكرب الشديد.

﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار تيئيسًا لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، أي: مقيمون فيها، لا تحيون ولا تموتون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى:١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦].

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: لقد أتيناكم بالحق وبيناه لكم وأظهرناه؛ لتتبعوه فتسعدوا وتفوزوا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ ولهذا لم تقبلوه، ولم تنقادوا له، وأعرضتم عنه، وآثرتم عليه الباطل وانقدتم له، فكان هذا جزاؤكم.

وفي هذا توبيخ لهم، أي: فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾، «أم» في الموضعين هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام.

أي: أم أبرم هؤلاء المكذبون بالحق المعاندون له أمرًا، أي: أحكموا ودبروا كيدًا ومكرًا للنبي ﷺ ولما جاء به من الحق.

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، أي: فإنا مُحكِمون ومدبرون كيدًا ومكرًا يبطل كيدهم ومكرهم. وفي هذا تهديد ووعيد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق:١٥-١٧].

﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ﴾، أي: بل أيحسبون، أي: أيظنون بجهلهم وظلمهم.

﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ﴾، أي: ما يسرونه في أنفسهم، ولم يتكلموا به.

﴿وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾، أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به بينهم، فأقدموا على إضمار الشر والكيد، وفعل المعاصي.

﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب، أي: بلى نسمع سرهم ونجواهم، ونعلم أحوالهم وما هم عليه، وسنحاسبهم ونجازيهم على ذلك، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾، أي: وملائكتنا الحفظة الكرام البررة.

﴿لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾، أي: عندهم يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق:١٨].

وسيحاسبون على ذلك كله ويجازون؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩].

الفوائد والأحكام:

١- تهديد المشركين المكذبين بقرب قيام الساعة، وإتيانها بغتة وهم لا يشعرون،

وما فيها من الأهوال والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

٢- إثبات القيامة وقربها وما فيها من الحساب والجزاء، وأنها تأتي بغتة، ولا يعلم متى قيامها إلا الله عز وجل.

٣- انقطاع كل خلة وصداقة يوم القيامة، وانقلابها إلى عداوة، إلا ما كان بين المتقين، أي: في الله، ولله؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

٤- فضيلة الخلة والمحبة في الله، وأن آثارها وثمارها تظهر يوم القيامة.

٥- نداء الله تعالى لعباده المؤمنين المسلمين، وبشارته لهم يوم القيامة بانتفاء الخوف والحزن عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

٦- إثبات عبودية المؤمنين المسلمين لله تعالى عبودية خاصة.

٧- فضيلة الإيمان بآيات الله والإسلام، وأن من أعظم نعيم المؤمنين المسلمين: أمنهم وسلامتهم من الخوف والحزن؛ لأنهما يكدران كل نعيم.

٨- تكريم الله تعالى المؤمنين بأمرهم بدخول الجنة هم وأزواجهم، وتهنئته لهم بما لهم فيها من النعيم والتكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الآية.

٩- عظم ما أُعد للمؤمنين في الجنة من أصناف النعيم من الحبرة والسرور، وأنواع الطعام والشراب، وما تشتهيه نفوسهم، وتلذه عيونهم، مع خلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

١٠- امتداح الله تعالى وتعظيمه للجنة التي أورثها لعباده بسبب أعمالهم الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

١١- الترغيب في الإيمان والأعمال الصالحة، وأنهما سبب لتوريث الجنة والخلود

فيها، وليست عوضًا لها؛ كما يقول المعتزلة.

١٢- أن من تمام نعيم أهل الجنة- بعد طعامهم وشرابهم: تفكُّهُهم بأنواع الفواكه الكثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

١٣- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للمجرمين بعذاب جهنم، خالدين فيه أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

١٤- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن بين الرجاء والخوف.

١٥- أن العذاب لا يفتر عن أهل النار بانقطاع أو تخفيف ولو لحظة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾.

١٦- يأسهم أشد اليأس من رحمة الله، ومن الفرج، ومن كل خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

١٧- عدل الله تعالى فيهم، وأنه سبحانه لم يظلمهم، لكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم، فأوبقوها في العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

١٨- نداؤهم لمالك خازن النار؛ ليدعو الله بأن يميتهم ويريحهم مما هم فيه من العذاب؛ لشدته وقسوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

١٩- أن أهل النار يتكلمون فيها ويستغيثون؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧].

٢٠- أن من ملائكة العذاب «مالك»، وهو من أعظم الملائكة؛ فهو خازن النار.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق.

٢٢- تيئيس مالك لهم من الخروج من النار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

٢٣- توبيخهم بتذكيرهم بقيام الحجة عليهم بمجيء الرسل إليهم بالحق، وكراهتهم له، وإعراضهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

٢٤- أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، وبيان الحق له.

٢٥- مكر المكذبين وكيدهم للنبي ﷺ، ولما جاء به من الحق؛ وتهديدهم بالكيد

لهم، والمكر بهم، وإبطال كيدهم ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩﴾.

٢٦- ظنهم الباطل أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم؛ ولهذا أقدموا على ما أقدموا عليه من المكر والكيد للرسول ﷺ، وللحق، ومن الأعمال السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ﴾.

٢٧- إثبات سماعه عز وجل لسرهم ونجواهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.

٢٨- إثبات كتابة أعمال العباد كلها باطنها وظاهرها، وسرها وجهرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

٢٩- إثبات رسل الله تعالى من الملائكة المكلفين بكتابة أعمال الخلائق.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين ينسبون الولد لله، تعالى الله عن قولهم:

﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، أي: لو فرض هذا جدلًا كما تزعمون كذبًا أن الملائكة بنات الله، وأن له ولدًا.

﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لله تعالى؛ لأني عبد من عبيده، منقاد له.

أو: فأنا أول العابدين لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، ولم تسبقوني إلى عبادته.

قال ابن كثير(١): «أي: لو فرض هذا لعبدته على ذلك؛ لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار، ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع، ولا الجواز أيضًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾ [الزمر:٤]».

وقال السعدي(٢): «﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾ لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقيادًا للأوامر المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفيًا. فعلم بذلك بطلانه.

قال: فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل- إلى أن قال: فلو كان للرحمن ولد حقًّا لكان محمد بن عبدالله أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٢٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٦٦٤.

المشركون».

قال: «ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله إثبات ما أثبته ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا لو كان حقًّا لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين، وفسادها عقلًا ونقلًا».

وعن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين»[(١)].

وهذا على اعتبار «إنْ» نافية، والأقرب: أنها شرطية، فهو شرط وجزاء، لكنه ممتنع في حق الله عز وجل؛ كما اختار هذا الطبري وابن كثير[(٢)]، وغيرهما.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، «الفاء»: رابطة لجواب شرط مقدر، «أنى»: اسم استفهام، أي: فكيف يُصرفون عن عبادة الله تعالى، وإفراده بالألوهية، مع إقرارهم بأنه الخالق المتفرد بالربوبية؟ فإن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ قرأ حمزة وعاصم بكسر اللام والهاء: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، وهو على هذه القراءة مجرور عطفًا على «الساعة» في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: وعنده علم قيله، والضمير للنبي ﷺ، أي: وعنده علم قيله ﷺ شاكيًا إلى ربه قومه الذين كذبوه.

وقرأ الباقون بفتح اللام، وضم الهاء: «وَقِيلَهُ»، وهو منصوب بفعل مقدر، أي: وقال قيلَه، وقيل غير ذلك.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، أي: يا رب، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾، أي: قال الله تعالى له: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عن أذاهم لك، واصبر على ذلك.

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٥٦- ٦٥٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٠/ ٦٥٧- ٦٥٨، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٢٢٩.

﴿وَقُلْ سَلَٰمٌۚ﴾، أي: سالمهم وتاركهم وتألفهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

وهذا قبل الأمر بالجهاد.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالخطاب: «تَعْلَمُونَ».

وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وهذا تهديد ووعيد لهم، أي: وسوف يعلمون مستقبلًا عاقبة كفرهم وإجرامهم.

وقد شرع الله الجهاد، وأحل بهم بأسه ونقمته في بدر الكبرى وغيرها من الوقائع، مع ما لهم في الآخرة من عذاب النار.

الفوائد والأحكام:

١- إبطال نسبة المشركين الولد لله تعالى، وإنكار ذلك أشد الإنكار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

٢- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

٣- تقديسه عز وجل وتعظيمه؛ فهو رب السموات والأرض، ورب العرش، ورب جميع المخلوقات، وتنزيهه عما يصفه به المشركون من الشريك والصاحبة والولد، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق.

٥- إثبات العرش الذي هو أكبر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾.

٦- تسليته ﷺ، وتهديد المشركين المكذبين بعذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

٧- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

٨- تفرده عز وجل بالإلهية في السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ﴾.

٩- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وصفة الحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: «العليم»، وصفة العلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

١١- تعاليه عز وجل وتعاظمه، وكثرة بركته وخيره وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

١٢- تفرده عز وجل بملك السموات والأرض وسعة ملكه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٣- اختصاصه وحده عز وجل بملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

١٤- إثبات معاد الخلائق ورجوعهم إليه تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٥- كمال عظمته، وعموم ربوبيته وإلهيته، وعظيم ملكه، وواسع علمه، وعموم سلطانه وتدبيره لأمر الدنيا والآخرة، فبداية الخلق منه، ونهايتهم إليه.

١٦- تسفيه عقول المشركين، وبيان ضعف وحقارة كل ما يدعون من دون الله من الأصنام والأنداد، وأنهم لا يملكون الشفاعة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.

١٧- أنه إنما يملك الشفاعة- بعد إذن الله ورضاه- من شهد بالحق، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأقر بتوحيد الله، وبنبوة محمد ﷺ عن علم ومعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

١٨- فضيلة الإيمان بالله ورسوله، والشهادة بالحق عن علم ومعرفة؛ لأن الله خص أهل ذلك بالشفاعة.

١٩- إقرار المشركين بأن الله هو الخالق، واعترافهم بتوحيد الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

٢٠- الإنكار عليهم في تكذيبهم بتوحيد الألوهية، وإشراكهم مع الله غيره، مع إقرارهم بالربوبية التي تستلزم الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

٢١- شكواه ﷺ إلى ربه كفر قومه وعدم إيمانهم؛ أسفًا وتحسرًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

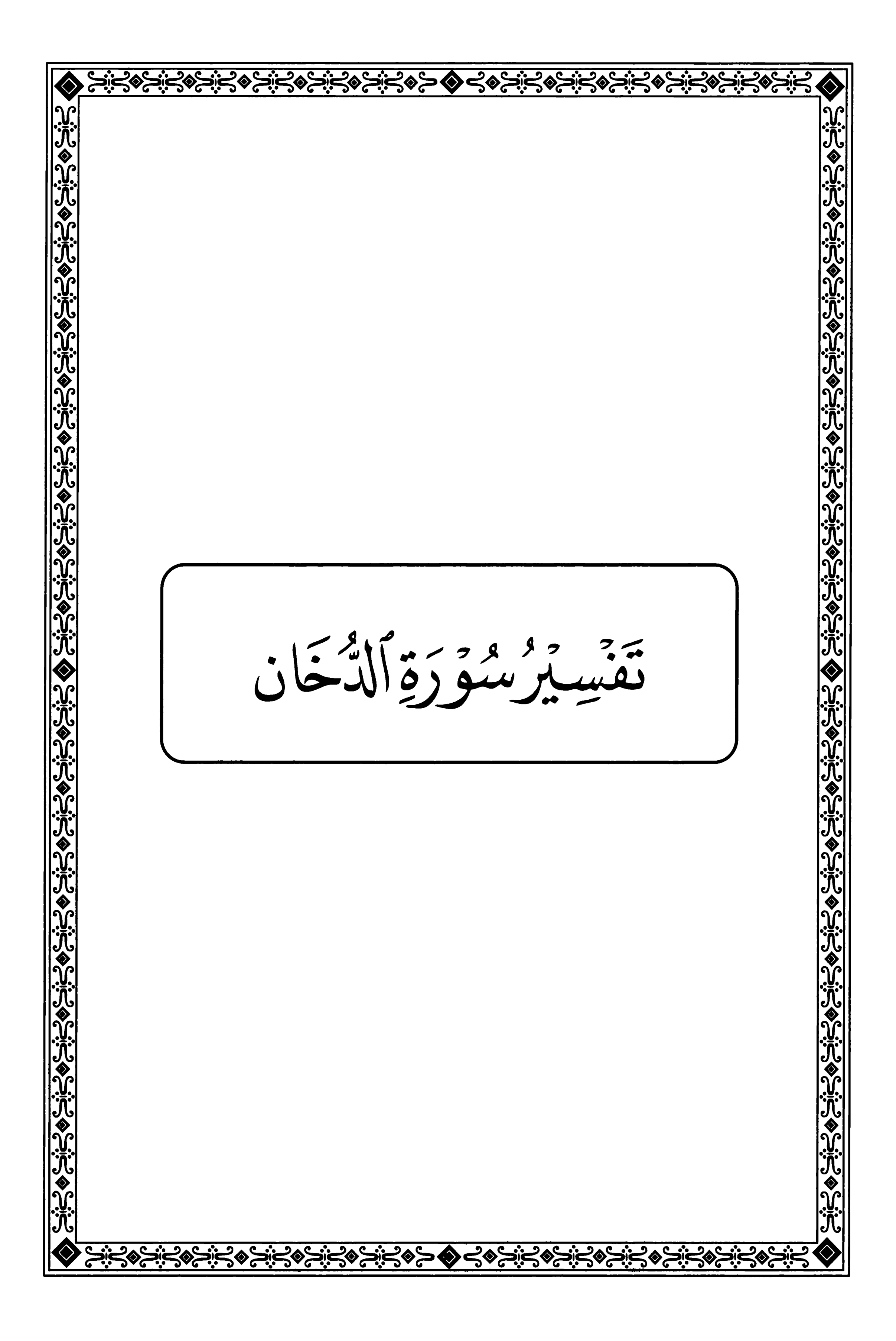
٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

٢٣- شدة عتو المشركين وعنادهم وتمردهم.

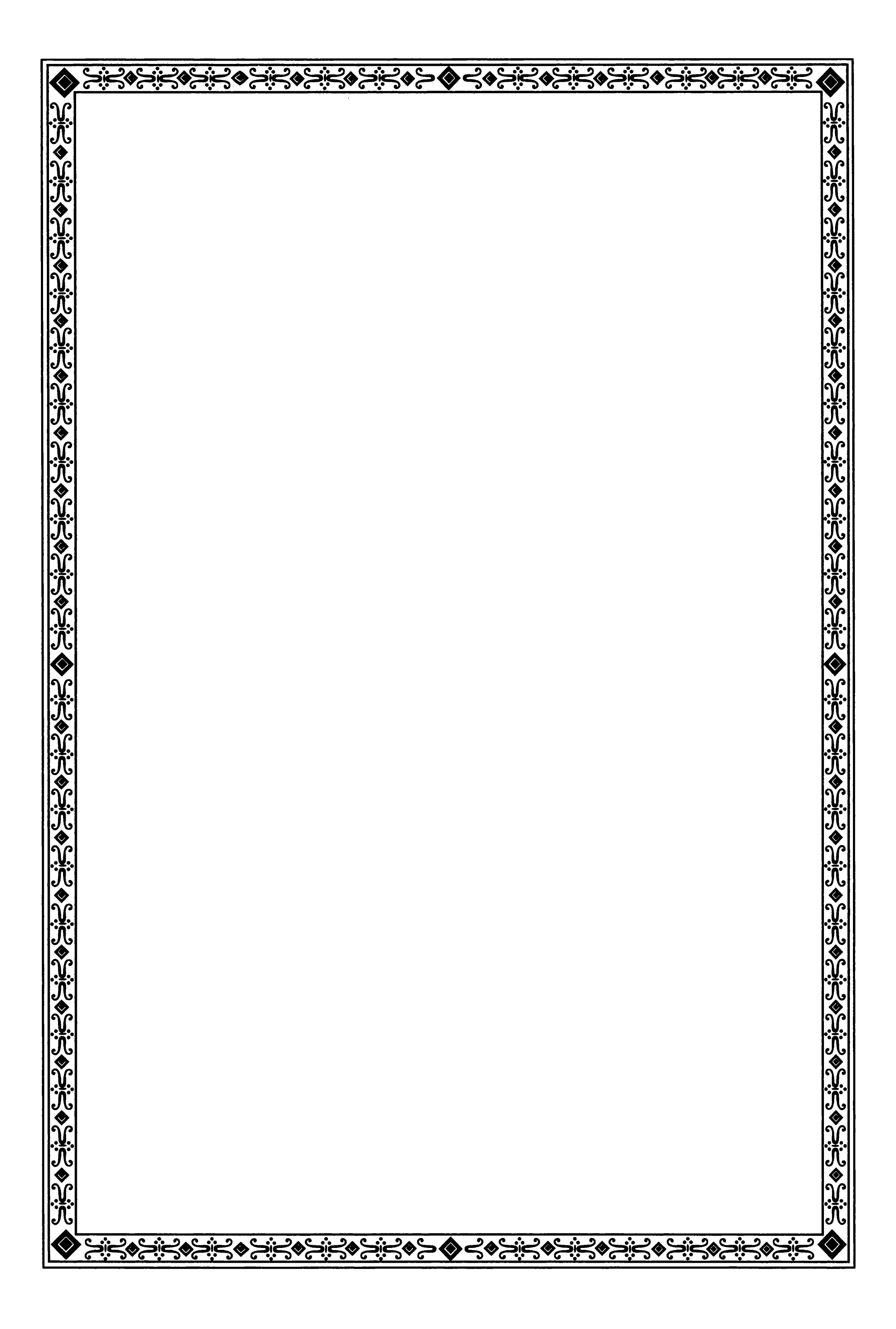
٢٤- أمر الله تعالى له ﷺ بالصفح عنهم ومسالمتهم ومتاركتهم تألفًا لهم، وكان هذا قبل الأمر بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾.

٢٥- الوعيد والتهديد لهم بما يستقبلونه من العذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَان



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الدخان»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الدخان:١٠، ١١] والمراد: الدخان الذي هو آية من آيات الله تعالى أيَّد بها نبيه ﷺ سميت به -والله أعلم- اهتمامًا بشأنه.

ويقال لها: «حم الدخان».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ - موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ تعظيمًا للقرآن الكريم، وتبنيها على إعجازه، وتفصيله وبيانه.

٢- تعظيم ليلة القدر التي أنزل الله بها القرآن وبركتها: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآ﴾.

٣- بيان أن رسالته ﷺ للعالمين: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وألوهيته: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

٥- تشكيك المشركين وتكذيبهم رسالته ﷺ، وما جاءهم به من الوحي، وتوعدهم وتهديدهم بعذاب الدنيا والآخرة. ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٦- تذكير المشركين بفتنة قوم فرعون قبلهم وتكذيبهم موسى عليه السلام،

وإنجاء موسى عليه السلام ومن معه، وإغراق فرعون وقومه، وتوريث بني إسرائيل ما هم فيه من الجنات والزروع والمقام الكريم والنعيم ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٣- تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم بإنجائهم من فرعون وعذابه المهين، واختيارهم وإيتائهم الآيات: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٤- إنكار المشركين البعث بعد الموت، وتوعدهم بالإهلاك كما أهلك الله تُبَّعًا والذين من قبلهم بسبب إجرامهم، وإثبات البعث، وأنه عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما لعبا، وإنما خلقهما لعبادته ومجازاة الخلائق بأعمالهم.

وتأكيد أن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين، ووعيدهم بما أعدهم من الزقوم والحميم وعذاب الجحيم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٥- وعد المتقين وبشارتهم بما أعدهم من المقام الأمين في جنات النعيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

٦- الامتنان بتيسير القرآن بلسانه ﷺ العربي المبين؛ ليتذكر العباد ويتعظوا، وتسليته، وتهديد المكذبين له ﷺ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾:

قوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ سبق الكلام عليه.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، أي: إنا أنزلنا الكتاب المبين «القرآن العظيم»، أي: ابتدأنا إنزاله.

﴿فِي لَيۡلَةٖ﴾ نكرت للتعظيم، ﴿مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، أي: كثيرة البركة والخير، وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾.

وهي في شهر رمضان المبارك؛ كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وهي في العشر الأواخر منه، وفي أوتارها آكد؛ لقوله ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها، وغيره: «**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**»[١].

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، أي: محذرين ومخوفين العباد من عذاب الله؛ إقامة للحجة عليهم، بإنزال القرآن، الذي هو تبيان لكل شيء، فيه أمر الناس بما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم، وتخويف من خالف منهم، وتبشير من أطاع.

﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الليلة المباركة ليلة القدر.

﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي: يفصل من اللوح المحفوظ إلى الصحف التي بأيدي الملائكة كل أمر محكم مبرم متقن، مما يجري في السنة من الأرزاق والأقدار والأعمال والآجال، وغير ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يُكتَب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر، حتى يُكتَب الحاج: يحج فلان، ويحج فلان»[٢].

ومعنى ﴿حَكِيمٍ﴾، أي: محكم متقن لا يُغيَّر ولا يُبدَّل، ولا يتقدم ولا يتأخر.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، أي: جميع ما يفرق في هذه الليلة المباركة ويفصل ويقدر من الأوامر المحكمة، وما يحصل فيها من البركة والخير، كل ذلك صادر بأمرنا وإذننا الكوني.

فمن بركتها: إنزال القرآن الكريم فيها، وأنه يفرق ويفصل فيها من اللوح المحفوظ كل أمر حكيم مما يقع في تلك السنة إلى الصحف التي تكون بأيدي الملائكة.

ومن بركتها: مضاعفة العمل فيها والأجور، وتنزل الملائكة والروح فيها بكل أمر يكون في تلك الليلة، وتسليمهم على المؤمنين، ودعاؤهم لهم بالسلامة، وكونها سلامًا إلى مطلع الفجر.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: مرسلين للرسل، ومنزلين للكتب؛ إقامة للحجة على الخلائق.

---

(١) سيأتي تخريجه وغيره من الأحاديث في هذا في تفسير سورة القدر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٨٧.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾، «رحمة» منصوب مفعول لأجله، أي: بسبب رحمة ربك للناس أرسل الرسل، وأرسل محمدًا ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فأعظم وأجل نعمة رحم الله بها الخلائق هي إرسال الرسل، الذين أفضلهم وأشرفهم محمد ﷺ، وإنزال الكتب التي أعظمها وأجلها القرآن الكريم.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: رحمة منا، ونحو ذلك؛ للإشعار بأن معنى الربوبية يستدعي الرحمة بالمربوبين، مع ما في ذلك من إضافة ضميره ﷺ إلى اسم الرب، وخطابه له تشريفًا وتكريمًا له.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، «هو» ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، أي: هو وحده ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات والأقوال، المجيب دعاء من دعاه.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ ذو العلم بأحوال العباد، الذي وسع علمه كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه:٩٨].

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بكسر الباء: ﴿رَبِّ﴾ بدل من قوله: ﴿رَّبِّكَۚ﴾.

وقرأ الباقون برفعها: «رَبُّ» خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رب السموات والأرض.

أي: الذي أنزل هذا الكتاب المبين هو الرب العظيم، خالق السموات والأرض ومالكهما ومدبرهما وما بينهما.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مؤمنين إيمانًا جازمًا بربوبيته العامة لجميع الخلق، فاعلموا أنه لا إله لهم سواه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو.

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، أي: بيده الحياة والموت، وبتدبيره الإحياء والإماتة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ [الأعراف:١٥٨].

﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: فكيف تعبدون غيره أنتم وآباؤكم؟ وكيف

تقتدون بآبائكم وتقلدونهم في عبادتهم غيره وهو ربكم وربهم؟

وقوله: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لأنهم يرون الاقتداء بالأقدم فالأقدم من آبائهم؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤].

قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾:

قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هؤلاء المشركون.

﴿فِي شَكّٖ﴾، أي: في ريب وتشكيك وتكذيب بصحة القرآن، وصدق من جاء به.

﴿يَلۡعَبُونَ﴾، أي: منشغلون في حياتهم بما لا فائدة فيه من اللعب والباطل؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأعراف:٥١].

﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ الفاء: عاطفة، والأمر للتسلية والتثبيت له ﷺ، وفيه وعيد وتهديد للمشركين وجحودهم وشركهم، أي: فانتظر بهؤلاء المشركين ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، «يوم»: مفعول به منصوب لـ«ارتقب»، وليس ظرفًا، أي: يوم تجيء السماء بدخان بيِّن ظاهر.

﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾، أي: يعمهم ويعلوهم ويحيط بهم.

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا، أو يقول بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: هذا الدخان عذاب أليم، أي: مؤلم موجع.

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ [الطور:١٣، ١٤].

﴿رَّبَّنَا﴾، أي: يقول المشركون والكفار، وهم في العذاب أو إذا عاينوه: ﴿رَّبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾، أي: ارفعه وأزله عنا.

﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ إن كشفت العذاب عنا، ورددتنا إلى الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ

ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم:٤٤].

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، «أنى»: اسم استفهام بمعنى: كيف، للإنكار، أي: كيف يكون لهم التذكير والاتعاظ؟ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر:٢٣، ٢٤].

﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه قد جاءهم رسول مبين، أي: بين الرسالة والنذارة، مبين لهم ما به يتذكرون، وهو محمد ﷺ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾، أي: تولوا عنه بأبدانهم، وأعرضوا عما جاء به بقلوبهم، وكذبوه.

﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ المعلَّم: الذي يُعلِّمه غيره، أي: علَّمه بشر أو شيطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل:١٠٣].

وهذا كما قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ:٥١-٥٤].

﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾، أي: لو كشفنا عنكم العذاب قليلًا ورددناكم إلى الدنيا.

﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾، أي: راجعون إلى ما أنتم عليه من الكفر والتكذيب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون:٧٥].

قال ابن كثير(١) بعد أن ذكر هذا المعنى واعتبره الاحتمال الأول في معنى الآية، قال: «والثاني: أن يكون: مؤخرو العذاب عنكم قليلًا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٣٦.

أن يكون باشرهم؛ كقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨]».

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ البطش: الأخذ بشدة، والبطشة الكبرى: الأَخْذة، وهي يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات:٣٤].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بـ«البطشة الكبرى»: يوم بدر.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال ابن مسعود: «البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: يوم القيامة»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يوم بدر: يوم البطشة الكبرى»(٢).

﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، أي: منتقمون من الكفار المكذبين المعرضين بالعذاب الأليم في النار.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- إقسام الله تعالى بالقرآن؛ تعظيمًا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- امتداح الله عز وجل لكتابه بكونه بينًا ظاهرًا واضحًا، مبينًا لكل ما يحتاجه العباد في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- أن ابتداء نزول القرآن الكريم كان في ليلة القدر، وهي في رمضان، في العشر الأواخر منه على الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾.

٥- إثبات صفة العظمة له عز وجل؛ لقوله تعالى:﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾،﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بضمير التعظيم.

٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٢٣٧، وقال: «هذا إسناد صحيح».

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٧، ٢٥.

٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، غير مخلوق، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٨- شرف ليلة القدر وعظمتها وبركتها، وكثرة خيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾.

ومن بركتها: إنزال القرآن الكريم فيها، وكون العمل فيها خيرًا من العمل في ألف شهر خالية منها، وتنزل الملائكة والروح فيها في تلك الليلة من كل أمر، وكونها سلامًا حتى مطلع الفجر.

٩- تمام عدل الله عز وجل وحكمته، فلا يعذِّب أحدًا إلا بعد الإنذار لهم، والإعذار إليهم، وإقامة الحجة عليهم؛ ولهذا أنزل القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة؛ إنذارًا للناس وتحذيرًا لهم من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

١٠- أن من لازم الإنذار تبليغ التكاليف، التي من خالفها استحق ما أنذر وحذر منه من الوعيد والعذاب، ومن امتثلها نجا من ذلك، بل وفاز بالبشرى والثواب؛ ولهذا اكتفى هنا بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

١١- عظم شأن ليلة القدر، ومن ذلك أنه يفرق ويفصل فيها من اللوح المحفوظ إلى الصحف التي بأيدي الملائكة كل أمر محكم متقن مما يجري في السنة؛ من الأرزاق والأقدار والأعمال والآجال، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

١٢- أن كل ما يفرق ويفصل في هذه الليلة المباركة، ويقدر من الأوامر، هو محكم متقن، وبأمر الله تعالى وإذنه الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾.

١٣- الامتنان بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ رحمة منه عز وجل للخلائق، وإقامة للحجة على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٤- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- إثبات اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: «السمع» و«العلم» الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٧- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: «السمع» و«العلم» له عز وجل كمال إلى كمال.

١٨- أن السمع من أعظم وسائل العلم؛ لهذا قُدِّم عليه.

١٩- إثبات ربوبيته عز وجل العامة لجميع المخلوقات، وذلك يستلزم إفراده عز وجل بالإلهية؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٠- أنه إنما يَستدل بربوبية الله تعالى لجميع المخلوقات على إلهيته لها أهل اليقين والتصديق الجازم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

٢١- أنه لا إله ولا معبود للخلق بحق سوى ربهم الذي خلقهم وخلق جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢٢- قدرته عز وجل التامة على الإحياء والإماتة؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

٢٣- التعريض بتقليد المشركين لآبائهم الأولين في عبادة الأصنام، وترك عبادة الله، وهم وإياهم كلهم مربوبون لله.

٢٤- ذم المشركين لما هم عليه من الشك والتكذيب، واعتبار الحياة لعبًا ولهوًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾.

٢٥- تسلية النبي ﷺ، وتثبيت قلبه، وأمره بترقب تعذيب المكذبين له بدخان مبين، يغشى الناس، وعذاب أليم، وتهديدهم ووعيدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

٢٦- إثبات الدخان، وهو من علامات الساعة كما جاء في الأحاديث الصحيحة، مثل: حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: «**إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن**

مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»(١).

وقد اختلف المفسرون: متى ذلك؟ فمنهم من قال: إنه وقع في عهد النبي ﷺ.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللِّزَام»(٢).

وعن مسروق قال: جاء إلى عبدالله رجل، فقال: تركت في المسجد رجلًا يفسر القرآن برأيه، يفسر هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾، قال: يأتي الناسَ يوم القيامة دخان، فيأخذ بأنفاسهم، حتى يأخذهم منه كهيئة الزكام، فقال عبدالله: من علم علمًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم، إنما كان هذا أن قريشًا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف، فأصابهم قحط وجدب، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، حتى أكلوا العظام! فأتى النبيَّ ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، استغفر الله لمضر؛ فإنهم قد هلكوا. فقال: «**لمضر؟! إنك لجريء**». قال: فدعا الله لهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥﴾. قال: فمطروا، فلما أصابتهم الرفاهية قال: عادوا إلى ما كانوا عليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ۝١٦﴾، قال: يعني: يوم بدر»(٣).

وفي رواية: «ثم قرأ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الآيات التي تكون قبل الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة ٤٣١١، والترمذي في أبواب الفتن، ما جاء في الخسف ٢١٨٣، وابن ماجه في الفتن، باب الآيات ٤٠٥٥، وأحمد ٤/ ٦، ٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ٤٨٢٥، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان ٢٧٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ٤٨٢١، ومسلم في صفة القيامة، باب الدخان ٢٧٩٨.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾»، قال عبدالله: أفيُكشَف عنهم العذاب يوم القيامة؟ والبطشة الكبرى: يوم بدر»[١].

وقد ذهب إلى أن: الدخان قد مضى جمع من التابعين وغيرهم، واختاره الطبري[٢].

وقال بعضهم: إن الدخان من الآيات المنتظرة التي تسبق قيام الساعة، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح؛ كما قال عبدالله بن أبي مُلَيْكة، قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم، فقال: «ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت»[٣].

وهذا القول مروي عن علي[٤] وحذيفة وأبي مالك الأشعري رضي الله عنهم، وطائفة من التابعين[٥].

قال ابن كثير[٦]: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أورثناها، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾، أي: بيِّن واضح يراه كل أحد.

وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه: إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾، أي: يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمرًا خياليًّا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾».

والأظهر- والله أعلم- أن الدخان من أمارات الساعة المنتظرة، وعليه يدل ظاهر

---

(١) أخرجه البخاري ٤٨٢٣.
(٢) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ١٤- ١٨، و«تفسير ابن كثير» ٧/ ٢٣٣.
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ١٩.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٨.
(٥) أخرجه عنهم الطبري ٢/ ١٩، ٢٠.
(٦) في «تفسيره» ٧/ ٢٣٥، وانظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦- ٧.

سياق الآيات مع الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك.

٢٧- شدة عذاب هذا الدخان، وغشيانه للناس، وعلوه عليهم، وإحاطته بهم، وإيلامه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

٢٨- سؤال المعذَّبين كشف العذاب عنهم، ووعدهم بأن يؤمنوا؛ لقولهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾، وهذا يحتمل طلبهم كشف العذاب عنهم، وإرجاعهم إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات لهم ذلك.

ويحتمل أنهم لما رأوا العذاب في الدنيا طلبوا كشفه. والأول أولى؛ ولهذا قال: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

٢٩- بُعد من كذب بالحق وأصر على ذلك عن الإيمان حتى بعد رؤية العذاب، سواء كان ذلك في القيامة، أو عند رؤية علامات الساعة، أو قبل ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

٣٠- بيان رسالته ﷺ، وإبانته للحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.

٣١- تولي المشركين عن اتباعه بأبدانهم، وإعراضهم عما جاءهم به بقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾.

٣٢- زعمهم أنه ﷺ يُعلَّم القرآن من غيره، يُعلِّمه بشر أو شيطان، وأنه مجنون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

٣٣- أن الله عز وجل لو كشف العذاب عنهم لعادوا لما نُهوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٣٤- وعيد المشركين المكذبين وتهديدهم بالقيامة وعذابها، والانتقام منهم ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾. وقيل: تُوعدوا بيوم بدر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

لما توعد المشركين بالعذاب الأليم، والانتقام منهم بالبطشة الكبرى، ذكر ما أوقعه من العذاب في قوم فرعون بسبب تكذيبهم، بإهلاكهم بالغرق الموصول بعذاب النار، وإخراجهم من ديارهم، وما هم فيه من النعيم، وتوريثها بني إسرائيل. وفيه تهديد وتحذير للمشركين.

قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾، أي: ابتلينا واختبرنا قبل مشركي مكة ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وهم قبط مصر، والمراد: فرعون وقومه.

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾؛ يعني: موسى بن عمران- ذو المكانة والشرف والوجاهة عند الله، وثالث أولي العزم من الرسل بعد محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، «أن»: تفسيرية أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء محذوفة، أي: بأن أدوا إلي عباد الله؛ يعني: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم معي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

[الأعراف:١٠٥]، وقال تعالى مخاطبًا موسى وهارون: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [طه:٤٧].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: تعليل للأمر قبله، أو استئناف بياني، أي: إني رسول لكم أمين على إبلاغكم ما أرسلت به إليكم، من غير زيادة ولا نقصان؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ الجملة: معطوفة على الجملة التفسيرية: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾. والمعنى: أدوا إلي عباد الله، ولا تعلوا على الله، أي: ولا تتكبروا على الله بمخالفة أمره، وعدم الانقياد له.

﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة واضحة، وبرهان ظاهر، وهي ما أرسله الله به من الآيات التسع البينات، وغيرها.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أي: استجرت واعتصمت بربي وربكم، ورب جميع الخلائق.

﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾، «أن» والفعل «ترجمون» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من أن ترجمون، أي: أن ترجمونِ بالقول بالسب والشتم، أو بالفعل بالقتل.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾، أي: وإن لم تصدقوني وتؤمنوا بما جئتكم به.

﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾، أي: فاتركوني وشأني ولا تتعرضوا لي، وسالموني إلى أن يقضي الله بيننا.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلما أيس منهم، بعد أن طال مقامه بين أظهرهم، وأقام عليهم الحجج، ولم يزدهم ذلك إلا كفرًا واستكبارًا وعنادًا، دعا ربه عليهم:

﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: مصدر مؤول في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن هؤلاء قوم مجرمون، أي: متمادون في الإجرام والكفر؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا

لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

لما أيس موسى عليه السلام من إيمان آل فرعون، ورأى تماديهم على الإجرام ودعا عليهم، أمره الله عز وجل- استجابة لدعائه- بالخروج ببني إسرائيل والإسراء بهم، فقال:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «فَاسْرِ» بهمزة وصل من «سرى».

وقرأ الباقون بهمزة قطع: ﴿فَأَسْرِ﴾ من «أسرى». يقال: «أسرى». ويقال: «سرى»، أي: سار ليلًا، وفي المثل: «عند الصباح يحمد القوم السُّرَى».

والفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، ﴿لَيْلًا﴾ ظرف زمان.

والمعنى: فسِرْ بعبادي بني إسرائيل ليلًا؛ خفية من فرعون وجنوده.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: تعليل للأمر بالإسراء بهم ليلًا، أو في أول الليل، أي: لأنكم متبعون، أي: سيتبعكم فرعون وجنوده، فخروجكم في الليل أخفى لكم، وكونه أول الليل حتى لا يتمكنوا من إدراككم واللحاق بكم.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء:٥٢-٦٠].

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ﴾، «رهوًا»: مصدر في موضع الحال، أي: حال كونه رهوًا، أي: ساكنًا منفلقًا.

قال ابن القيم: «الرهو: الساكن، شبه ذهاب حركة البحر بذهاب حركة الخيل عند سكونها، تقول العرب: جاءت الخيل رهوًا، أي: ساكنة، فشبه البحر بها، وذلك أنه قام فِرقاه ساكنين، فقال لموسى عليه الصلاة والسلام: دع البحر ساكنًا ماؤه»(١).

---

(١) انظر: بدائع التفسير ٤/ ١٣٩.

وذلك بعد أن أوحى الله إليه بعدما خرج ببني إسرائيل أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، فانفلق طريقًا يبسًا، فأزلف واجتاز هو وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه:٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء:٦٠-٦٦].

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾: تعليل للأمر قبله، أي: لأنهم جند مغرقون، أي: حتى يروا البحر منفلقًا منفرجًا، فيدخلوا على إثركم، فنغرقهم.

وذلك أنه لما تكامل موسى وقومه خارجين من البحر، وتكامل فرعون وقومه داخلين فيه، أمره الله فالتطم عليهم وعاد إلى حاله، فغرقوا جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه:٧٨، ٧٩].

قيل: إن موسى عليه السلام لما جاوز البحر هو وقومه أراد أن يضربه ليعود كما كان، فيكون حائلًا بينهم وبين فرعون وجنوده أن يلحقوا بهم، فأمره الله بتركه على حاله، وبشره بأنهم مغرقون.

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ بساتين مزهرة، كثيرة الأشجار والثمار.

﴿وَعُيُونٍ﴾، أي: وعيون المياه من الأنهار والآبار.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: دور إقامة نفيسة واسعة، فيها المساكن والمنازل الجميلة الأنيقة، والأماكن الحسنة، وغير ذلك.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: وعيشة كريمة هنية كانوا فيها يتفكهون ويتنعمون بأنواع المآكل والمشارب والملابس، والمساكن والمراكب، والجاه والمال والملك العريض، وغير ذلك.

فسُلبوا ذلك كله في صبيحة واحدة، وصارت أجسادهم للغرق، وأرواحهم

للنار والحرق.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: كذلك تركوا هذه الجنات والعيون والمقام الكريم والنعمة التي كانوا فيها فاكهين، وسلبناها منهم، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾، أي: ملكناها.

﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾: هم بنو إسرائيل؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الآيات:٥٧-٥٩]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الآية:١٣٧].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لما أغرقهم الله وأهلكهم؛ لأنهم لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي السماء على فقدها، ولا لهم أعمال صالحة في الأرض فتفقدها، ولم يُحزن عليهم، ولم يأس أحد لفراقهم وهلاكهم؛ لأن فيه راحة للعباد والبلاد؛ كما قال ﷺ: «**أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم**»(١).

وعن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مُرَّ بجنازة، فقال: «**مستريح ومستراح منه**». قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»(٢).

وعن سعيد بن جبير، قال: أتى ابن عباس رجل، فقال: يا ابن عباس، أرأيت قول الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن، فأغلق بابه من السماء، الذي يصعد فيه عمله،

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣١٥، ومسلم في الجنائز ٩٤٤، وأبو داود في الجنائز ٣١٨١، والنسائي في الجنائز ١٩١٠، والترمذي في الجنائز ١٠١٥، وابن ماجه في الجنائز ١٤٧٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٣، ومسلم في الجنائز ٩٥٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٠.

وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض»(١).

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾، أي: ما كانوا ممهلين ومؤخرين عن العقوبة، بل عوجلوا بها؛ لشدة كفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أنقذناهم وخلصناهم.

﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، أي: من العذاب المذل الذي كانوا فيه ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ﴾، بدل من العذاب بإعادة حرف الجر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾، أي: مستكبرًا جبارًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون:٤٦].

﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الجرأة على الله، حيث ادعى الربوبية والألوهية، وفي الأذية لعباد الله، حيث سام بني إسرائيل سوء العذاب؛ يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويسخرهم في الأعمال المهينة والشاقة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾، أي: ولقد اخترنا بني إسرائيل واصطفيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: على علم منا بأنهم أهل للاختيار، وبحكمة منا.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: على عالمي زمانهم؛ كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤]، وقال تعالى لمريم عليها السلام: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢]، أي: في زمانها.

قال ابن القيم: «لا خلاف بين الناس أن المعنى: على علم منا بأنهم أهل الاختيار،

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٢، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٣٢٨٨.

فالجملة في موضع نصب على الحال، أي: اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم»(١).

فاختارهم الله وفضلهم على أهل زمانهم ومن قبلهم ومن بعدهم، حتى جاء الله بأمة محمد ﷺ، ففُضِّلوا على العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

ولا ينافي اختيار الله لبني إسرائيل في زمانهم ضلال كثير منهم سلفًا وخلفًا؛ كما لا ينافي تفضيل الله لهذه الأمة ضلال كثير منهم، فالمختارون المفضلون هم من كانوا على الحق من الأمتين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: وأعطيناهم من الآيات البينات، والحجج الظاهرات، والمعجزات الباهرات.

﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي فيه بلاء مبين، أي: منة عظيمة عليهم، واختبار بيِّن ظاهر لمن يبحث عن الحق، ودلالة واضحة على صدق موسى عليه السلام وصحة ما جاء به.

الفوائد والأحكام:

١- تهديد المشركين ووعيدهم بتذكيره عز وجل إياهم ابتلاءه قبلهم قوم فرعون بإرسال نبيه موسى عليه السلام إليهم بالبينات، وتكذيبهم له، وإهلاكهم بالغرق، وسلب ما هم فيه من النعم. والسعيد من وُعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ الآيات.

٢- ابتلاء قوم فرعون واختبارهم بإرساله عز وجل موسى عليه السلام إليهم: هل يؤمنون به أو يكفرون به ويكذبونه؟ وهو ما حصل.

٣- أن الابتلاء والامتحان يكون في الخير كما يكون في الشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

٤- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وشرفه وكرمه ومكانته عند الله؛ لوصفه عز

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣٩.

وجل له بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾.

٥- طلبه عليه السلام من فرعون وقومه إرسال بني إسرائيل معه؛ لقوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ لتخليصهم من ظلم فرعون وقومه.

٦- تشريفه عز وجل لبني إسرائيل بوصفهم بعبوديته الخاصة.

٧- بيان موسى عليه السلام أمانته فيما أرسل به. وفيه: أنه لا مانع من ثناء الرسول على نفسه بالأمانة ونحو ذلك؛ ليصدقه قومه؛ لقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

وقد يجوز ذلك لغير الرسول إذا كان فيه مصلحة، ولم يترتب عليه محذور.

٨- تحذيره عليه السلام قوم فرعون من العلو والتكبر على الله ومخالفة أمره؛ لقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٩- إقامته عليه السلام الحجة عليهم بالآيات البينات، والبراهين القاطعات؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

١٠- تعوذه عليه السلام بربه وربهم منهم أن يرجموه سبًّا وشتمًا أو قتلًا؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾.

١١- أنه لا معاذ ولا ملاذ من جميع الشرور إلا بالله عز وجل.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾.

١٣- تنازله عليه السلام بطلبه منهم- إن لم يؤمنوا به ويصدقوه- أن يعتزلوه، ويتركوه، ولا يتعرضوا له؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾.

١٤- يأسه عليه السلام منهم، ودعاؤه عليهم بسبب تماديهم بكفرهم وإجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢﴾.

١٥- جواز الدعاء على المجرمين المستكبرين الصادين عن دين الله، المؤذين لأولياء الله.

١٦- استجابته عز وجل دعاء موسى عليه، وأمره بالإسراء ببني إسرائيل ليلًا وخفية، وإخباره باتباع فرعون وجنوده لهم؛ تحذيرًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

١٧- أمره عز وجل له بترك البحر ساكنًا منفلقًا على حاله بعد أن أزلف وجاوز هو وقومه؛ ليكون مصيدة لفرعون وجنوده يدخلونه على أثرهم فيلتطم عليهم فيغرقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

١٨- قدرة الله تعالى التامة، وآية من آياته العظيمة، التي آتاها لموسى عليه السلام بأمره له أن يضرب البحر بعصاه فينفلق ويصير طريقًا يبسًا؛ ليعبر موسى وقومه، ومن ثم أطبقه على فرعون وقومه.

١٩- سلب قوم فرعون كل ما كانوا فيه من النعيم، من الجنات والعيون، والزروع والمقام الكريم، والعيش الذي كانوا فيه فاكهين؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٠- توريث بني إسرائيل كل ما كان فيه قوم فرعون من النعيم والجنات، والملك والخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

٢١- حقارة قوم فرعون وهوانهم على الله تعالى، فلم تبك على هلاكهم السماء والأرض، ولم يأس أحد عليهم، بل استراح منهم العباد والبلاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

وهكذا حال كل من مات من أهل الكفر والضلال، فهو كما يقال: حجر أو حصاة زالت عن درب المسلمين.

٢٢- أن السماء والأرض تبكي على فقدان أهل الإيمان والخير؛ لمفهوم قوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

ولهذا فسر بعض المفسرين قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ [الرعد:٤١] بموت العلماء.

٢٣- تعجيل عقاب فرعون وقومه وإهلاكهم، وعدم تأجيلهم وإنظارهم؛ لشدة كفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

٢٤- الامتنان على بني إسرائيل بإنقاذهم وتخليصهم من العذاب المذل لهم، الذي

كان يسومهم به فرعون؛ من تقتيل أبنائهم، واستحياء نسائهم، وتسخيرهم بالأعمال الحقيرة والشاقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ﴾.

٢٥- شدة علو فرعون واستكباره وكفره، ومجاوزته الحد في الجرأة على الله، وفي الأذية لعباد الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

٢٦- اختيار الله واصطفاؤه لبني إسرائيل بعلمه وحكمته على عالمي زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

٢٧- إعطاؤهم من الآيات البينات، والحجج الظاهرات، ما فيه منة عظيمة عليهم، واختبار بيِّن لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٢٨- أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن هؤلاء المشركين المكذبين المنكرين للبعث والمعاد ليقولون:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، «إن»: نافية، بمعنى «ما»: و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة أخرى بعد المات؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام:٢٩]، وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، أي: وما نحن بمبعوثين، أي: فلا حياة سوى هذه الحياة الدنيا، ولا معاد، ولا بعث، ولا نشور، ولا حياة أخرى، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار.

﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾، أي: أحيوا لنا آباءنا وأجدادنا الميتين السابقين.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن هناك نشورًا وبعثًا وحياة أخرى.

وهذه حجة باطلة، وشبهة فاسدة؛ فإن المعاد الموعود به إنما هو يوم القيامة، لا في هذه الحياة الدنيا، بل بعد انقضائها، وموت جميع أهلها، يعيدهم الله خلقًا جديدًا.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتهديد والتحذير، و«أم»: حرف عطف.

﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هم: حمير وسبأ سكان اليمن وحضرموت، و«تبع»: ملكهم، قيل: إنه

قد أسلم. وكانوا كلما ملك فيهم رجل سموه: «تبعًا»؛ كما يقال قيصر: لمن ملك الروم، وكسرى: لمن ملك الفرس، وفرعون: لمن ملك مصر، والنجاشي: لمن ملك الحبشة.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بأنواع العقوبات، فقوم تبع- وهم سبأ- أرسل عليهم سيل العرم فخرب بلادهم، فتشردوا في البلاد كل مشرد، وتفرقوا شذر مذر.

وأُخذ غيرهم من الأمم كل منهم بذنبه؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ الجملة: مستأنفة، وفيها معنى السببية، أي: بسبب أنهم كانوا مجرمين، أي: مرتكبين للإجرام والكفر، والتكذيب للرسل، والإنكار للبعث، وغير ذلك.

والمراد: أن مشركي قريش ليسوا خيرًا من قوم تبع ومن قبلهم من الأمم الذين أهلكهم الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر:٤٣]، أي: أن كفاركم ليسوا خيرًا من أولئك المهلَكين والمعذبين قبلهم من الأمم بسبب كفرهم وتكذيبهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾:

لما ذكر إنكار المشركين للبعث والنشور والحساب، أتبع ذلك ببيان كمال قدرته وحكمته وعدله، وتنزهه عن اللعب والعبث واللهو والباطل، وأنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، ولإقامة الحق والعدل.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: ما أوجدنا السموات والأرض على عظمهما وما بينهما من المخلوقات.

﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال، أي: ما خلقناهما لعبًا وعبثًا وباطلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧].

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، «إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة، أي: إلا بالحق والعدل، وهو أن يُعبَد الله وحده لا شريك له، ويُتَّقى بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى

عنه، ويثيب العباد ويجازيهم بأعمالهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر:٨٥].

قال ابن القيم بعدما ذكر الأقوال في تفسير «الحق»: «والصواب: أن الحق هو إلهيته وحكمته المتضمنة للخلق والأمر والثواب والعقاب، فمصدر ذلك كله الحق، وبالحق وجد، وبالحق قام، وغايته الحق، وبه قيامه، فمحال أن يكون على غير هذا الوجه؛ فإنه يكون باطلًا وعبثًا، فتعالى الله عنه لمنافاته إلهيته وحكمته، وكمال ملكه وحمده»(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ولكن أكثر الخلائق لا يعلمون ولا يفهمون ولا يعون هذه الحقيقة، ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيعتقدون أن الأمر لعب وعبث وهزل، وفي هذا تعريض بتوبيخ المشركين الذين أنكروا البعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٤].

وما أكثرَ الخلقَ الذين حسبوا الأمر عبثًا وهزلًا وباطلًا ولهوًا، وغفلوا عما خلقوا من أجله، وعاشوا حياتهم كالبهائم بل هم أضل، وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى من الهمل(٢)

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(٣)

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، أي: يوم القيامة، الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، فيقتص فيه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٤٢، وانظر: ٤/ ١٣٩.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٣) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

للمظلوم من الظالم، ويجازيهم جميعًا بأعمالهم، ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: وقت جمعهم أجمعين، الأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠].

﴿يَوْمَ﴾، «يوم»: بدل من «يوم الفصل»، ﴿يُغْنِى﴾: ينفع ويشفع، ﴿مَوْلًى﴾: قريب أو حليف أو صديق وصاحب، ﴿عَن مَّوْلًى﴾، أي: عن قريبه وحليفه وصديقه وصاحبه، أي: يوم لا ينفع قريب قريبه، ولا حليف حليفه، ولا صديق صديقه، ولا صاحب صاحبه.

﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا يغني مولى عن مولى أيَّ شيء من الغناء، لا قليلًا ولا كثيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج:١٠، ١١].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم، أو منعه، أو رفعه، لا من قريب ولا بعيد، ولا من صديق ولا حبيب.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«مَن»: موصولة، أي: إلا الذي رحمه الله من عباده فوفقه للإيمان به وطاعته؛ فإنه ينتفع ويرتفع برحمة الله، وينصره ويقيه عذابه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الجملة: تعليل لقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾، أي: إنه ذو العزة التامة والقوة والقهر والغلبة، الذي لا يمتنع عليه شيء، وذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

الفوائد والأحكام:

١- إنكار المشركين للبعث والنشور، والدار الآخرة والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

٢- بطلان احتجاجهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وتحديهم للرسل بذلك؛ لأن البعث الموعود به ليس في الدنيا، بل يوم القيامة، بعد انقضاء الدنيا كلها.

٣- تهديدهم بما وقع لقوم تبع والذين من قبلهم؛ حيث أهلكهم الله بسبب

إجرامهم، وليسوا خيرًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾، والسعيد من وُعظ بغيره.

٤- التحذير من الإجرام والكفر، وأن ذلك سبب الإهلاك.

٥- انتفاء أن يكون عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما لعبًا وعبثًا وباطلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

٦- تنزهه عز وجل عن اللعب والعبث واللهو والباطل.

٧- أنه عز وجل إنما خلق السموات والأرض بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، وهو أن يُعبَد وحده لا شريك له، ويُتَّقى ويطاع، ويجازي العباد على أعمالهم خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

٨- أن أكثر الخلائق لا يفهمون ولا يعون ولا يتفكرون في حقيقة حكمة الله في خلق السموات والأرض وما بينهما، ولا في حكمة خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم لا يعلم حقيقة ما خُلقوا له.

١٠- إثبات يوم القيامة، وأنه ميقات الخلائق أجمعين للفصل بينهم، ومجازاة كل منهم بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

١١- أنه في ذلك اليوم لا ينفع قريب قريبه، ولا صديق صديقه، ولا حليف حليفه، ولا ناصر للمعذبين يدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

١٢- أن من رحمه الله فوفقه للإيمان والعمل الصالح فهو المنتفع، المنصور بنصر الله، الناجي من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾.

١٣- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين.

١٤- إثبات اسميه عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وتمام عزته، وواسع رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر فريق المكذبين المعذبين، وفريق المرحومين الناجين، وبيَّن أن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين، شرع في تفصيل جزاء كل منهم، فقال:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ شجرة الزقوم: شجرة تخرج في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥].

﴿طَعَامُ﴾، أي: غذاء ومأكل ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾، أي: الكافر الفاجر، ذي الإثم الكبير، والذنوب الكثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات: ٦٦].

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾، أي: كالمعدن المذاب أو عكر ودُرْدِيِّ الزيت المغلي.

﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ قرأ ابن كثير وحفص ورويس بالياء على التذكير: ﴿يَغْلِى﴾، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «تَغْلِي».

﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، أي: كغليان الحميم، وهو الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات: ٦٧].

﴿خُذُوهُ﴾، أي: يقال للملائكة من زبانية جهنم: ﴿خُذُوهُ﴾، أي: خذوه بقوة وشدة.

﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب بضم التاء: «فَاعْتُلُوهُ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾، أي: فجروه وسوقوه وقودوه وادفعوه بعنف، بلا هوادة ولا رحمة.

﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: إلى وسط الجحيم، وأشدها حرارة.

﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾، أي: الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج:١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن:٤٣، ٤٤]، أي: ماء بلغ غاية الحرارة.

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ قرأ الكسائي بفتح الهمزة: «أَنَّكَ»، على تقدير لام التعليل، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿إِنَّكَ﴾، أي: قولوا له، أو يقال له:

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، الأمر للتقريع والتوبيخ والتهكم والسخرية، أي: ذق هذا العذاب الأليم؛ ﴿إِنَّكَ﴾ بزعمك ﴿أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي الممتنع من عذاب الله، ﴿ٱلۡكَرِيمُ﴾ على الله فلا يعذبك، أي: لست بعزيز ولا كريم، بل إنك أنت الذليل الحقير المهين الخسيس.

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾، أي: يقال لهم هذا على سبيل التقريع والتوبيخ، أي: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي كنتم به تشكّون؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور:١٣-١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾

فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾:

لما ذكر عذاب الكفرة الآثمين، أتبع ذلك بذكر نعيم المتقين، على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بقلوبهم وجوارحهم، وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «مُقَامٍ» بضم الميم، وقرأ الباقون بفتح الميم: ﴿مَقَامٍ﴾.

﴿أَمِينٖ﴾، أي: آمن، قد جمع صفات الأمن كلها، وانتفت عنه جميع المخاوف، فلا موت ولا هرم ولا مرض، ولا جوع ولا عطش، ولا هم ولا غم ولا حزن، ولا خروج منه، ولا زوال له. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾﴾ بدل من ﴿فِي مَقَامٍ﴾ مع إعادة الجار، وهو تفسير وبيان له، أي: في مقام أمين، وهي جنات وعيون.

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ بعدما ذكر نعيم مكانهم بأمنه، ذكر نعيم أجسادهم. والسندس: رقيق الديباج والحرير، يُلبس مما يلي الجسم؛ لنعومته، والإستبرق: غليظ الديباج والحرير، يلبس ظاهرًا فوق السندس.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، أي: يقابل بعضهم بعضًا في مجالسهم على السرر بقلوبهم ووجوههم وأبدانهم؛ لتمام ألفتهم، ومحبة بعضهم لبعض، وحسن أدبهم وطمأنينتهم، فلا أحد يدير ظهره وقفاه لأخيه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: ومع هذا النعيم العظيم، والسرور التام ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾.

حور: جمع حَوْراء، و«الحَوَر»: مأخوذ من الحور في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها.

و«العِين»: جمع عَيْناء، أي: اللاتي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة.

فالحوراء: المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء، شديدة سواد العين وبياضها، قال تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن:٧٢].

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ الجملة حالية، أي: يدعون في الجنة، أي: يطلبون فيها ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، أي: فمهما طلبوا من أنواع الفواكه والثمار أُحضر لهم.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم آمنين من انقطاع ما هم فيه من التفكه، وآمنين من ضرره، وآمنين من كل مكدِّر من الخروج منها أو الموت، وغير ذلك، ولهذا قال:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ حال أخرى، أي: لا يذوقون في الجنة الموت، أي: لا يموتون؛ كما جاء في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**»[(١)].

وفي الحديث الآخر: أنه يؤتى بالموت فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: «**يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**»[(٢)].

﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، «إلا»: أداة استثناء، ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن الموتة الأولى، وقد ذاقوها في الدنيا، وفي هذا تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وتنصيص على العموم.

قال ابن القيم: «فهذا الاستثناء لتحقيق دوام الحياة، وعدم ذوق الموت، وهو يجعل النص العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة.

وقال أيضًا: «فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد والتنصيص على حفظ العموم، وهذا جارٍ في كل منقطع»[(٣)].

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: ووقاهم ربهم- مع هذا النعيم العظيم المقيم- أي: سلمهم ونجاهم وكفاهم، عذاب الجحيم، فجمع لهم بين حصول المطلوب والمحبوب، وزوال المكروه والمرهوب، فكمل بذلك نعيمهم؛ ولهذا قال:

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٧، والترمذي في التفسير ٣٢٤٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٤٤.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾، أي: هذا النعيم والوقاية من عذاب الجحيم تفضلًا وتكرمًا عليهم، وإحسانًا منه إليهم، لا باستحقاقهم ذلك بعملهم، فهو الذي وفقهم للإيمان والعمل الصالح، وأثابهم عليه بالثواب الجزيل.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فضلا مني؛ تعظيمًا لنفسه عز وجل، وتشريفًا له ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك التفضل منه عز وجل ، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ و«هو»: ضمير فصل للتوكيد والحصر، أي: ذلك الفضل هو الفوز العظيم وحده، الذي لا أعظم منه، وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والنجاة من سخطه وعذابه.

و«الفوز»: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا يعلم قدر عظمته إلا من تفضل به عليهم. ووصفه بالعظيم، وهو العلي العظيم.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، «إنما»: كافة ومكفوفة، أي: فإنما يسرنا القرآن الذي أنزلناه عليك ﴿بِلِسَانِكَ﴾، أي: جعلناه ميسرًا سهلًا، واضحًا بيّنًا ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الذي هو أفصح اللغات وأعلاها وأوسعها.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتذكروا ويتفهموا ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، ويعملوا به.

وقد بدأ عز وجل السورة بالامتنان بإنزال القرآن الكريم، وختمها بالامتنان بتيسيره؛ تعظيمًا له، وتنويهًا بشأنه.

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ﴾، أي: انتظر وعد ربك بالنصر والتمكين لك، وإهلاكهم.

﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾، أي: منتظرون موتك ليتخلصوا منك، ومنتظرون ما سيحل بهم من عذاب الله تعالى الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

وفي ختام السورة بهذا: إشارةٌ إلى أنه مع تيسير القرآن ووضوحه وبيانه، فقد كذب الكثيرون منهم وعاندوا؛ كما أن فيه تسلية له ﷺ، ووعيدًا وتهديدًا للمكذبين من قومه.

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥١، ٥٢].

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للكفار الآثمين بأن طعامهم في النار شجرة الزقوم، كالمهل تغلي في بطونهم غليان الماء الحار الذي قد بلغ غاية الحرارة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ الآية.

٢- آية من آيات الله تعالى، ودلالة عظيمة على قدرته التامة: نبات شجرة الزقوم وخروجها في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٤].

وقد أحسن الشاعر في قوله:

من ظاهر الحكم الكبرى وباطنها ... هذا السحاب به ماء به نار[1]

٣- أخذهم وسحبهم وإهانتهم، وسَوْقهم بقوة وعنف إلى وسط النار، وصب عذاب الحميم فوق رؤوسهم؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾.

٤- تقريعهم وتوبيخهم والتهكم بهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

٥- إذلالهم وإهانتهم، وتحطيم معنوياتهم، وإسقاط ما كانوا يزعمون لأنفسهم من العزة والكرامة؛ لقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

وهذا عذاب معنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

٦- تبكيتهم وتقريعهم بوعيد الله لهم بالعذاب، وتكذيبهم بذلك؛ ليزدادوا حسرة وندامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) البيت لوليد الأعظمي، شاعر عراقي من قصيدة له في كتابه «الزوابع».

٧- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فبعد أن ذكر عذاب الكفرة الآثمين، ذكر نعيم المتقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١﴾ الآيات.

٨- بشارة المتقين في مقام أمين، يأمنون به من جميع المخاوف والشرور، ويتنعمون فيه بأصناف النعيم، وهو الجنات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾.

٩- عظم أمر الأمن في المقام؛ لهذا قدمه في الذكر على أنواع النعيم الأخرى؛ لأن النعيم كله لا قيمة له بدون الأمن، فليت قومي يعلمون.

١٠- تنعم أجسادهم بأفضل اللباس وأنعمه، وأجمله وأحسنه؛ لباس السندس والإستبرق؛ لقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

١١- سلامة قلوبهم، وتمام ألفتهم، ومحبة بعضهم بعضًا، وجلوسهم متقابلين بقلوبهم ووجوههم وأبدانهم، فلا أحد منهم يدير قفاه وظهره للآخر؛ لقوله تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

١٢- أن من تمام نعمة الله تعالى عليهم: تزويجهم بحور عين في غاية الحسن والجمال؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾.

١٣- أنهم مهما طلبوا من أنواع الفواكه والثمار أُحضر لهم مع الأمن من انقطاعه وضرره، ومن جميع المخاوف؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾.

١٤- خلودهم الأبدي في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وقد أخذ بعض أهل العلم من هذا: أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، وهو الموتة الصغرى. وهذا قريب.

١٥- وقايته عز وجل إياهم من عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

١٦- أن تمام الفوز إنما يكون بحصول المطلوب؛ مِن أَمْنِ المكان، وتوافر النعم ودوامها، وبزوال المرهوب، وهو الخوف من الموت أو العذاب، أو انقطاع النعم، وهو

ما وعد الله به المتقين في هذه الآيات.

١٧- أن ما مَنَّ الله به على المتقين بحصولهم على كل مطلوب محبوب، وسلامتهم ونجاتهم من كل مكروه مرهوب، هو بفضله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٨- أن الإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب للفوز بالنعيم والثواب، وليس هو عوضًا عن ذلك كما يقول المعتزلة؛ لأن حصول الفوز إنما هو برحمة أرحم الراحمين عز وجل؛ كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» إليه؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

٢٠- أن الفوز العظيم الذي لا أعظم منه: تفضله عز وجل على العبد بإدخاله الجنة، يتمتع فيها بأصناف النعيم، ووقايته إياه من عذاب الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢١- أنه لا يَقْدُر قدر هذا الفوز العظيم إلا من وصفه بـ«العظيم»، وهو العلي العظيم سبحانه وتعالى.

٢٢- الامتنان على العباد بتيسير القرآن الكريم وتسهيله بلسانه ﷺ العربي المبين؛ لأجل أن يتذكروا ويتفهموا ألفاظه ومعانيه وأحكامه، ويعملوا به؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

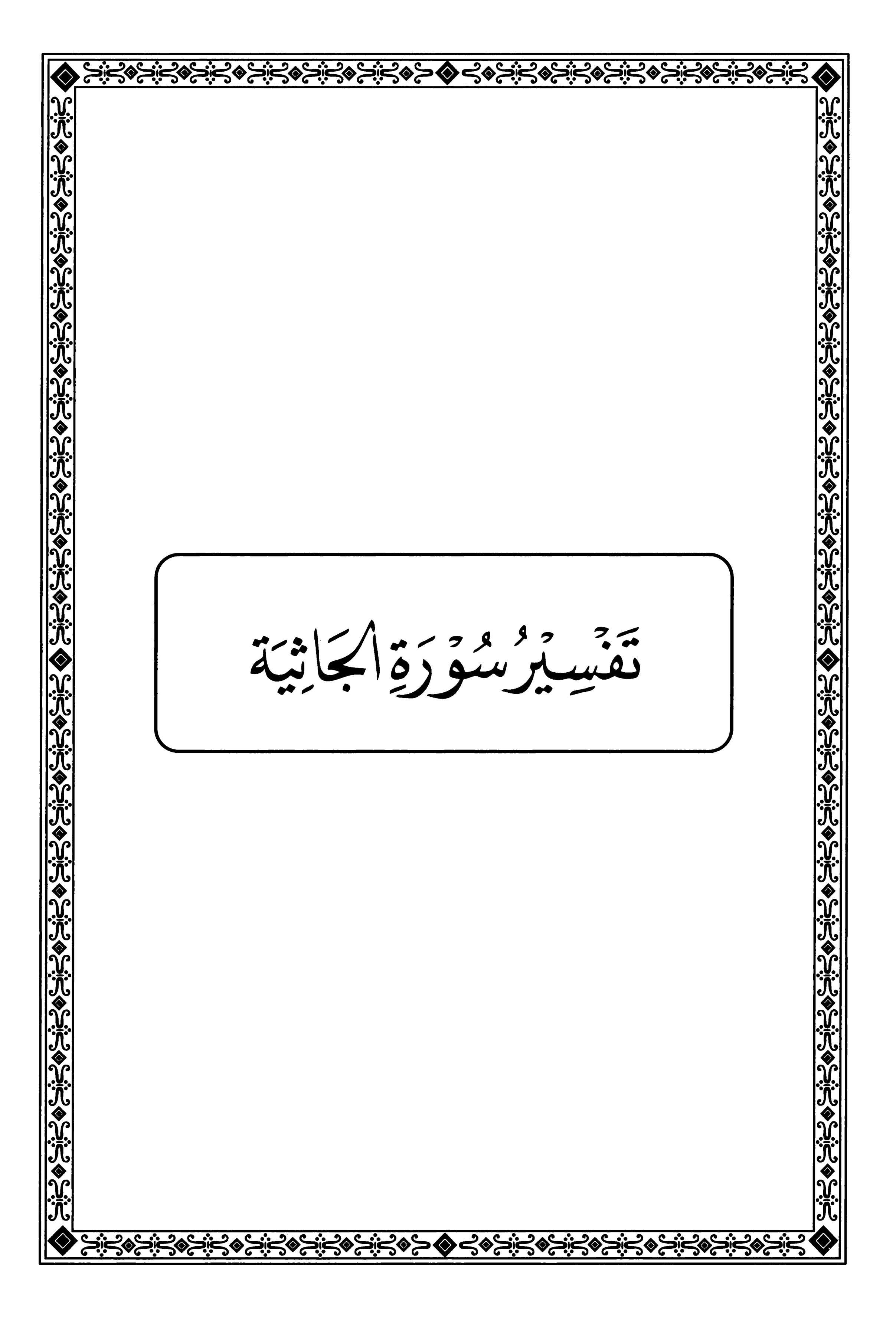
٢٣- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له، وجعل القرآن بلسانه ولسان قومه العربي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

٢٤- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله وأحكامه الشرعية والقدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

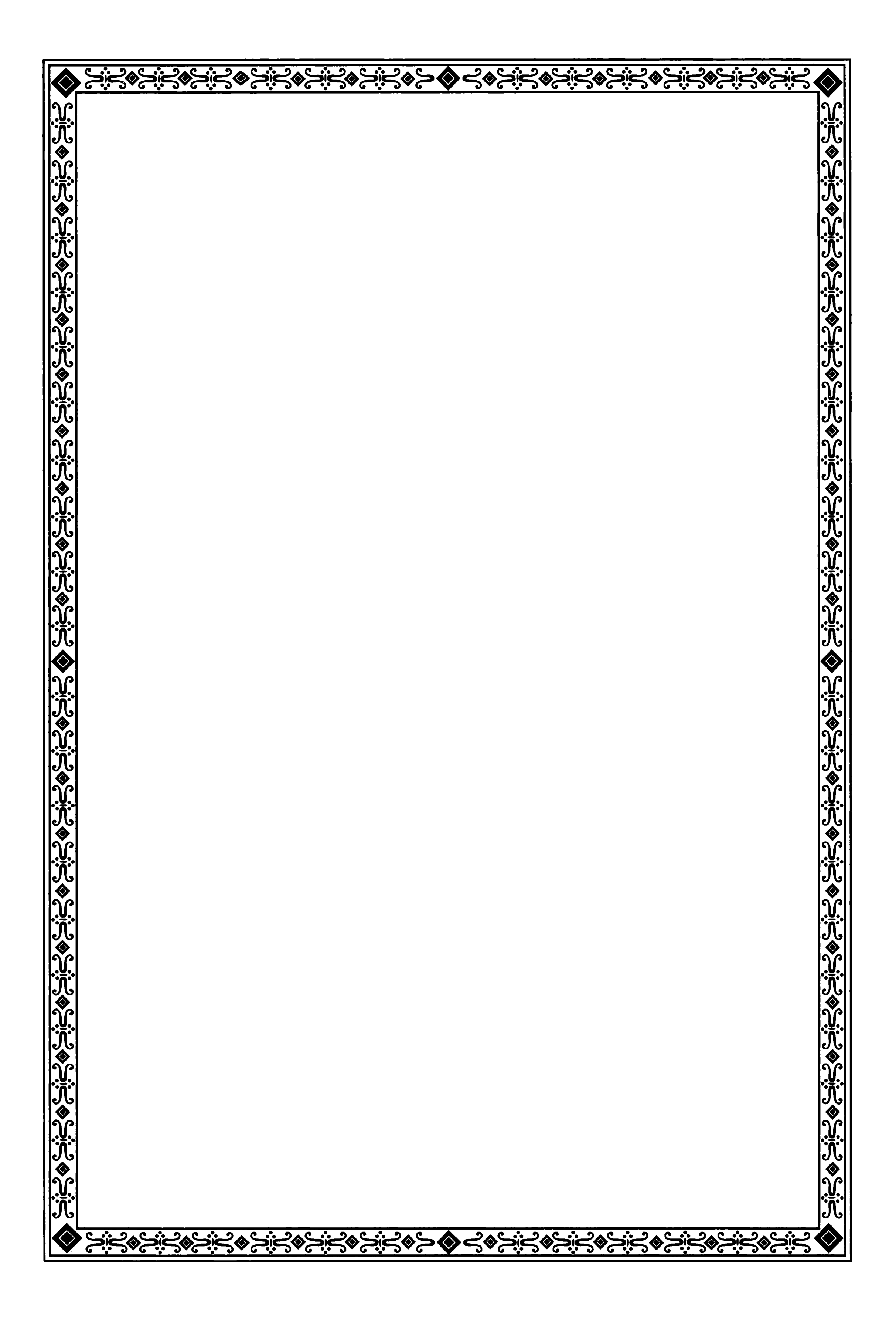
(١) سبق تخريجه.

٢٥- تسليته ﷺ، وتثبيت قلبه بحصول ما وعده الله به من النصر والتمكين، وإهلاك المكذبين له، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الجَاثِيَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الجاثية»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ويقال لها: سورة «حم الجاثية».

وتسمى: «سورة شريعة»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية:١٨]، و «سورة الدهر»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:].

ب- مكان نزولها:

مكية

جـ - موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن وبيان إعجازه، وتعظيم مُنَزِّله عز وجل: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

٢- التنبيه على آيات الله تعالى المنتشرة في الكون في السموات والأرض، وفي خلق بني أدم وجميع الدواب، وفي اختلاف الليل والنهار، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وتصريف الرياح: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

٣- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لكل أفاك أثيم مستكبر يسمع الآيات وكأنه لم يسمعها، ويستهزئ بها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

٤- تعداد بعض نعمه تعالى على العباد سخر لهم البحر والسموات والأرض: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٥- أمر الذين آمنوا بالمغفرة للذين لا يرجون أيام الله ولا يؤمنون، وبيان أن كلاً سيجازي بعمله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٦- ذكر نعمته عز وجل على بني إسرائيل بما آتاهم من الكتاب والحكم والنبوة وغير ذلك، واختلافهم من بعد ما جاء العلم بغيًا بينهم والوعيد لهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٧- الامتنان على النبي ﷺ بما أعطاه الله من الشريعة السمحة، والقرآن الذي هو بصائر للناس وهدي ورحمة لقوم يوقنون: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- كمال عدل الله تعالى، خلق السموات والأرض بالحق والعدل؛ ولإقامة العدل: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٩- لا هادي من بعد الله لمن اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ

ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٠- بيان اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض، وخسران المبطلين يوم القيامة، وشدة ذلك اليوم، وجثو الأمم فيه، ووعد الذين آمنوا بالفوز العظيم ووعيد الذين كفروا بالتوبيخ والخلود في النار: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١١- اختصاص الله عز وجل بالحمد والكبرياء في السموات والأرض؛ لكمال ربوبيته، وعزته، وتمام حكمه، وبالغ حكمته: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾:

قوله: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ سبق الكلام على هذا في سورة غافر.

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة.

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: إن في السموات والأرض التي هي من أعظم المخلوقات، وما بينهما وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والحيوانات والجمادات، وغير ذلك من الليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال والأشجار، والمعادن والنباتات، والبحار والأنهار، وغير ذلك.

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لدلائل واضحات على تمام قدرة الله تعالى، وعظيم آلائه ونعمه، وصحة كتابه، ووحدانيته.

﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: للمؤمنين خاصة، الذين يصدقون بآيات الله وينتفعون بها؛ ولهذا خصهم الله دون غيرهم.

﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: وفي خلقكم أيها

الناس ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾، «ما»: اسم موصول في محل جر معطوف على «خلقكم»،، أي: وخلق الذي يبث، أي: ينشر ويفرق ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ الدابة: اسم لكل ما يدب على الأرض من الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦].

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بكسر التاء في الموضعين: «آياتٍ»، وقرأ الباقون برفعها: ﴿ءَايَٰتٌ﴾.

أي: وفي خلقكم أيها الناس، وخلق الذي يبث وينشر في الأرض من جميع الدواب، دلائل على كمال عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام نعمته وقدرته على البعث.

﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي: لقوم يصدقون تصديقًا جازمًا بآيات الله تعالى، ويعتبرون بها، ويعملون بها.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على «خلقكم»، أي: وفي اختلاف الليل والنهار، أي: تعاقبهما دائبين لا يفتران؛ هذا بظلامه، وهذا بضيائه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦٢].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، «ما»: اسم موصول في محل جر، عطفًا على «خلقكم»، أي: وفي الذي أنزل الله، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من السحاب، ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ من مطر، وسماه: رزقًا؛ لأنه سبب الرزق؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٢].

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ الباء: للسببية، أي: فأحيا بسببه الأرض بالنبات والخضرة.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعد أن كانت ميتة يابسة هامدة جرداء، لا نبات فيها ولا شيء.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ معطوف على «خلقكم»، أي: وتقليب الرياح في مهابها من اتجاه إلى آخر، لمصالح العباد ومنافعهم، في أنفسهم، ومواشيهم، وحروثهم، وغير ذلك.

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: دلائل على وحدانية الله تعالى ونعمته وقدرته على البعث، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: يتفكرون ويتأملون بعقولهم في آيات الله، وينتفعون بها، وهم

المؤمنون الموقنون.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: القرآن الكريم بما فيه من الحجج والبينات، والتنبيه على آيات الله الكونية في السموات والأرض، وفي سائر المخلوقات.

وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك»؛ تعظيمًا لها.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة، أي: نقرؤها ونقصها عليك متلبسة بالحق، ومتضمنة له، ودالة عليه. والخطاب للنبي ﷺ.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: فبأي كلام ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: دون الله وآياته.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وروح وحفص بالغيب: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب: «تُؤْمِنُونَ».

والمعنى: إن لم يؤمنوا ويصدقوا بالله وآياته، فبأي حديث يؤمنون ويصدقون؟! أي: أنهم لن يؤمنوا بأي حديث بعد القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٥، المرسلات:٥٠]، أي: بعد القرآن الكريم.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ أثنى على المؤمنين الموقنين الذين يتفكرون ويتعقلون في الآيات، ثم ذم وتوعد المكذبين بالآيات، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ الآية.

قوله: ﴿وَيْلٌ﴾، «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: هلاك ودمار.

﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب كثير الإفك والكذب في مقاله، ﴿أَثِيمٍ﴾: كثير الآثام في فعاله.

﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سماعًا تقوم الحجة عليه، ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ تقرأ عليه.

﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾، أي: ثم يعرض عنها، ويستمر على كفره وجحوده، مستكبرًا عن الإيمان بها وتصديقها.

﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾، أي: كأنه لم يسمعها.

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، أي: فأخبره بعذاب مؤلم موجع له حسيًّا ومعنويًّا يوم القيامة، وسَمَّى إخباره بذلك: بشارة، على سبيل التهكم به.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا﴾، أي: وإذا عرف من آيات القرآن شيئًا.

﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾، أي: جعلها سخرية واستهزاءً؛ كما في قول أبي جهل لما أنزل الله قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ قال: «الزقوم: التمر والزبد، أتزقمه»[(١)].

ولما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل: «يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبوهم؟»[(٢)].

وقال أبو الأشدين، كلدة بن أسيد بن خلف: «يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم سبعة عشر»[(٣)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ الإشارة لمن اتصفوا بما ذُكر من الإفك في المقال، والإثم في الفعال، والإصرار على الاستكبار والإعراض، والسخرية بآيات الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، أي: لهم خاصة عذاب يهينهم ويذلهم مقابل استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها. والجزاء من جنس العمل.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٩/ ٥٥٢، «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٣) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي ١/ ٢٠٠، وانظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٨٤، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٢٩٤.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾: تفسير وبيان للعذاب المهين، أي: أمامهم جهنم يوم القيامة سيصيرون إليها ويخلدون فيها.

﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾، «شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا يغني عنهم، أي: ولا ينفعهم كسبهم أو الذي كسبوه من الأموال والأولاد وغير ذلك أيَّ شيء مهما قل؛ كما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الممتحنة:٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [آل عمران:١٠، آل عمران:١١٦]، وقال تعالى: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [المجادلة:١٧].

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ﴾: معطوف على قوله: ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾، أي: ولا يغني عنهم، أي: ولا ينفعهم ولا يدفع عنهم عذاب الله.

﴿مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذين جعلوا غير الله أولياء من الأصنام والأنداد. أو مصدرية، أي: اتخاذهم وجعلهم غير الله أولياء.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة، لا يقدر قدر عظمته إلا الذي وصفه بذلك.

﴿هَٰذَا هُدٗىۖ﴾ الإشارة للقرآن الكريم، أي: هذا القرآن هدى للناس كلهم، يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم؛ كما قال: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقال تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف:٣٠].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: جحدوها، وكذبوا بها، ولم يهتدوا بها.

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾، «الرجز»: أشد العذاب، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٩].

﴿أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ويعقوب بالرفع: ﴿أَلِيمٌ﴾: وصف لـ«عذاب»، وقرأ الباقون بالجر، وصفًا لـ«رجز»، أي: لهم عذاب شديد مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه، وحِكمه وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى، منزل من عنده، وتعظيمه، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز»، وصفة العزة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وأنه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٦- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم»، وصفة: «العزة» و«الحكم» و«الحكمة» في حقه كمال إلى كمال.

٧- عظم آيات الله ودلائل قدرته ونعمته في السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما بينهما، لكن لا ينتفع بها إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

٨- أن في خلق بني آدم، وخلق جميع ما يدب على الأرض من الحيوانات: دلائل على تمام قدرته عز وجل ونعمته لأهل اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

٩- نعمة الله على العباد في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وإنزاله عز وجل المطر من السماء، وإحيائه به الأرض بعد موتها، وتقليب الرياح في مهابها، وما في ذلك من الآيات للذين يتفكرون ويتأملون وينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾.

١٠- كمال عظمة الله تعالى وقدرته، وتمام خلقه ونعمته في كل ما خلق في هذا

الكون الواسع العظيم، ودلالة ذلك كله على وحدانية الله تعالى في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته على البعث، وعلى كل شيء.

١١- فضيلة الإيمان واليقين والعقل؛ لأن الله خص أهل الإيمان واليقين، وأهل العقول الذين ينتفعون بعقولهم، بالانتفاع بالآيات، وأثنى عليهم وامتدحهم بذلك دون غيرهم.

١٢- تعظيم الله عز وجل لآياته، وأنها تليت عليه ﷺ بالحق، ونزلت متلبسة بالحق، فطريق وصولها إليه حق، وهي مشتملة على الحق، ودالة عليه، وداعية إليه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٣- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٤- ذم المشركين؛ لتكذيبهم بالقرآن أحق كتب الله وأصدقها، ونفي أن يؤمنوا بأي حديث بعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٥- التهديد والوعيد لكل أفاك كثير الكذب في مقاله، أثيم كثير الإثم في فعاله، يسمع آيات القرآن تقرأ عليه، ثم يصر على تكذيبه واستكباره؛ كأنه ما سمعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

١٦- أن من سمع الآيات ولم ينتفع بها فهو كمن لم يسمعها، إلا أن الحجة تقوم عليه بسماعه لها.

١٧- بشارته- تهكمًا به- بعذاب أليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٨- شدة كفر هذا المُصِرِّ المستكبر؛ حيث لم يكتف بالإصرار على تكذيب الآيات والإعراض عنها، والاستكبار، بل جعلها هزوًا وتنفيرًا للناس منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾.

١٩- وعيد هذا المستهزئ بآيات الله، وتهديده بعذاب يهينه ويذله؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٢٠- أن وراءه جهنم، هي مصيره، وستحيط به؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾.

٢١- أنه لا ينفع المشركين المكذبين، ولا يدفع عنهم ما كسبوه من الأموال والأولاد وغير ذلك أيّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾.

٢٢- عدم استطاعة ما اتخذوه من دون الله أولياء من الأصنام والأنداد نَفْعَهم، ولا دَفْعَ عذاب الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

٢٣- تهديدهم ووعيدهم بالعذاب العظيم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٤- امتداح الله عز وجل للقرآن، وأنه أعظم هدى أنزله سبحانه لهداية الناس إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾.

٢٥- الوعيد والتهديد بالعذاب الشديد للذين كفروا بآيات الله، مع قيام الحجة، ووضوح المحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

٢٦- أن الآيات والنُّذُر لا تغني عن قوم لا يؤمنون، فمع كون القرآن أعظم كتب الله تعالى هداية، فإن كثيرًا من الناس لا ينتفعون بذلك، حكمة بالغة فما تغن النذر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١٥ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١٥﴾:

قوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾، أي: الله وحده ذو القدرة العظيمة، والفضل والمنة، الذي سخر لكم البحر وهيأه.

﴿لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تجري الفلك- وهي السفن- ﴿فِيهِ﴾، أي: في البحر.

﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ عز وجل الكوني، وقدرته وحكمته، فيحملها البحر على ظهره ولا تغوص فتغرق في أعماقه مع ما تحمله من الأثقال العظيمة.

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾: معطوف على قوله: ﴿لِتَجۡرِيَ﴾، أي: ولتطلبوا من فضل الله عز وجل بالأسفار على السفن عبر البحار العيش والرزق والاتجار.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله عز وجل على ما سخر وهيأ ويسر لكم من أسباب التنقل لطلب العيش والرزق، بنسبة ذلك إلى الله عز وجل، واستعماله

في طاعته، والاستعانة به على مرضاته.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على «سخر» الأولى، أي: وهو عز وجل وحده الذي سخر لكم جميع الذي في السموات، وجميع الذي في الأرض من المخلوقات؛ من الشمس والقمر والكواكب، والحيوان والنبات، والمعادن والجبال، والبحار والأنهار، وغير ذلك مما ينتفع به العباد.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، «جميعًا»: توكيد، أي: جميع ذلك من عنده عز وجل وحده، وبفضله وإحسانه وامتنانه؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)﴾ [النحل:٥٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في ذلك المذكور؛ من تسخير البحر لجريان الفلك، والابتغاء من فضله، وتسخير ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه عز وجل.

﴿لَآيَاتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لَدلائل واضحات، وحجج بينات، وبراهين ظاهرات، على عظمة الله تعالى، وكمال قدرته، وسابغ نعمته، ووحدانيته.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يتفكرون في الآيات، ويتأملون فيها، ويتفهمونها، وينتفعون بها، ويعتبرون.

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾، أي: يعفوا ويصفحوا ويتجاوزوا.

﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، أي: للمشركين من أهل مكة الذين لا يرجون ثواب الله، ولا يخافون وقائعه في العاصين وعذابه إياهم، ولا يذكرون نعمه ولا يشكرونها.

وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمر الله المؤمنين بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب والعفو والصفح عنهم؛ لتأليف قلوبهم للإسلام، ولضعف المؤمنين آنذاك، ولما قويت شوكتهم شرع الله لهم الجهاد وأمرهم به.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: «كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى»(١).

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٦٦.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بالنون: «لِنَجْزِيَ»، وقرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الزاي على البناء للمفعول: «لِيُجْزَى»، وقرأ الباقون بفتح الياء، وكسر الزاي؛ على البناء للفاعل: ﴿لِيَجْزِيَ﴾.

واللام: للتعليل، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: لأجل أن يجزي الله قومًا بكسبهم، أو بالذي كانوا يكسبونه؛ يعني: من الفريقين المؤمنين والكافرين، فيجزي المؤمنين بالثواب، والكافرين بالعذاب، ففيه وعد للمؤمنين، ووعيد للمشركين؛ ولهذا قال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ هذا كالتفصيل للإجمال في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: من عمل عملًا صالحًا خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، فلنفسه عمله وثوابه.

﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾، أي: ومن أساء، أي: عمل عملًا سيئًا، ﴿فَعَلَيْهَا﴾، أي: فعلى نفسه إساءته وعقابها.

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، أي: ثم إلى ربكم وحده تردون يوم القيامة، وتعرضون عليه بأعمالكم، فيحاسبكم ويجازيكم عليها صالحها وسيئها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

ذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما أنعم الله به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، واختلافهم بعد أن جاءهم العلم بغيًا بينهم، ووعيده إياهم بالقضاء بينهم يوم القيامة؛ تحذيرًا للمكذبين من هذه الأمة.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم

السلام ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة والإنجيل، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾، أي: والحكم بالكتاب بين الناس، وجعل الملك فيهم، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ حيث كانت النبوة في ذرية إبراهيم أكثرها في بني إسرائيل.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [طه:٨٠، ٨١].

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: على عالمي زمانهم، أو فضلناهم على العالمين كلهم قبلهم وبعدهم، ويخرج من هذا العموم اللفظي أمة محمد ﷺ[1]؛ فإنها خير الأمم على الإطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وكل الفضائل التي أعطاها الله لبني إسرائيل أعطاها عز وجل لهذه الأمة، وزادها عليها فضائل كثيرة، من أعظمها أنه أنزل عليها القرآن أشرف كتبه وأعظمها، وأرسل إليها محمدًا ﷺ أفضل رسله وأشرفهم.

ويقوي القول الثاني: أن بني إسرائيل- والله أعلم- هم أفضل الأمم بعد أمة محمد ﷺ؛ كما أن كتابهم «التوراة» أفضل الكتب بعد القرآن الكريم؛ ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠].

وعندما يقال: إن هذه الأمة هي خير الأمم، وإن بني إسرائيل هم أفضل الأمم بعد أمة محمد ﷺ، فالمراد بذلك من الأمتين: أمة الإجابة، لا من كفر وغيّر وبدل منهما، فليسوا في الحسبان وإن كثروا.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، أي: وأعطيناهم دلالات تبين الحق من الباطل من الأمر القدري، وهي الآيات التسع التي رأوها على يد موسى عليه السلام.

وأعطيناهم بينات من الأمر الشرعي، تبين الحلال من الحرام، والمأمور من

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٤.

المحظور، وغير ذلك مما جاءهم في التوراة.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، ﴿بَغْيًۢا﴾: مفعول لأجله، أي: فما اختلفوا إلا من بعد مجيء العلم إليهم، الموجب لعدم الاختلاف ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، أي: حسدًا وظلمًا وعداوة بينهم، بعد قيام الحجة عليهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: إن ربك يا محمد يفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العدل في الذي كانوا فيه يختلفون، فيميز المحق من المبطل، ويجازي كلًّا بما عمل؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الآية:٩٣].

وهذا تحذير لهذه الأمة من اتباع سننهم وسلوك مسلكهم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ﴾، أي: ثم جعلناك يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾، أي: على ملة ودين ومنهاج واضح. والتنوين للتعظيم، أي: على شريعة عظيمة.

﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، أي: من الأمر الشرعي الذي أوحيناه إليك.

﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، أي: فالزمها واثبت واستمر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب:٢].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن أهواءهم مخالفة لدين الله وشرعه، صادرة عن جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾

[الشورى:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٠].

وكل من خالف شرع الله واتبع ما تحبه نفسه وتهواه، وجعل ذلك عقيدة له ودينًا، فهو ممن اتبع هواه بلا علم وبغير هدى من الله وعلى ضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص:٥٠].

ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع: أهل الأهواء؛ لخروجهم عن الشريعة بمعتقدات باطلة، ويحذرون منهم.

﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليل للنهي السابق، أي: إن هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم بلا علم، إن اتبعتهم ﴿لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لن يغنوا عنك من الله أيَّ شيء، لا بجلب نفع، ولا بدفع ضر.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ﴾، أي: بعضهم أنصار بعض، أي: يوالي بعضهم بعضًا على الشر ويتعاونون على الإثم والعدوان، ويضل بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧].

﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده، ﴿وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوه بفعل أوامره، وترك نواهيه؛ يوفقهم ويعينهم ويحفظهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وينصرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»[1].

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾، أي: هذا القرآن بصائر وهداية عامة للناس؛ كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ خاصة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنهم يصدقون به تصديقًا جازمًا، وينتفعون به، ويتبعونه، ويعملون به. نسأل الله التوفيق.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على العباد بتسخير البحر بقدرته العظيمة؛ لتجري السفن فيه بأمره الكوني، مع ما تحمله من الأثقال، وليطلبوا من فضله الرزق والاتجار بالأسفار على ظهورها عبر البحار؛ لقوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٢- ينبغي شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة؛ حيث سخر البحر بقدرته لحمل هذه السفن، للتنقل عليها طلبًا للرزق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: على هذه النعمة وعلى غيرها من النعم الكثيرة.

٣- تسخيره عز وجل لبني آدم بقدرته التامة جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات؛ تفضلًا منه وامتنانًا وإحسانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

٤- أن في تسخيره عز وجل هذه المخلوقات العظيمة والمختلفة: آيات بينات، ودلائل واضحات، على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته، وسابغ نعمته، ووحدانيته، لمن تفكر فيها وتأمل، واعتبر بها وانتفع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٥- أمره عز وجل المؤمنين في أول الإسلام بالمغفرة والعفو عن المشركين، الذين لا يرجون أيام الله؛ تأليفًا لهم على الإسلام، ونظرًا لضعف المسلمين آنذاك؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾.

٦- أن على من وفقه الله وهداه وشرح صدره للإسلام والإيمان: الرفق بغيره في حدود الشرع، فليس من يعلم كمن لا يعلم.

٧- وعد الله للمؤمنين، ووعيده للمشركين، بمجازاة كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

٨- أن من عمل صالحًا فلنفسه عمله وثوابه، ومن أساء فعلى نفسه إساءته وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾.

٩- كمال عدل الله تعالى ومجازاته كلًّا بعمله، وبجنس ما عمل.

١٠- الترغيب في العمل الصالح، الذي يثاب صاحبه، وهو ما كان خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١١- التحذير من العمل السيئ الذي يعاقب مرتكبه.

١٢- إثبات البعث والمعاد إلى رب العباد، وأن إليه وحده إياب الخلائق، وعليه حسابهم، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

١٤- ذكر ما امتن الله به على بني إسرائيل؛ من إيتائهم التوراة والإنجيل، والحكم بهما بين الناس، وجعلهم ملوكًا، وجعل النبوة من ذرية إبراهيم عليه السلام أكثرها فيهم، ورزقهم من الطيبات، وتفضيلهم على العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

١٥- أن النعم كلها من الله عز وجل: الدينية والدنيوية؛ من إيتاء الكتاب والحكم والنبوة والرزق والفضل، وغير ذلك.

١٦- أن الإنعام بالفضائل الدينية أعظم وأهم؛ ولهذا قدم على الإنعام بالفضائل الدنيوية.

١٧- إقامة الحجة عليهم بإيتائهم بينات من الأمر الكوني، فيها بيان الحق من

الباطل، منها الآيات التسع على يد موسى عليه السلام، وبينات من الأمر الشرعي، فيها بيان الحلال والحرام، والأوامر والنواهي في التوراة.

١٨- أن بني إسرائيل ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بالكتب، وعلى أيدي الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

١٩- أن العلم ما لم يقارنه توفيق من الله تعالى إلى العمل، قد يكون وبالًا على صاحبه، وسببًا لهلاكه، وما حال صاحبه إلا كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول[1]

وما أكثر هذا في كثير من المنتسبين إلى العلم الذين جعلوا العلم مطية لجمع المال، ولم يؤدوا حقه لا عملاً به ولا تعليمًا له.

٢٠- أن الذي حمل بني إسرائيل على الاختلاف بعدما جاءهم العلم هو البغي والعدوان، والظلم والحسد بينهم.

٢١- خطر الحسد ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب للبغي والعدوان والظلم، والاختلاف والتفرق، والعدول عن الحق.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وتشريفه أيضًا بخطابه تعالى في هذا، وفي قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾.

٢٣- تهديد بني إسرائيل ووعيدهم بقضائه عز وجل وفصله بينهم يوم القيامة في اختلافهم، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٢٤- تحذير هذه الأمة من اتباع سنن بني إسرائيل، وسلوك مسلكهم؛ لأن ذكر ما أنعم الله به عليهم واختلافهم بعدما جاءهم العلم بغيًا بينهم، ووعيده عز وجل لهم، كل ذلك سيق لأجل تحذير هذه الأمة من سلوك طريقهم.

٢٥- الامتنان عليه ﷺ بجعله على شريعة عظيمة هي دين الإسلام، وأمره

---

(١) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» ص١٢٦٨.

باتباعها ولزومها، وتحذيره من اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وفي هذا امتنان على أمته، وأمر لهم باتباع هذه الشريعة، وتحذير لهم من اتباع أهل الأهواء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٢٦- أن كل من خالف شرع الله، واتبع ما تحبه نفسه وتهواه، وجعل ذلك له عقيدة ودينًا؛ فقد اتبع هواه بلا علم.

٢٧- أنه لا يؤمن أحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

٢٨- أن الذين يتبعون أهواءهم بلا علم لا ينفعون من اتبعهم بأيِّ شيء، لا بجلب نفع، ولا بدفع ضر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

٢٩- تولي الظالمين بعضهم بعضًا بالباطل، والتعاون على الإثم والعدوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

٣٠- أن الله عز وجل ولي المتقين خاصة، يوفقهم ويحفظهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣١- فضيلة تقوى الله، والترغيب فيها؛ لأن من اتقى الله فالله وليه، ونعم المولى ونعم النصير.

٣٢- ثناء الله عز وجل على كتابه وامتداحه له بأنه بصائر وهدى للناس عامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾.

٣٣- أن القرآن الكريم هدى ورحمة خاصة للموقنين؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به ويصدقونه، ويهتدون بهديه، ويعملون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾، «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب الذين اجترحوا السيئات.

والاجتراح: الاكتساب، ومنه تسمى السباع والطيور التي تستخدم للصيد: جوارح وكواسب؛ لأنها تكسب وتصيد لأصحابها.

والمعنى: أم ظن الذين عملوا السيئات واكتسبوها، من أهل الكفر والشرك والمعاصي.

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي: «حسب»، أي: أحسب الذين عملوا السيئات وظنوا أن نصيرهم.

﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: كالذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالنصب: ﴿سَوَاءً﴾.

وقرأ الباقون بالرفع: «سَوَاءٌ»، أي: سواءً حياتهم وموتهم، أي: حالة محياهم وحالة مماتهم، أي: أحسبوا أن نساويهم بهم في الدنيا والآخرة؟ كلا، ولهذا قال:

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، «ما»: مصدرية أو موصولة، أي: ساء حكمهم، أو ساء الذي يحكمونه من هذا الحكم الجائر، والظن الباطل: أن نساوي بين الأبرار والفجار، في هذه الدار وفي الآخرة دار القرار.

كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر:٢٠].

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

لما نفى وأبطل ظن الذين اكتسبوا السيئات بالكفر والمعاصي المساواةَ بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبيَّن سوء حكمهم هذا، أتبع ذلك ببيان أنه عز وجل خلق هذا الكون كله وأقامه على الحق والعدل؛ ليُجزَى كل بما عمل من غير ظلم.

قوله: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة، أي: خلقًا متلبسًا بالحق، أي: قائمًا على الحق والعدل، وعدم الظلم؛ ليُعبَد الله وحده لا شريك له، ويجازي كلًّا بما عمل؛ ولهذا قال:

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن تُجزَى كل نفس بعملها، أو بالذي عملته من غير نقص في حسناتها، ولا زيادة في سيئاتها.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هذا تأكيد لما قبل، لإثبات كمال عدله عز وجل، أي: وهم لا يظلمون أي شيء من الظلم.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: أخبرني.

﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، «من»: موصولة، أي: الذي جعل إلهه هواه، يأتمر بما تهواه نفسه الأمارة بالسوء، فما أمره به هواه من شيء فعله، حسنًا كان أو قبيحًا.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾، «على علم»: حال من الفاعل، أي: وأضل الله عز وجل هذا الذي اتخذ إلهه هواه عالمًا عز وجل بأنه يستحق الإضلال، وليس أهلًا للهداية.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ حالًا من المفعول، أي: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه؛ كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل:١٤].

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾، أي: وطبع على سمعه، فلا يسمع ما ينفعه، ولو سمع ما انتفع، ولا يفقه ما يرد على قلبه؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «غَشْوَةً» بفتح الغين، وإسكان الشين من غير ألف، وقرأ الباقون بكسر العين، وفتح الشين، وألف بعدها: ﴿غِشَٰوَةٗ﴾، والغشاوة: غطاء العين.

أي: وجعل على بصره غطاءً فلا يبصر الآيات، ولا يرى الحق، ولا يهتدي إليه.

﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ الاستفهام: للنفي، و«ما»: موصولة، أي: فمن الذي يهديه غير الله؟ أي: فلا أحد يهديه غير الله.

وقد أضله عز وجل وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، ولم يرد هدايته، بل سد عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية؛ كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف:١٨٦].

وقال ﷺ في خطبة الحاجة: **«من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»**(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ٢١١٨، والنسائي في الجمعة ١٤٠٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٢ من =

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ عاصم بتخفيف الذال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾.

والاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وفحوى هذا الأمر بالتذكر، أي: تذكروا، واعتبروا، واتعظوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال الكفرة المشركون الدهريون منكرو البعث والمعاد:

﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ما هناك حياة إلا حياتنا الدنيا.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أي: يموت أناس، ويحيا آخرون، أي: يولدون، ومن مات فليس براجع، ولا بعث، ولا معاد، ولا حساب، ولا جزاء.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾، «إلا»: أداة حصر، والدهر: الزمان، أي: إن أحياءنا يصيرون إلى الموت بفعل الدهر وتأثير تقادم الزمان.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ الإشارة إلى قولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾.

و«من»: زائدة لتوكيد النفي، أي: وما لهم بهذا القول أيُّ علم مهما قل، بل كذبوا الوحي والرسل بلا دليل ولا برهان.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هم إلا يظنون، أي: يُخمنون ويتخرصون ويتوهمون، والظن لا يغني من الحق شيئًا.

كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦، يونس:٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ﴾ [يونس:٣٦]،

=

حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾، أي: وإذا تُقرأ على هؤلاء المشركين المكذبين بالبعث آياتنا الشرعية والكونية، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ظاهرات في الدلالة على أن البعث حق، وعلى تمام قدرة الله تعالى عليه.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ في إنكار البعث، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: إلا قولهم: ائتوا بآبائنا، أي: أحيوهم لنا.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إن هناك بعثًا ومعادًا وحسابًا وجزاءً.

﴿قُلِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالبعث القائلين: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ مبينًا بطلان قولهم.

﴿ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾، بخلقكم وإيجادكم من العدم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أي: ثم يميتكم بعد انقضاء أعماركم، وحلول آجالكم.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: ثم يبعثكم بعد موتكم، ويجمعكم إلى يوم القيامة للحساب والجزاء، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه.

كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن:٩]، وقال تعالى: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ [المرسلات:١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود:١٠٤].

وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إبطال لقولهم: ﴿ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لبيان أن البعث يوم القيامة، وليس في الدنيا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى الحق؛ ولهذا ينكرون المعاد ويستبعدونه.

الفوائد والأحكام:

١- ظن الذين اكتسبوا السيئات من أهل الكفر والشرك والمعاصي غرورًا منهم، أن يجعلهم الله كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويساويهم بهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

٢- سوء حكمهم في ظنهم هذا الظن الجائر؛ لقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٣- شتان بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين الذين كفروا واجترحوا السيئات، في الحياة وبعد الممات، فالمؤمنون سعدوا في الحياة بإيمانهم، وسعوا في إعتاق رقابهم، ففازوا في الآخرة بالجنات، والكافرون شقوا في الدنيا بكفرهم، وسعوا في إيباق أنفسهم، فصار مآلهم في الآخرة إلى النار والدركات.

٤- أن الخبيث لا يستوي مع الطيب بحال من الأحوال؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠]، فالكافر خبيث، والمؤمن طيب، والكفر خبيث، والإيمان طيب، وهكذا.

٥- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

٦- إثبات الدار الآخرة، وأن القيامة لا شك فيها؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٧- كمال عدل الله عز وجل، وأنه سبحانه خلق السموات والأرض بالحق، وأقامهن على العدل؛ ليُعبَد وحده لا شريك له، ولتُجزَى كل نفس بعملها من غير ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٩- ذم من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل

على بصره غشاوة، والإنكار عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾.

١٠- عقوبة من اتخذ إلهه هواه بإضلاله، والختم على قلبه، وتغشية بصره، وسد أبواب الهداية أمامه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

١١- إثبات القدر السابق، وأن الهداية والإضلال بيد الله تعالى.

١٢- أن الله يضل من يشاء بعدله وحكمته، وعلمه بمن يستحق الإضلال، وليس أهلًا للهداية.

١٣- أن الله لا يضل أحدًا إلا بعد بيان الحق له، وإقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

١٤- أن من أضله الله، وختم على سمعه وقلبه، وأغشى بصره عن الحق، فلا أحد يستطيع هدايته بعد الله؛ لأن الهداية والإضلال بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾.

١٥- تسلية النبي ﷺ تجاه ضلال من ضل من قومه، واتخذ إلهه هواه؛ كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣].

١٦- الإنكار على من عبد هواه ولم يتذكر ولم يتعظ، والترغيب في التذكر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٧- إنكار المشركين المكذبين الدهريين البعث والمعاد، والدار الآخرة والحساب، وسبهم الدهر، وزعمهم أنه هو الذي يهلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾.

ومن سب الدهر ونسب إليه فعل الأشياء فكأنما سب الله؛ لأن الله هو الفاعل لذلك على الحقيقة، ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم؛ يسب**

الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»(١).

وعن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر**»(٢).

وليس معنى ذلك: أن «الدهر» من أسماء الله، وإنما المعنى: أنه هو المتصرف في الدهر.

١٨- إبطال معتقدهم الفاسد، وزعمهم الكاذب، وبيان أنهم يقولون بلا علم ولا دليل ولا برهان، ظنًّا كاذبًا، وتخرصًا وتخمينًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

١٩- أن الظن لا يغني من الحق شيئًا، بل هو أكذب الحديث؛ كما قال ﷺ: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**»(٣).

٢٠- تكذيبهم ما دلت عليه الآيات البينات الشرعية والكونية، من كون البعث حقًّا، واحتجاجهم على إنكار ذلك بما لا حجة لهم فيه، وهو قولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٢١- إبطال حجتهم بقولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ببيان أنه عز وجل هو الذي يحييهم بخلقهم من العدم، ويميتهم بانتهاء آجالهم، ثم يبعثهم يوم القيامة ويجمعهم بعد انقضاء الدنيا وزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وليس المراد بالبعث الموعود به: بعثهم في الدنيا.

٢٢- أن الله أحيا الخلق اثنتين؛ الأولى: بخلقهم من العدم، والثانية: ببعثهم يوم القيامة. وأماتهم اثنتين؛ الأولى: لما كانوا عدمًا، والثانية: بعد انقضاء آجالهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٢٦، ومسلم في الألفاظ، النهي عن سب الدهر ٢٢٤٦، وأبو داود في الأدب، في الرجل يسب الدهر ٥٢٧٤.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٩٩، ٣١١.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٣- أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى الحق؛ ولهذا أنكر كثير منهم المعاد واستبعدوه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ولله عز وجل وحده ملك السموات والأرض، وهو سبحانه الخالق لذلك كله، المتصرف فيه في الدنيا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، أي: وفي الآخرة، يوم تقوم الساعة، أي: يوم القيامة، أي: له الملك في الدنيا والآخرة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، «يومئذ»: بدل من «يوم تقوم الساعة»، أو توكيد له.

أي: يوم يخسر في ذلك اليوم المبطلون، أي أهل الباطل، وهم الكفرة والمكذبون.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وترى يومئذٍ كل أمة من الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتاب.

﴿جَاثِيَةً﴾ على الركب من شدة الكرب، وعظم الهول، متميزة منفردة.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ قرأ يعقوب بنصب اللام: «كُلَّ»، وقرأ الباقون برفعها: ﴿كُلُّ﴾، أي: كل أمة تدعى إلى كتاب شريعتها الذي أنزل عليها؛ لتُعرض أعمالها على ما أُمرت به في كتابها، وهل أعمالها موافقة لما جاء في كتابها فتفلح وتربح، أم مخالفة لكتابها

فتخيب وتخسر؟

وفي الحديث: «**والقرآن حجة لك أو عليك**»[(١)].

ويدل على هذا الاحتمال قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ على أن معناه: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم يفصل بالحق والعدل.

ويحتمل أن المراد بكتابها: كتاب أعمالها، أي: كتاب الأعمال لكل أحد، وما سطر فيه من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:٦٩].

ويدل على هذا الاحتمال قوله بعد هذا: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: يقال لها بشارة للمؤمنين، وتهديدًا للكافرين: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: تجزون جزاء عملكم، أي: جزاء الذي كنتم تعملونه، خيرًا كان أو شرًّا.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ الذي كتبنا فيه أعمالكم، وهو يشمل جميع الكتب التي أُحْصِيت فيها أعمالهم، ولكل واحد كتاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء:٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة:١٩، الانشقاق:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق:١٠].

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣؛ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾، أي: يشهد ويستحضر جميع أعمالكم بالحق والعدل، من غير زيادة ولا نقصان؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾، أي: كتابنا الذي أنزلناه عليكم يفصل ويقضي بالحق والعدل. والأول أقرب؛ لقوله:

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: إنا ننسخ ونكتب عملكم، أي: الذي كنتم تعملونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانفطار:١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق:١٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾:

لما ذكر استنساخ وكتابة جميع أعمال العباد، وشهادة كتبهم عليهم بأعمالهم، أتبع ذلك بتفصيل جزائهم؛ من آمن منهم ومن كفر.

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما» في الموضعين: حرف شرط وتفصيل، أي: فأما الذين آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات ظاهرًا بجوارحهم.

﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فيدخلهم ربهم في جنته؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنت الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لإدخالهم في رحمته عز وجل وجنته.

﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ أي: هو الظفر والنجاح والفلاح، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ البيِّن الظاهر الواضح.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: فيقال لهم؛ تقريعًا وتوبيخًا وتقريرًا: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: تقرأ عليكم.

﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستكبرتم عن الانقياد لها، وكذبتم بها بقلوبكم.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بأفعالكم بالكفر والشرك.

وفي قوله: ﴿قَوْمًا﴾ إشارة إلى أن الإجرام صار خلقًا لهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: وإذا قيل لكم: إن وعد الله بالحساب والجزاء والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾، أي: واقع لا محالة.

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، قرأ حمزة بنصب: «الساعة»: «وَالسَّاعَةَ»؛ عطفًا على ﴿وَعْدَ﴾، وقرأ الباقون برفعها: ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ على الابتداء، أي: والقيامة لا شك فيها، أي: آتية ولا بد.

﴿قُلْتُم﴾ منكرين لذلك: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: لا نعرفها، ولا نؤمن بها، ولا نصدق بوقوعها.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، «إن» نافية، بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما نظن إلا ظنًّا، أي: ما نتوقع وقوعها إلا توهمًا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ توكيد لما قبله، والسين والتاء للمبالغة، أي: وما نحن بمتيقنين، أي: بمتحققين.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾، أي: ظهر لهم يوم القيامة جزاء وعقوبة سيئات الذي عملوه، أي: سيئات عملهم.

ولم يقل: وبدا لهم عقوبات سيئات ما عملوا، بل قال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ للدلالة على أن العقوبة سببها السيئات، وأن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط ونزل بهم.

﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «ما» اسم موصول مبني في محل رفع فاعل، أي: وأحاط

بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا به يستهزئون؛ تكذيبًا بوقوعه، ولمن توعدهم به.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾، أي: نترككم في العذاب في نار جهنم.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، «ما»: مصدرية، أي: نسيانًا كنسيانكم لقاء يومكم هذا، وترككم العمل له، وتكذيبكم به، والجزاء من جنس العمل.

وجاء في الحديث القدسي أن الله عز وجل يقول للعبد: «**ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني**»(١).

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: ومصيركم ومنزلكم ومقركم النار.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونكم ويدفعون عنكم عذاب الله.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ الإشارة تعود إلى نسيانهم وجعل مصيرهم النار، والباء: للسببية، أي: ذلكم الوعيد بنسيانكم، وجعل مأواكم النار، وعدم نصركم، بسبب أنكم جعلتم آيات الله هزوًا، تستهزئون بها، وتسخرون منها.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأننتم وركنتم إليها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء، وضم الراء: ﴿يَخْرُجُونَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿يُخْرَجُونَ﴾ ﴿يُخرجون﴾ بضم الياء، وفتح الراء، أي: فاليوم لا يُخرَجون من النار.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: ولا يطلب منهم العُتبى، بأن يُرْضوا ربهم بالتوبة والطاعة، بل يعذبون بغير استعتاب؛ لأن الآخرة دار جزاء، لا دار استعتاب وعمل.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾، أي: فلله وحده الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وهو الوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، على ربوبيته لجميع الخلق؛ ولهذا قال:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾، «رب»: بدل من لفظ الجلالة في المواضع الثلاثة، أو نعت له، أي: خالقهما ومالكهما، والمتصرف فيهما.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، ويجب عليهم أن يحمدوه.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ في السموات والأرض، أي: وله وحده الكبرياء في السموات والأرض، أي: العظمة والجلال والمجد، والسلطان والقدرة؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**»(١).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع، الذي لا يُغالَب ولا يُمانَع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات سعة ملكه عز وجل، واختصاصه بملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

٢- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

٣- خسارة أهل الباطل في ذلك اليوم الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

٤- جُثُوُّ الأمم على الركب، وتمايز كل أمة من شدة الكرب وعظم الهول في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾.

٥- دعوة كل أمة إلى كتابها الذي أُنزل عليها؛ لعرض أعمالها عليه، وهل هي موافقة لما جاء فيه أو مخالفة؟ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا

(١) سبق تخريجه.

يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- عرض كتب أعمال كل أمة عليها؛ ليرى كل فرد منها ما سطره فيه من خير وشر؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ وهذا على الاحتمال الثاني أن المراد: كتاب أعمالها.

٧- مجازاة كل بما عمل من غير زيادة في سيئاته، ولا نقصان من حسناته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾.

٩- إثبات كتابة الأعمال، وأن لكل أمة، أي: لكل فرد منها، كتابًا يستحضر ويشهد بالحق والعدل على جميع أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وقوله قبل هذا: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

١٠- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: أهل الإيمان والعمل الصالح الذين يدخلهم ربهم في رحمته وجنته، ولهم الفوز المبين، وكفار مستكبرون، لهم التوبيخ والتقريع، ومأواهم النار وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ الآيات.

١١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى، ورحمته الخاصة بالمؤمنين.

١٣- لا فوز أبين وأظهر وأعلى من الدخول في رحمة الله تعالى وجنته، والتمتع بما فيها من ألوان النعيم، ورؤية الرب الكريم.

١٤- توبيخ الكفار وتقريعهم على كفرهم واستكبارهم عن الانقياد لآيات الله، وتكذيبهم بها، وإجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

١٥- توبيخهم وتقريعهم على تكذيبهم بوعد الله بالجزاء، وإنكارهم قيام الساعة، وتشكيكهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٦- إثبات أن وعد الله بالحساب والجزاء، والثواب والعقاب، حق لا مرية فيه.

١٧- أن الظن لا ينفع صاحبه، ولا يغني من الحق واليقين شيئًا.

١٨- معاينتهم ومشاهدتهم في ذلك اليوم عقوبات ما عملوه من السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾.

١٩- إحاطة العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا، ونزوله بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٢٠- تبكيتهم بنسيانهم وتركهم في العذاب؛ كما نسوا لقاء يوم القيامة ولم يعملوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

٢١- وعيدهم وتهديدهم بأن مأواهم ومنزلهم ومصيرهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

٢٢- أنه لا نصير لهم في ذلك اليوم ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

٢٣- توبيخهم وتبكيتهم ببيان أن سبب نسيانهم في العذاب وجعل النار مصيرهم: هو جعلهم آيات الله هزوًا وسخريةً، والاغترار بالحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢٤- يجب الحذر من الاستهزاء بآيات الله ودينه، والحذر من الاغترار بالدنيا وزخارفها، وزينتها الفانية.

٢٥- خلود الكفرة والمجرمين في النار، فلا خروج لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾.

٢٦- تعذيبهم في ذلك اليوم بلا استعتاب؛ لأن الآخرة دار جزاء، لا دار استعتاب وعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

٢٧- اختصاص الله تعالى بكمال الحمد، والوصف بكمال الصفات على ربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

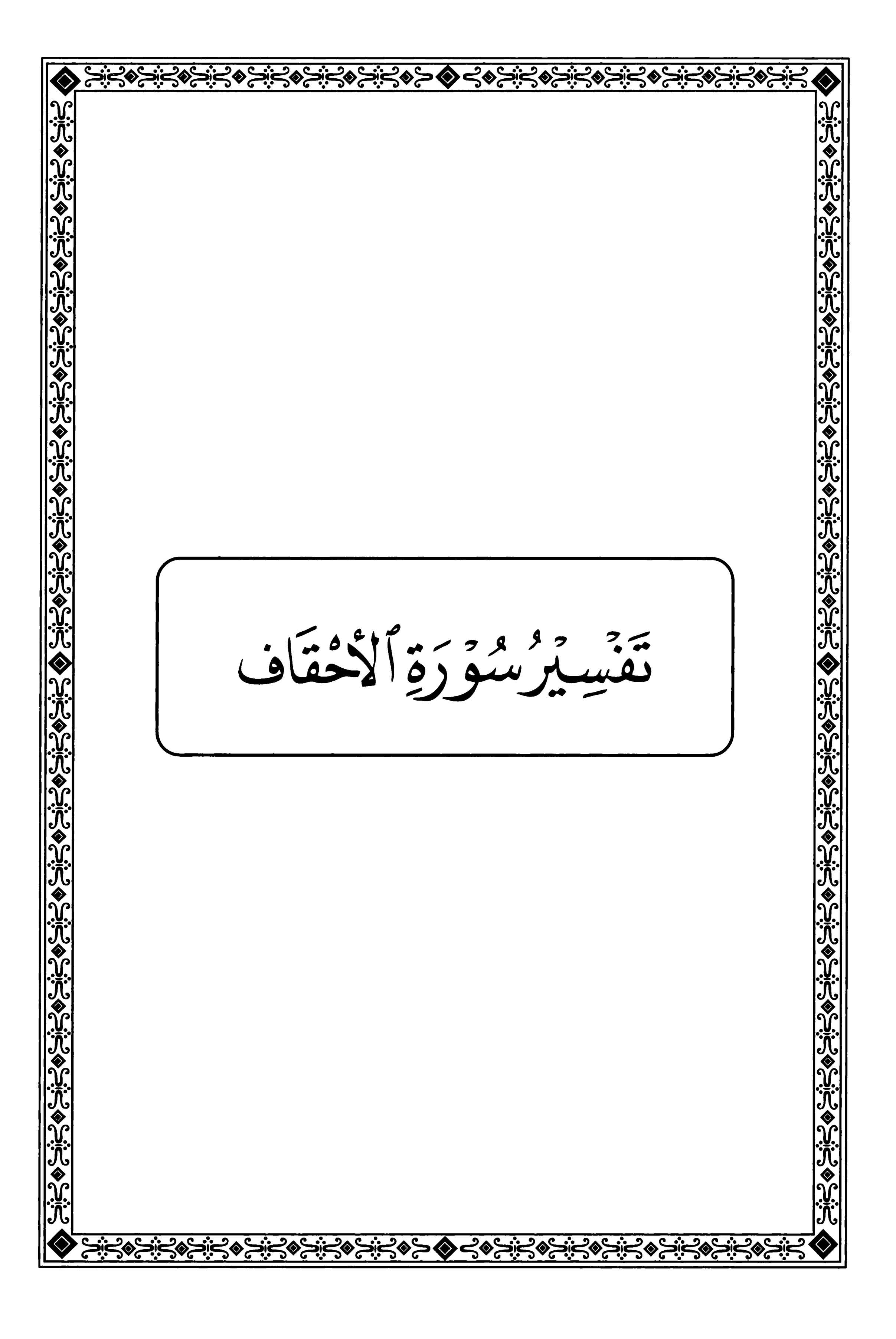
٢٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للسموات والأرض، والعالمين كلهم.

٢٩- اختصاصه عز وجل بالكبرياء والعظمة والسلطان في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

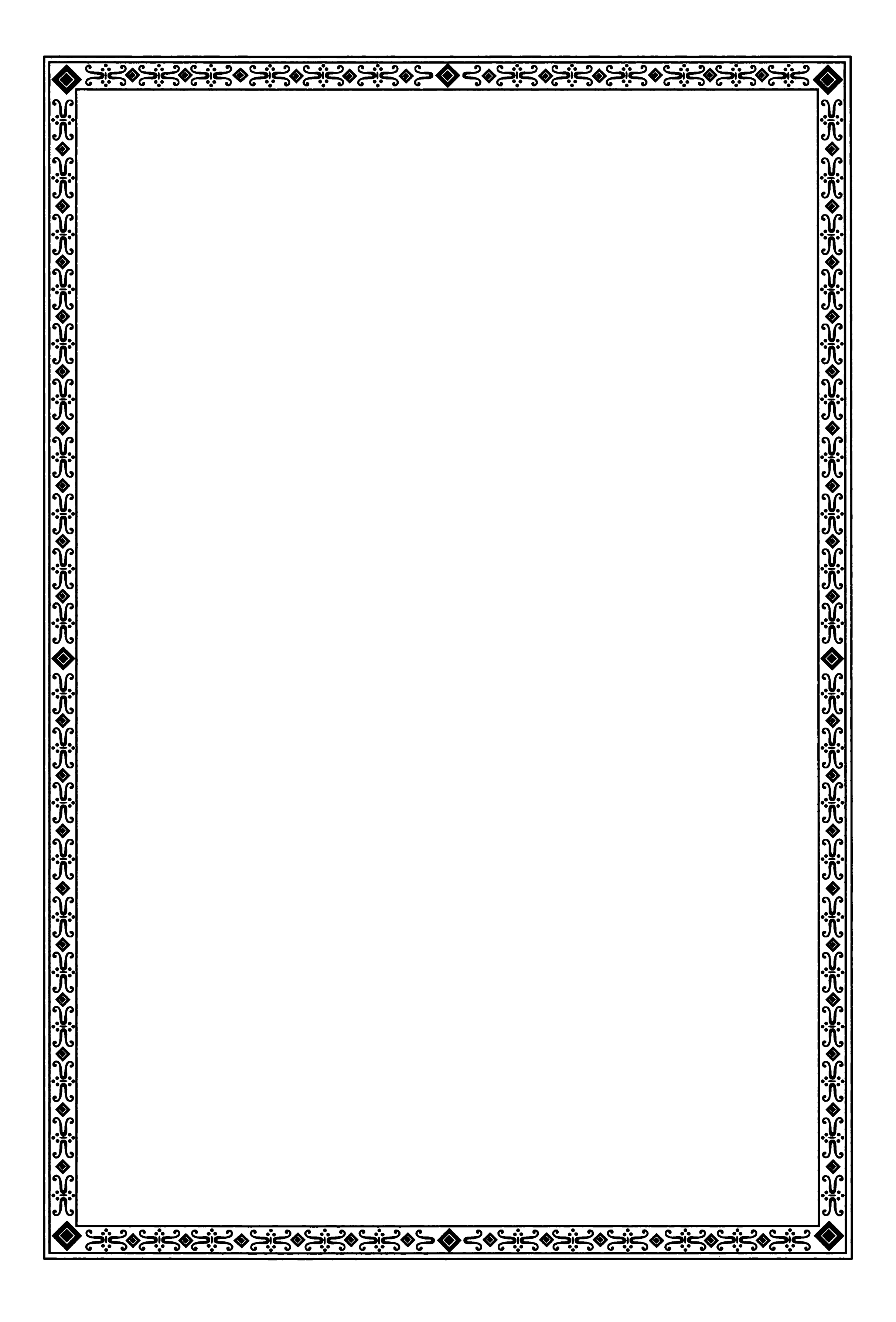
٣٠- إثبات اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم»، وصفة «العزة» التامة، و«الحكم» التام، و«الحكمة» البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣١- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز»، و«الحكيم»، وصفة «العزة» التامة، و«الحكم» التام، و«الحكمة» البالغة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلأحْقَاف



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الأحقاف» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتح الله عز وجل «سورة الأحقاف» بمثل ما افتتح به «سورة الجاثية»: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾؛ تعظيمًا للقرآن وبيانًا لإعجازه، وتعظيمًا لنفسه عز وجل.

٢- بيان أنه عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما لحكمة عظيمة، وهي عبادته، ومجازاة العباد بأعمالهم: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾.

٣- بيان بطلان ما يعبده المشركون من دون الله من آلهة، ومدى ضلال من يدعوها من دون الله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

٤- تكذيب الذين كفروا بما يُتلى عليهم من آيات الله البينات، وزعمهم أنه سحر مبين، ومما افتراه محمد، والرد عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

٥- وعد الله عز وجل للذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا بانتفاء المرهوب، وحصول المطلوب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٦- وصية الإنسان بالإحسان إلى والديه، وسؤال الله تعالى أن يلهمه شكر نعمة الله عز وجل عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضاه الله، ويصلح له في ذريته: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٧- التهديد والوعيد لمن ينكر البعث، ويكفر بالله، وينكر وعده: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- التذكير بهود عليه السلام وإنذاره قومه عادًا بالأحقاف وقد خلت النُّذُر من بين يديه ومن خلفه: ألا يعبدوا إلا الله، وتخويفهم عذاب يوم القيامة، وتكذيبهم له، واستعجال العذاب، وإهلاكهم بالريح: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ

بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٩- تذكير المشركين بإهلاك مَن حولهم مِن القرى، وتصريف الآيات لهم لعلهم يرجعون، وبيان غياب آلهتهم التي تقربوا إليهم من دون الله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

١٠- ذكر استماع نفر من الجن إلى قراءته ﷺ القرآنَ، وإنذارهم قومَهم، وشهادتهم بتصديق القرآن لما قبله، وهدايته إلى الحق والطريق المستقيم، وأمرهم قومهم بإجابة داعي الله، وتحذيرهم من عدم الإجابة: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

١١- بيان تمام قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، والتهديد والوعيد للمكذبين: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

١٢- تقوية قلبه ﷺ، وتسليته تجاه تكذيب قومه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾:

قوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ سبق الكلام عليه في سورة غافر، وسورة الجاثية.

﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، «إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة والمصاحبة، أي: إلا بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، وهو: أن يُعبَدَ الله وحده لا شريك له، لا على وجه العبث والباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ [الحجر:٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾، أي: وإلى وقت محدد، ومدة مضروبة؛ لا تزيد ولا تنقص، وهو

وقت انتهاء الدنيا، وتبدلها وبعث الخلائق للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الروم:٨].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: عن الذي أنذروه وخُوِّفوا به وحُذِّروا منه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم، متولُّون بأبدانهم، لاهون غافلون، حالهم كما قال الشاعر:

والناس في غفلة عما يراد بهم ... كأنهم غنم في حوش جزارِ

والمقصود: التهديد والوعيد لهم، أي: وسيعلمون غب ذلك.

﴿ قُلْ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره؛ مبينًا لهم عجز آلهتهم، وعدم استحقاقهم للعبادة.

﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والسخرية، و«ما»: موصولة، أي: الذي تدعونه غير الله من الأصنام والأوثان.

﴿أَرُونِى﴾، أي: أخبروني، والأمر للتحدي والتعجيز.

﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، «ماذا»: استفهامية، أو «ما»: استفهامية، و«ذا»: بمعنى «الذي»، أي: ما الذي خَلَقوا من الأرض؟ أي: هل خلقوا جبالًا، أو أجروا أنهارًا، أو نشروا حيوانًا، أو أنبتوا أشجارًا، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: أنهم لم يخلقوا من الأرض شيئًا.

وإذا لم يكن شيء من الأرض مخلوقًا لهم بطل أن يكونوا آلهة؛ لخروج المخلوقات عن خلقهم وتصرفهم؛ كما قال تعالى منكرًا على المشركين: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢].

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، «أم» في الموضعين: هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل ألهؤلاء الآلهة شركة ونصيب

مع الله في السموات؟

أي: أنهم لم يخلقوا شيئًا من الأرض، ولا شرك لهم في السموات، ولا في الأرض، فكيف تدعونهم من دون الله؟!

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

لما ذكر انتفاء الدليل العقلي لهم على دعوتهم الأصنام والأوثان من دون الله، أتبع ذلك بذكر انتفاء الدليل النقلي لهم على ذلك؛ كما قال في سورة فاطر: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر:٤٠].

أي: ائتوني بكتاب من كتب الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة الأصنام. والأمر- كالذي قبله- للتحدي والتعجيز.

﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾، أي: من قبل القرآن، الذي أمر بعبادة الله تعالى وحده، ونهى عن الشرك.

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، أي: أو ائتوني بأثارة من علم، أي: بقية وموروث من علم الرسل يأمر بذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين في أن هذه الأصنام والأوثان لها شرك مع الله، وتستحق العبادة من دونه.

وفي هذا إفحام لهم، فلا يستطيعون أن يأتوا بدليل؛ لا معقول ولا منقول على ما هم عليه من الشرك بالله، وقد أجمع الرسل عليهم السلام على الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

فكل رسول يقول لقومه: اعبدوا الله؛ ما لكم من إله غيره؛ كما جاء في ذكر قصصهم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أشد ضلالًا

وأعظم جهلًا من الذي يدعو ويعبد غير الله.

﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، «من» موصولة، أي: الذي لا يستجيب له إلى يوم القيامة، أي: لا يستجيب له أبدًا، وهي الأصنام والأوثان، فهي لا تسمع دعاء من دعاها ولا تستجيب له؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [فاطر:١٤].

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾، أي: وهؤلاء الآلهة عن دعاء المشركين إياهم وعبادتهم لهم في الدنيا غافلون؛ لأنهم جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

كما قال الخليل عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢].

هذه حال آلهتهم في الدنيا، وهم في الآخرة كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾، أي: وإذا جُمع الناس بعد البعث يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ ، أي: كان هؤلاء الآلهة لعابديهم أعداءً، يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥].

﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، أي: وكان هؤلاء الآلهة بعبادة المشركين إياهم كافرين، أي: منكرين جاحدين لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [فاطر:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان:١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: وإذا تتلى على المشركين المكذبين، أي: تُقْرأ عليهم آيات الله واضحاتٍ ظاهراتٍ جلياتٍ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مكذبين ومكابرين ومعاندين.

﴿لِلْحَقِّ﴾، وهو القرآن وما جاء فيه من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والنهي عن الشرك، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، أي: حين جاءهم.

﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن واضح ظاهر، وكذبوا، وهذا من قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعاف العقول، وهو من أشد وجوه فرط ضلالهم.

وأظهر في مقام الإضمار؛ للتسجيل عليهم بالكفر، وأنه سبب قولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: بل أيقولون افتراه؟ أي: افترى محمد هذا القرآن، أي: اختلقه وتَقوَّله من عند نفسه، فليس هو من عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾ [الطور:٣٣]، وهذا ضرب آخر من ضروب ضلالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾ [الفرقان:٤].

ولهذا تحداهم الله في زعمهم أنه افتراه: أن يأتوا هم بأنفسهم بسورة أو بعشر سور مثله، أو يأتوا بمثله.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾، أي: قل لهم يا محمد: إن كنت افتريت هذا القرآن من عند نفسي، وزعمت أنه من عند الله، فقد تعرضت لأشد العقاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦].

لأن التقوّل على الله أعظم أنواع الافتراء، وأشد الموبقات وأعظمها، وأعمها فسادًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف:٣٣].

فجعل عز وجل القول على الله بلا علم أعظم من الشرك وغيره من الذنوب؛ لشدته، وعظم جرمه، وانتظامه لجميع الذنوب؛ ولهذا قال هنا:

﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، أي: فلا تقدرون، لا أنتم ولا غيركم على دفع عقوبة الله عني؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ [هود:٣٥].

والمعنى: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردها.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ تعليل للنفي قبله، و«ما»: موصولة، أي: هو سبحانه أعلم بالذي تفيضون فيه، وضمير الهاء يعود إلى القرآن.

والإفاضة هنا بمعنى: إطالة القول والكلام، أي: هو أعلم بما تفيضون وتطيلون من القول في القرآن، قدحًا وطعنًا فيه، من قولكم: سحر، أو شعر، أو مفترى، أو غير ذلك.

ويجوز كون ضمير الهاء يعود إلى الرسول، أي: هو أعلم بما تفيضون من الطعن والقدح في الرسول ﷺ، من قولكم: ساحر، أو شاعر، أو مفترٍ، أو كاهن، أو مجنون، أو غير ذلك.

﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: كفى به عز وجل شاهدًا ومطلعًا ورقيبًا وحاكمًا بيني وبينكم. وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: وهو ذو المغفرة الواسعة لمن تاب إليه، يستر ذنوبهم، ويتجاوز عنهم.

﴿الرَّحِيمُ﴾: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة لجميع الخلق.

وفي هذا ترغيب لهم بالتوبة، ووعد لهم بالمغفرة والرحمة، إن تابوا وأنابوا إليه مع ما

صدر منهم من التكذيب والعناد، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان:٥، ٦].

﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: لست بأول رسل الله إلى خلقه، حتى تستنكروا وتستبعدوا بعثي إليكم، فقد سبقني جميع الرسل والأنبياء، وما كنت بدعًا من الرسل في دعوتي لكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فهذا ما دعت إليه الرسل كلهم قبلي.

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾، «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي، أي: وما أعلم ما الذي يفعله الله بي ولا بكم في هذه الدنيا، وما الذي قدره علي وعليكم فيها؛ لأني لا أعلم الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨].

أما في الآخرة فإنه ﷺ يعلم ما يُفعَل به في الآخرة، وأنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وقد قال ﷺ: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة..»(١).

وشهد ﷺ لعدد من الصحابة رضي الله عنهم بالجنة؛ كالعشرة المبشرين بالجنة وغيرهم(٢).

كما يعلم ﷺ أن الكفرة والمشركين في النار، ويعلم كل ما أخبره الله به وأعلمه.

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، و«ما»: موصولة، أي: ما أتبع إلا الذي يوحيه الله تعالى إلي من الوحي؛ دعوةً إليه، وعملًا به.

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: وما أنا إلا نذير بيِّن النذارة، وأمري بيِّن ظاهر، وليس بيدي شيء من الأمر، بل الأمر كله لله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف:٥٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٢١؛ من حديث حسناء بنت معاوية الصريمية، عن عمها رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٤٧؛ من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه، وحِكمه وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى منزل من عنده، وتعظيمُه، وإبطال القول بخلق القرآن.

٤- إثبات اسميه عز وجل: «العزيز»، و«الحكيم»، وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٥- حكمة الله تعالى البالغة، وقدرته العظيمة في خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنه ما خلقهما وما بينهما إلا بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، لا عبثًا ولا باطلًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- أن الله جعل للسموات والأرض وما بينهما من المخلوقات أجلًا مسمى، ووقتًا محددًا تفنى عند حلوله، وهو انتهاء هذه الدنيا، ومصير الخلائق ومعادهم إلى الله تعالى؛ ليجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٧- إعراض الذين كفروا عما أُنذروا، وخُوِّفوا منه، ولهوهم وغفلتهم عما خُلقوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾.

٨- توبيخ المشركين، والإنكار عليهم في عبادتهم آلهة من دون الله ، وتحديهم أن يكون لهؤلاء المعبودين خلقُ شيءٍ من الأرض، أو شرك في السموات، وإثبات عجزهم، وعدم استحقاقهم للعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٩- أن المستحق للعبادة هو الله تعالى وحده، المتفرد بخلق السموات والأرض وجميع المخلوقات، لا شريك له في ذلك كله، ولا مُعين، ولا ظهير.

١٠- أنه لا دليل ولا برهان للمشركين على اتخاذهم هذه الآلهة لا من عقل ولا نقل،

ولا مصداق لزعمهم أن لها شركًا مع الله، وأنها تستحق العبادة، وأنها تنفع وتشفع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤﴾.

١١- أن العقل، والنقل في جميع الكتب السماوية، وعلى ألسنة جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام دل على وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

١٢- أنه لا أحد أشد ضلالًا وجهلًا ممن يعبد من دون الله أصنامًا وأوثانًا لا تسمع ولا تستجيب له أبدًا، بل هي جمادات غافلة عن دعائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾.

١٣- إثبات يوم القيامة، وحشر الناس فيه للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾.

١٤- عداوة هؤلاء المعبودين من دون الله يوم القيامة لعابديهم، وكفرهم بعبادتهم، وتبرؤهم منهم ومن عبادتهم إياهم، أحوج ما يكونون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾.

١٥- شدة كفرهم وعنادهم، وجرأتهم على وصف كتاب الله وما جاءهم فيه من الآيات البينات والحق بأنه سحر بيِّن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧﴾.

١٦- قيام الحجة عليهم بالآيات البينات، وبيان الحق لهم، والإعذار منهم.

١٧- أن الذي حملهم على وصفهم القرآن بأنه سحر مبين، هو كفرهم؛ بدلالة الإظهار في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بدل الإضمار.

١٨- زعمهم الكاذب، وافتراؤهم الباطل عليه ﷺ بأنه اختلق القرآن من عند نفسه وليس هو من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾.

١٩- عِظَم شأن الافتراء على الله، وأن من افترى على الله، وتقوَّل عليه ما لم يقل، وزعم أن الله أرسله كذبًا عاجله الله بالعقوبة الشديدة، التي لا يستطيع أحد دفعها عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾.

٢٠- علم الله تعالى المحيط بهم، وبما يفيضون من القول في الطعن بالقرآن،

وبالرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد لهم بكفايته عز وجل شهيدًا ومطلعًا عليهم، وحاكمًا بينه ﷺ وبينهم، ومجازيًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

٢٢- أنه لا أعظم كفاية من الله عز وجل في الشهادة على العباد، ومحاسبته إياهم.

٢٣- إثبات اسميه عز وجل: «الغفور» و«الرحيم»، وصفتي: المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل، وترغيب هؤلاء المكذبين وغيرهم بالتوبة والإنابة؛ ليغفر لهم ويرحمهم. وفي هذا دلالة على واسع حلمه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٤- الجمع لمن تاب وأناب إلى الله بين زوال المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة.

٢٥- أنه ﷺ ما هو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وليس هو أول رسول، وليس ما جاء به من الدعوة إلى توحيد الله والنهي عن الشرك بدعًا في الرسالات، بل كل الرسل قبله دعوا إلى ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٢٦- أنه ﷺ كغيره من البشر؛ لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما أخفاه القدر له ولا لغيره في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

٢٧- أنه ليس إليه ﷺ إلا اتباع ما أوحاه الله تعالى إليه؛ دعوةً إليه، وعملًا به، وليس له من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

٢٨- أنه ﷺ ما هو إلا نذير بيِّن، ينذر ويحذر من عذاب الله، وفي طي ذلك بلا شك تبليغ التكاليف؛ ليترتب على ذلك الإنذار لمن خالفها، والبشارة لمن امتثلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قُلۡ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ ﴾، أي: أخبروني، والاستفهام للتقرير والتوبيخ.

﴿إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، أي: إن كان هذا القرآن منزلًا من عند الله تعالى وكلامه.

﴿وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾، أي: كذبتم به وجحدتموه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾: معطوف على «كان»، أي: وشهد شاهد من علماء بني إسرائيل على مثل القرآن، تصديقًا له ولما جاء به؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء:١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد:٤٣].

ومعنى ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾، أي: على مثل القرآن؛ كالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، فهي مثل القرآن في كونها منزلة من عند الله تعالى، ودعت إلى ما دعا إليه من توحيد الله ونبذ الشرك، وأخبرت بمثل ما أخبر به من البعث والحساب والجزاء، وشهدت بصدقه وصحته، وبشرت به.

﴿فَـَٔامَنَ﴾ هذا الذي شهد من بني إسرائيل، على مثل القرآن، أي: آمن بالقرآن؛ لمعرفته بصحته وصدقه؛ كما آمن بكتابه قبل ذلك؛ لعلمه أن كتب الله أولها يبشر بآخرها، ويشهد بصدقه، وآخرها مصداق ما أخبر به أولها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣﴾ [القصص:٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ ﴾ [الآية:١٧]، والشاهد: القرآن.

فهذه الآيات كلها تدل على إيمان أهل الكتاب بالقرآن، وشهادتهم بصدقه، خصوصًا من وفَّقه الله منهم للحق.

وليس المراد بالشاهد في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ شخصًا معينًا، لا عبدالله بن سلام، ولا غيره، بل كل من وفقه الله منهم لقول الحق شهد بذلك.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجمع من التابعين: أنها نزلت في عبد الله بن سلام(١).

والصحيح: أن سورة الأحقاف كلها مكية، وعبدالله بن سلام إنما أسلم في المدينة.

وأما حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام، قال وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾»(٢).

فقد قال ابن حجر(٣): «إن ذكر النزول مُدرَج من بعض الرواة»؛ يعني: نزول قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾».

﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ الخطاب لمشركي قريش، أي: واستكبرتم أنتم عن الإيمان بالقرآن واتباعه، وكذبتم وكفرتم به، فكان هذا الشاهد من بني إسرائيل أسعد منكم آمن بكتابه وآمن بكتابكم ولم يذكر مفعولي: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ تهويلًا له؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب، والتقدير: أرأيتم حالكم إن كان من عند الله وكفرتم به، أي: ألستم ظالمين ضالين؟ كما قال في سورة فصلت: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾﴾ [فصلت:٥٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: تعليل لما قبله، أي: لا يهديهم للإيمان بالقرآن واتباعه، بسبب ظلمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

(١) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ١٢٦- ١٣١.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، مناقب عبدالله بن سلام ٣٨١٢، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل عبدالله بن سلام ٢٤٨٣.

(٣) «فتح الباري» ٧/ ١٦٢.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: إن الله لا يهديكم، بل قال: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، وبيان أنه سبب عدم هدايتهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ إعجابًا منهم بأنفسهم وغرورًا.

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾، أي: لو كان القرآن وما دعا إليه خيرًا.

﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ يعنون: الذين بادروا إلى الإسلام من الضعفاء؛ كبلال وعمار وصهيب وخباب وأمثالهم من الضعفاء والمماليك، أي: ما سبقنا هؤلاء إلى الإسلام اغترارًا منهم بأنفسهم وتزكية لها، واحتقارًا لمن بادر إلى الإسلام من الضعفاء؛ كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود:٢٧].

وما علموا أن إيمان هؤلاء إنما هو فتنة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: وإذا لم يهتدِ هؤلاء الكفار المكذبون بالقرآن، وفاتهم هذا الفضل العظيم.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ كبرًا منهم، واستمرارًا على كفرهم وتكذيبهم، وانتقاصًا للقرآن: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، أي: هذا القرآن كذب قديم، أي: مأثور عن الأقدمين.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان:٥].

وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ خلاف قول المؤمنين الصادقين المستمسكين بهدي النبي ﷺ وأصحابه: أن كل ما لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه من قول أو فعل

فهو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾، أي: ومن قبل القرآن الكريم، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، «التوراة» أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

﴿إِمَامًا﴾، أي: قدوة يقتدي به بنو إسرائيل، ويأتمُّون به، ويعملون بما فيه من الأحكام والشرائع قبل نسخه بالقرآن.

وقوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، ولم يقل: التوراة؛ للتذكير بأنه أُنزل على بشر؛ كما أنزل القرآن على محمد ﷺ.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾، أي: وهذا القرآن كتاب عظيم، ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لما قبله من الكتب، أي: مخبر وشاهد بصدقها، بإخباره بنزولها من عند الله، وموافقته لها، وبكونه مصداق ما أخبرت وبَشَّرت به.

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: حال كونه لسانًا عربيًّا، أي: بلغة العرب، فصيحًا واضحًا لتيسير ذكره وفهمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب بالخطاب: ﴿لتنذر﴾، وقرأ الباقون بالغيب: ﴿لينذر﴾. واللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر، أي: يحذر ويخوف الذين ظلموا بالشرك والكفر والفسق والمعاصي من عذاب الله.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾: معطوف على «ينذر»، أي: وليكون بشرى للمحسنين، وهم المؤمنون الذين جمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى، بالإيمان به، والإخلاص له، واتباع شرعه، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، أي: بشرى لهم بالسعادة في الدنيا والآخرة، وبالجنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، أي: أقروا بألسنتهم بربوبية الله وألوهيته، واعترفوا بذلك بقلوبهم، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على ذلك بعبادته عز وجل وحده بالعمل بجوارحهم؛ فعلًا للمأمورات، وتركًا للمحظورات، مدة حياتهم.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ﴾، أي: أولئك أهل الجنة الملازمون لها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين ومقيمين فيها إقامة أبدية؛ لا تحول، ولا تزول.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، «جزاء»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: يُجْزَوْن جزاءً، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم، من الإيمان بالله والاستقامة على دينه.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك» تنويهًا بهم، ورفعة لشأنهم.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾:

لما ذكر في الآية السابقة التوحيد، وإخلاص العبادة لله، والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين؛ لأن حقهما أعظم الحقوق بعد حق الله تعالى؛ ولهذا قرن الله تعالى بين حقه وحقهما في آيات عدة في القرآن الكريم.

قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾؛ قرأ حمزة وعاصم والكسائي: ﴿إِحْسَانًا﴾ بزيادة همزة مكسورة قبل الحاء، وإسكان الحاء، وفتح السين، وألف بعدها.

وقرأ الباقون: ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء، وإسكان السين، من غير همزة ولا ألف.

أي: أمرنا الإنسان وأوجبنا عليه أن يحسن بوالديه إحسانًا، ببرهما والحنو والعطف عليهما، وخدمتهما، وطاعتهما، والقيام بحقوقهما.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾؛ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر ويعقوب: ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف في الموضعين.

وقرأ الباقون: ﴿كَرْهًا﴾ بفتحها في الموضعين.

أي: قاست أمه في حال حمله مشقة عظيمة وتعبًا شديدًا، من وحامٍ وغثيان، وثقل

وكُرَبٍ، إلى غير ذلك مما ينتاب الحامل من أنواع التعب والمشقة.

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، أي: وولدته كرها، أي: بمشقة عظيمة من كُرَب الطلق وشدته.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾؛ قرأ يعقوب بفتح الفاء، وإسكان الصاد من غير ألف: ﴿وفَصْله﴾، وقرأ الباقون بكسر الفاء، وفتح الصاد، وألف بعدها: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾، أي: ومدة حمله في بطن أمه، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾، أي: فطامه.

﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، تسعة أشهر- غالبًا- حمله، ورضاعه بقية الثلاثين، واحد وعشرون شهرًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى إذا بلغ اشتداد قوته البدنية والعقلية واستواءه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤].

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهي نهاية تكامل القوى غالبًا.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾، أي: ألهمني ووفقني.

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثانٍ لـ«أوزعني»، أي: أوزعني شكر نعمتك.

ونعمة: مفرد مضاف إلى معرفة فيعم جميع النعم، أي: رب ألهمني ووفقني شكر جميع نعمك، وذلك بالاعتراف بها لك، واستعمالها في طاعتك، والاستعانة بها على مرضاتك.

﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾؛ من جميع النعم الدينية والدنيوية، وكان من دعاء النبي ﷺ في التشهد: «**واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا**»(١).

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾؛ لأن النعمة على الوالدين نعمة على الأولاد.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ الواو: عاطفة، و«أن» والفعل «أعمل» في تأويل مصدر في محل نصب معطوف على المصدر السابق، أي: وأوزعني أن أعمل في المستقبل عملًا

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، التشهد ٩٦٩؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

صالحًا، خالصًا لوجهك، موافقًا لشرعك، ترضاه عني، وتقبله مني.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾؛ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته؛ لأنهم أحق من غيرهم، أي: اجعل ذريتي ذرية صالحة، مخلصة لك، متبعة لشرعك.

وفي قوله: «لي» إشارة إلى أن صلاح الذرية يعود بالنفع على والديهم.

﴿إِنِّي تُبْتُ﴾، أي: رجعت وأنبتُ إليك، ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين استسلموا لك بالتوحيد، وانقادوا لطاعتك، وأخلصوا لك من الشرك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بنون مفتوحة ﴿نَتَقَبَّلُ﴾، و﴿نَتَجَاوَزُ﴾، و﴿أَحْسَنَ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بياء مضمومة: ﴿يُتَقَبَّلُ﴾، و﴿يُتَجَاوَزُ﴾، و﴿أَحْسَنُ﴾ بالرفع.

أي: أولئك الموصوفون بما ذكر، التائبون إلى الله، المسلمون له ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: أحسن الذي عملوه، أو أحسن عملهم، أي: جميع الطاعات؛ لأنها أحسن الأعمال.

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، أي: نعفو عن سيئاتهم، فنغفر لهم الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل.

﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: في جملة أصحاب الجنة، أي: أهلها وساكنيها.

﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾، ﴿وَعْدَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف مؤكد لمضمون الجملة السابقة، أي: وعد الصدق والحق الثابت، الذي كانوا يوعدون به من ربهم، الذي لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ الآية.

أوصى عز وجل بالإحسان إلى الوالدين، وأثنى على البارين بوالديهم، الداعين لهم، ووعدهم بالقبول والعفو والجنة، ثم أتبع ذلك بذكر حال الأشقياء العاقين لوالديهم، وتوعدهم بالعذاب والخسران والنار.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِى ﴾: اسم موصول في محل رفع مبتدأ، والمراد به: الجنس، وخبره: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ﴾.

﴿قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ﴾ لما دَعَواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوَّفاه الحساب والجزاء: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾، «أف»: كلمة تضجر.

﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ قرأ هشام بإدغام النونين: ﴿أَتَعِدَانِّي﴾، وقرأ الباقون بالنونين: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ ﴾. وفتح نافع وأبو جعفر وابن كثير الياء. والاستفهام للإنكار.

﴿أَنْ أُخْرَجَ ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثانٍ لـ«تعدانني»، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن أخرج، أي: أتعدانني أن أخرج، أي: أن أبعث حيًّا من قبري يوم القيامة.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه قد خلت القرون، أي: قد مضت الأمم السابقة من قبلي على إنكار البعث، والتكذيب به، ولم يبعثوا.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾، أي: ووالداه يستغيثان الله، أي: يدعوان الله ويسألانه هداية ولدهما.

﴿وَيْلَكَ ﴾، أي: يقولان: ﴿وَيْلَكَ ﴾، وهي كلمة تهديد وتخويف وتحذير من الهلاك، وتوجُّع.

﴿ءَامِنْ ﴾، أي: آمِنْ بالله، وصَدِّق بما أخبر به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء؛ لتنجو من عذاب الله.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ الجملة: استئنافية، أو تعليلية، أي: إن وعد الله بلقائه والبعث والحساب والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ ﴾، أي: ثابت وصدق، وآتٍ لا مَحالة، وكائن ولا بد.

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ الذي تعدانني به وتقولانه، وتخوفانني به.

﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: حكايات الأولين وخرافاتهم التي سطروها في كتبهم من الأكاذيب، وتناقلوها بينهم، وليس من عند الله، ولا أوحاه إلى رسوله.

عن يوسف بن ماهك، قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر زيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها، فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾.

فقالت عائشة من وراء الحجاب: «ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري»(١).

والصحيح: أن الآية عامة في كل من قال هذا القول، وأنكر البعث وكذب به.

قال ابن كثير(٢): «وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبدالرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: أولئك العاقون لوالديهم، المنكرون للبعث والحساب والجزاء، المكذبون بوعد الله.

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: الذين وجب عليهم القول بالكفر والعذاب.

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، أي: في عداد وجملة أمم كافرة مضت من قبلهم من الجن والإنس على الكفر والتكذيب، فسيدخلون في غمارهم، ويُحشَرون في لوائهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم، وفاتهم النعيم وتبوأوا الجحيم، وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحقاف ٤٨٢٧.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٢٦٦.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾، أي: ولكل من المؤمنين بالله ووعده، والمكذبين به ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، أي: منازل في القيامة.

﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾، أي: من الذي عملوه، أو من عملهم، أي: بحسب أعمالهم، فالمؤمنون يتفاوتون في الدرجات في الجنات؛ كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٣]، والكافرون يتفاوتون في الدركات في النار.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم بالياء: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾، وقرأ الباقون بالنون «ولنوفيهم».

والواو في قوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن يوفيهم أعمالهم، أي: يعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا.

وأضيفت التوفية للأعمال، مع أن المراد: يوفيهم جزاء أعمالهم؛ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون، فلا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد في سيئاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: واذكر يوم يعرض الذين كفروا على النار، يوم القيامة.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ قرأ ابن كثير: ﴿أَأَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزتين على الاستفهام التوبيخي، وقرأ الباقون: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزة واحدة على أنه خبر مستعمل في التوبيخ، أي: يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ في الآخرة، وأضعتموها، واستعضتم عنها بالحقير.

﴿فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: بالركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها، والاغترار بنعيمها الزائل، وزينتها وزخارفها الفانية.

﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾، أي: بما فيها من الملذات والشهوات البهيمية، فكانت حظكم، وخسرتم طيبات الجنات في آخرتكم.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾: «عذاب الهون» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب المهين الذي يهينكم ويذلكم ويخزيكم.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية في الموضعين، أي: بسبب كونكم تستكبرون في الأرض، أي: تتعالَوْن وتأنفون من اتباع الحق، وتتعاظمون على الخلق. والسين والتاء للمبالغة.

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بحال من فاعل «تستكبرون»، والاستكبار لا يكون إلا بغير حق.

﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾، أي: وبسبب كونكم تفسقون، أي: تخرجون عن دين الله وطاعته بالكفر والشرك والمعاصي.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير أن القرآن الكريم من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ الآية.

٢- توبيخ المشركين المكذبين بالقرآن، الكافرين به، المستكبرين عن الإيمان به، وبيان ظلمهم وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾.

٣- شهادة علماء بني إسرائيل على صدق القرآن وعلى مثله من كتبهم كالتوراة والإنجيل، في كونها كلها منزلة من عند الله، وأنها حق وصدق، وإيمانهم به وبكتبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ﴾.

٤- حرمان الظالمين من هداية الله الخاصة وتوفيقه؛ بسبب ظلمهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥- قدح الكفار في خيرية القرآن، واغترارهم بأنفسهم، وتزكيتهم لها، واحتقارهم للمستضعفين من المؤمنين، ونقمتهم عليهم، وحسدهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾.

٦- جرأتهم على وصف القرآن - لما لم يهتدوا به؛ بسبب كفرهم واستكبارهم وظلمهم- بقولهم: هذا إفك قديم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

٧- أن الهداية بيد الله تعالى؛ يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وأن أقرب الناس إلى الهداية واتباع الحق الضعفاء والمساكين، وأبعدهم من ذلك ذوو الجاه والغنى؛ حكمة بالغة.

٨- أن أكثر الناس أعداء لما جهلوا، ولما لم يحصلوا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

٩- إبطال تكذيبهم بالقرآن، وإحالتهم أن يوحي الله إلى النبي ﷺ بالاستدلال بوحيه عز وجل إلى موسى بكتابه التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.

١٠- عظم منزلة كتاب موسى «التوراة» بين كتب الله؛ لأنه أعظمها بعد القرآن الكريم؛ لامتداحه عز وجل له بقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، أي: إمامًا لبني إسرائيل يقتدون به، ورحمة لهم، وذلك قبل نسخه بالقرآن الكريم.

١١- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وفضله.

١٢- تعظيم الله عز وجل للقرآن الكريم، والتنويه بكونه مصدقًا لما قبله من الكتب، وبلغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾.

١٣- أن الله عز وجل أنزل هذا القرآن العظيم؛ لإنذار الظالمين، والبشارة للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤- فضيلة الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا على طاعته، وعظم ما أعد الله لهم من النعيم، من انتفاء الخوف والحزن عنهم، وتخليدهم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾.

١٦- لا بد من الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ كما قال ﷺ: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**»(١).

١٧- أن النعيم لا يتم إلا بزوال المرهوب من الخوف والحزن ونحو ذلك.

١٨- إثبات وجود الجنة، وأن نعيمها لا ينقطع، وأهلها مخلدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

١٩- أن الجزاء من جنس العمل، وأنه بسبب العمل، وليس عوضًا عنه؛ كما يقول المعتزلة؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾.

٢٠- تعظيم الله عز وجل لحق الوالدين، ووصيته الإنسان بالإحسان بوالديه، وتذكيره بما لاقته أمه من مشقة الحمل والولادة، والإرضاع والتربية، والحضانة والفطام طيلة ثلاثين شهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾.

٢١- عظم ما تلاقيه الأم من المشقة والتعب خلال حملها، وعند وضعها، وخلال تربيتها لمولودها، وإرضاعه وحضانته، وخدمته حتى فطامه؛ ولهذا لما سأل رجل النبي ﷺ: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال في الرابعة: «**ثم أبوك**»(٢).

وجاء جاهمة السلمي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئتك أستشيرك، فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم. قال: فالزمها، فإن الجنة تحت

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢؛ من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٤٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رجليها»(١).

فجزى الله عنا أمهاتنا خير الجزاء، وأجزل لهن الأجر والمثوبة، ورزقنا البر بهن وبآبائنا أحياءً وأمواتًا.

٢٢- أخذ أهل العلم من قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، مع قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع- وهي سنتان- إذا أسقطت من الثلاثين شهرًا بقي ستة أشهر هي مدة الحمل.

٢٣- الإرشاد للإنسان إذا بلغ أشده، واكتملت قواه البدنية والعقلية، وبلغ أربعين سنة أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله تعالى، والإسلام له، ويسأل الله أن يلهمه ويوفقه لشكر نعمته عليه وعلى والديه، وأن يوفقه ليعمل صالحًا يرضاه الله، ويصلح له ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٤- أن بلوغ الأَشُد واكتمال القوى البدنية والعقلية ببلوغ أربعين سنة غالبًا.

٢٥- في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الآية، رد على القدرية الذين ينفون قدرة الله على أفعال العبد، وأنها ليست مخلوقة لله.

٢٦- أن النعمة على الوالدين نعمة على الأولاد؛ لأنه سينال الأولاد- غالبًا- من آثار نعمة الله على والديهم، دينية أو دنيوية.

٢٧- أن من أهم ما ينبغي للمسلم أن يسأله ربه أن يوفقه لشكر نعمته، وللعمل الصالح الذي يرضاه سبحانه، وأن يصلح له ذريته؛ لأن في صلاحهم منفعةً له ولهم.

٢٨- لا بد من كون العمل صالحًا: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، مرادًا به رضا الله.

٢٩- أن الدعاء للذرية بالصلاح أولى من غيرهم، وقد قال الله تعالى للنبي ﷺ:

(١) أخرجه النسائي في الجهاد ٣١٠٤، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨١؛ من حديث جاهمة بن معاوية السلمي، عن أبيه جاهمة رضي الله عنه.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤]، وقال ﷺ: «**ابدأ بمن تعول**»(١).

٣٠- أن لدعاء الوالدين بالصلاح لذريتهما أعظمَ الأثر في صلاحهم، ويعود بالنفع على والديهم، بل هو من أعظم النعم التي يسعد بها الوالدان في دنياهما وأخراهما؛ لهذا ندب لهما الدعاء لهم.

٣١- التنويه بشأن المتضرعين إلى ربهم أن يوفقهم لشكر نعمته، ولعمل صالح يرضاه، ويصلح ذرياتهم، التائبين إليه، المسلمين له، ووعده عز وجل لهم بقبول أعمالهم، والتجاوز عن سيئاتهم، في جملة أهل الجنة، وتأكيد صدق وعده لهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٣٢- أن وعد الله تعالى هو وعد الصدق الذي لا خُلف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، [الرعد:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة:١١١].

٣٣- ذم المنكر للبعث المتأفف من دعوة والديه له للإيمان بذلك، مع حرصهما على هدايته، واستغاثتهما اللهَ أن يهديه، وتحذيرهما إياه، وشدة عناده وتكذيبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

٣٤- حرص الوالدَينِ الموفَّقَينِ على صلاح أولادهما، ودعوتهما إياهم إلى الإيمان والاهتداء، وتلك- والله- مسؤولية عظيمة واجبة عليهما.

٣٥- ذم عقوق الوالدين والتأفف منهما، وعدم طاعتهما في طاعة الله ورسوله.

٣٦- لا ينبغي الاغترار بكثرة الهالكين من المكذبين، فليسوا بقدوة مهما كثروا،

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٨، ومسلم في الزكاة ١٠٣٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤؛ من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

فبعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون، وواحد إلى الجنة؛ كما جاء في الحديث[(١)].

وقد قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»[(٢)].

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إنْ أَمْرٌ عَنَا[(٣)]

٣٧- جرأة المكذبين بالبعث على وصف الوعد بذلك، والتخويف به بالأساطير المكذوبة؛ لقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

٣٨- الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، للمنكرين للبعث المكذبين به، بالعذاب والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾.

٣٩- إثبات القدر السابق، وأن من كتب الله عليه الضلال والشقاء فلا سبيل إلى هدايته، فعلى الوالدين دعوة أولادهما إلى الإيمان وسلوك الطريق المستقيم، وبذل الجهد في ذلك ما استطاعا، والإلحاح على الله في الدعاء، وسؤال الهداية لهم.

فإن لم يستجيبوا فليعلم الوالدان أن الهداية بيد الله، فلا تذهب نفساهما حسراتٍ عليهم، فإن نوحًا عليه السلام لم يستطع هداية ابنه، وإبراهيم عليه السلام لم يستطع هداية أبيه، ومحمد ﷺ لم يستطع هداية عمه. وقد قال الله عز وجل له: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء:٣].

٤٠- أن لكل من المؤمنين بالله ووعده ووعيده، والمكذبين بذلك منازلَ يوم القيامة، فالمؤمنون تتفاوت درجاتهم في جنات النعيم، والمكذبون تتفاوت منازلهم في دركات الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البيت لابن دريد من مقصورته. انظر: «ديوانه» ص١٣٢، «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص٧٤.

٤١- إعطاء كل عامل جزاء عمله وافيًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٤٢- كمال عدل الله عز وجل في مجازاة الخلائق، فلا يُظلم أحد منهم بنقص من الحسنات، أو بزيادة في السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٤٣- جمع القرآن بين ذكر حال المؤمنين السعداء، وحال الكافرين الأشقياء، والوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين؛ ترغيبًا وترهيبًا.

٤٤- عرض الكفار يوم القيامة على النار، وتقريعهم وتوبيخهم على إذهاب طيباتهم في حياتهم الدنيا بركونهم إلى الاستمتاع بملذاتها وشهواتها الفانية، ونسيان العمل للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

٤٥- إثبات القيامة، ووجود النار، وعرض الكفار عليها ذلك اليوم.

٤٦- أن الدنيا والآخرة ضَرَّتان، فمن مال إلى إحداهما أضر بالأخرى، والواجب أن يعمل الإنسان للآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

٤٧- التحذير من الاغترار بالدنيا وزينتها ومتاعها، وتحقيرها، فهي ظل حائل، ومتاع زائل.

٤٨- مجازاة الكفار ذلك اليومَ بالعذاب المهين، الذي يهينهم ويذلهم ويخزيهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وعلى الخلق، وبسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

٤٩- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق، وأنه إنما يكون بغير الحق، والحذر من الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾:

قوله: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: واذكر يا محمد بنفسك ولقومك ﴿أَخَا عَادٍ﴾، وهو نبي الله تعالى وعبده هود عليه السلام.

﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾، أي: حين حذَّر وخوف قومه عادًا عذاب الله تعالى. ومن لازم ذلك بلا شك أن يكون بلغهم وأمرهم ونهاهم، ثم أنذرهم وحذرهم من مخالفة أمر الله وارتكاب نهيه.

﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾، «الأحقاف»: جمع «حِقْف»، وهو الرمل العظيم الرفيع المستطيل. وكانت منازلهم بالأحقاف، وهي رمال عظيمة في أرض اليمن جنوب الجزيرة.

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾، أي: مضت الرسل والأنبياء.

﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾، أي: قريبًا منه في الزمن؛ كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ:٤٦]، أي: قبل العذاب قريبًا منه.

﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾، أي: بعيدًا منه في الزمن؛ ولهذا قال هود عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف:٦٩].

وأيضًا: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ فيما حول بلادهم من القرى، فلم يكن هود عليه السلام بدعًا من الرسل، ولم تكن بلادهم أول بلاد يُرسَل إليها النُّذُر؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [فصلت:١٣، ١٤].

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: قائلًا لهم: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾: تعليل للنهي قبله، أي: لأني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة؛ بسبب شرككم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أجئتنا لأجل أن تصدنا وتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ أي: لنترك عبادة آلهتنا؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود:٥٣].

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: فأتنا بالذي تعدنا به من العذاب العظيم، أي: عجله لنا، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوتك إيانا، وفيما تتوعدنا به من العذاب في الدنيا والآخرة، فاستعجلوا عذاب الله وعقوبته؛ جهلًا منهم وعنادًا، واستبعادًا لذلك، وتكذيبًا به؛ كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ [الشورى:١٨].

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: علم وقت إتيان العذاب، وعلم الساعة، وعلم المغيبات كلها عند الله وحده، لا يعلم ذلك كله أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبي

مرسل، والحصر حقيقي؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ [الأعراف:١٨٧].

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾، أي: وأوصل إليكم الذي أرسلت به إليكم من عند الله، أي: هذا شأني، والذي أقدر عليه؛ كما قال في سورة الأعراف للملأ من قومه لما رَمَوْه بالسفاهة قال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)﴾ [الأعراف:٦٧، ٦٨].

وكما قال نوح عليه السلام قبله لقومه لَمّا رموه بالضلال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)﴾ [الأعراف:٦١، ٦٢]، وكما قال تعالى عن الرسل عمومًا: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٣٩].

﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، أي: تجهلون عظمة الله تعالى، واستحقاقه وحده للعبادة، وحكمته في إرسال الرسل، وصدق وعده، وشدة عذابه؛ ولهذا استعجلتم العذاب؛ كما قال بعض مشركي قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢].

وكان الأولى أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾، أي: فلما رأوا العذاب الذي تُوعِّدوا به ﴿عَارِضًا﴾: حال، و«العارض»: هو السحاب العظيم الذي يعترض في أفق السماء كالجبال.

﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾، «مستقبل»: صفة لـ«عارضًا»، أو حال ثانية، أي: مقبلًا على أوديتهم، والسين والتاء: للمبالغة.

﴿قَالُوا﴾ فرحين مستبشرين: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، أي: هذا سحاب سيمطرنا.

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾، أي: قال الله لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾، «بل»: للإضراب، أي: بل هو الذي استعجلتم به من العذاب بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ

مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ريح صرصر شديدة البرودة، عاتية شديدة الهبوب، فيها عذاب شديد مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة:٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت:١٦].

وهي «الريح العقيم»؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات:٤١، ٤٢].

وهي «الدبور»؛ كما قال ﷺ: «**نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهْلِكتْ عادٌ بالدَّبور**»[1]، وهي الريح الغربية.

﴿تُدَمِّرُ﴾ التدمير: الإهلاك والتخريب والإفساد.

﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ أُمِرت بتدميره من الديار والنبات والإنسان والحيوان وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات:٤٢]، أي: لا تذر من شيء أُمرت بتدميره.

﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الكوني، وإذنه ومشيئته.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾؛ قرأ يعقوب وعاصم وحمزة وخلف: ﴿يُرَىٰٓ﴾ بياء مضمومة على الغيب، و﴿مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ بالرفع، وقرأ الباقون بالتاء وفتحها على الخطاب: ﴿تَرَى﴾، ونصب ﴿مَسَاكِنَهُمْ﴾.

أي: فصاروا لا تشاهِدُ إلا مساكنهم، قد بادوا عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٨].

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء الشديد، والعقاب الأليم، الذي جازينا به عادًا بسبب إجرامهم.

﴿نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: نجزي ونعاقب أمثالهم من المجرمين. وفي هذا تهديد لمشركي قريش، وتحذير لهم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به**». قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم هود: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾**»(١).

وفي رواية عنها رضي الله عنها، قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيمًا- أو ريحًا- عُرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله، أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عَرَفتُ في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال: «**يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾**»(٢).

وعنها؛ أن رسول الله ﷺ: كان إذا رأى ناشئًا في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه**». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «**اللهم اجعله صيِّبًا نافعًا**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم

---

(١) أخرجه مسلم في الاستسقاء، التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر ٨٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحقاف ٤٨٢٩، ومسلم ٨٩٩، وأحمد ٦/ ٦٦.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٩٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٩، وأحمد ٦/ ١٩٠.

مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، «مكناهم»: جواب القسم المقدر.

أي: ولقد مكنا عادًا والأمم السابقة الذين أهلكناهم، أي: أعطيناهم القوة والقدرة، وبسطنا لهم في الأموال والأولاد.

﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾، «ما»: موصولة، و«إن»: نافية، أي: في الذي لم نمكنكم فيه، والخطاب لمشركي قريش؛ ليعلموا أن الذي قدر على إهلاك عاد مع قوتهم وشدتهم، قادر على إهلاكهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام:٦].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾، أي: خلقنا لهم كامل الحواس والقوى العقلية والفكرية؛ من السمع والأبصار والعقول؛ كما جعلنا لكم ذلك.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: فما نفعهم، ولا دفع عنهم عذاب الله.

﴿سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾، أي: من أيِّ شيء، لا قليل ولا كثير.

﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين كانوا يكذبون بآيات الله، ودلائل قدرته الدالة على وحدانيته، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: وأحاط ونزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون ويكذبون، ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المشركون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الخطاب لمشركي قريش، و«ما»: موصولة، أي: ولقد أهلكنا الذي حولكم من القرى، أي: أهلكنا أهلها بسبب تكذيبهم رسلهم، كعاد، وكانت مساكنهم في الأحقاف في اليمن جنوب الجزيرة، وثمود وكانت مساكنهم

في شمال الجزيرة، بين الحجاز والشام، وكذا سبأ في اليمن.

﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾، أي: نوعناها وبيناها ووضحناها، وكررناها لهم، تارة بالحجج والمجادلة والنظر، وتارة بالتذكير بالنعم، وتارة بالوعد والوعيد، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب والضلال.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ الفاء: عاطفة، و«لولا»: للتوبيخ، أي: فهلا نصرهم الآلهة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذين جعلوا غير الله ﴿قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ يتقربون بهم إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل غابوا عنهم وذهبوا أحوج ما كانوا إليهم، فلم ينصروهم.

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾، أي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: والذي كانوا يفترونه، أو- وافتراؤهم، أي: وما كانوا يكذبون في زعمهم أن هؤلاء الآلهة يُقرِّبونهم إلى الله.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وإنذاره إياهم، وأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتحذيرهم من عذاب يوم القيامة، ومحاجتهم وتكذيبهم له وإهلاكهم؛ تسلية للنبي ﷺ، وتحذيرًا للمكذبين له من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه عاد، وإنذاره لهم، وأنه أخوهم، أي: منهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء:١٢٣، ١٢٤].

٣- أن منازلهم كانت بالأحقاف، وهي رمال ممتدة في اليمن جنوب الجزيرة.

٤- أن النذر قد مضت قبل هود من بين يديه ومن خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ

ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ ﴾.

٥- نهيه قومه عن عبادة غير الله، وتخويفهم العذاب؛ لقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

٦- عظم يوم القيامة وشدته، وشدة عذابه وأهواله.

٧- محاجتهم ومجادلتهم بالباطل، وتمسكهم بآلهتهم، واستعجالهم بما توعدهم به من العذاب؛ إنكارًا له، وتكذيبًا لهود عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

٨- أن العلم بإتيان العذاب في الدنيا والآخرة، وإتيان الساعة؛ من خصائص الله عز وجل، لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٩- أن مهمة الرسل عليهم السلام هي إبلاغ رسالات ربهم، وليس إليهم الإتيان بالعذاب، ولا يعلمون متى يكون؛ لقول هود عليه السلام: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾.

١٠- جهل عاد؛ حيث أبوا إلا الشرك بالله، واستعجلوا العذاب، وكذبوا رسولهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾.

١١- أن الجهل داء قاتل، يورد أهله موارد البوار والخسار، وقد أحسن القائل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه[١]

١٢- ظنهم أن العذاب- لما رأوه مقبلًا على أوديتهم- عارض ممطرهم استبشارًا به؛ غرورًا منهم، وأمنًا من عقاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾.

١٣- تبكيتهم وتقريعهم بأن هذا العارض هو ما استعجلوا به من العذاب، وهي ريح فيها عذاب مؤلم لهم، تدمر كل شيء أمرها الله بتدميره، وتسخيرها عليهم، واستئصالهم عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ ﴾.

---

(١) البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحلاج. انظر: «الإعجاز والإيجاز» ص١٦١.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهَا﴾.

١٥- أن ما أوقعه الله بهم من العذاب إنما هو بسبب إجرامهم، وفي هذا تحذير من الإجرام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

١٦- أن عادًا- مع ما أعطاهم الله من التمكين والقوة، واكتمال الحواس والقوى العقلية- لم ينفعهم ذلك شيئًا، ولم يدفع عنهم عذاب الله، لمّا جحدوا آيات الله، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون ويكذبون.

وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ، وهم أقل من عاد قوة، وأضعف أسماعًا وأبصارًا وأفئدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٧- تذكير المشركين بإهلاك ما حولهم من القرى، وتصريف الآيات وتنويعها لأولئك المهلَكِين ليرجعوا، وتحذير المشركين أن يصيبهم مثل ما أصابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١٨- أن الله لا يهلك قومًا حتى يُعذِرَ إليهم، ويقيم الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

١٩- تخلي آلهة المشركين عن نصرتهم، وغيابهم عنهم أحوج ما كانوا إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾.

٢٠- بطلان زعمهم- إفكًا وكذبًا وافتراءً- أن هذه الآلهة تشفع لهم، وتقربهم إلى الله زلفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾:

ذكر عز وجل هودًا عليه السلام وإنذاره لقومه، وتكذيبهم له، وإهلاكهم؛ موعظة للمشركين، وتهديدًا وتحذيرًا لهم، ثم ذكر صرف الجن إليه ﷺ، واستماعهم إلى قراءته، وإيمانهم، ورجوعهم إلى قومهم دعاة منذرين؛ موعظة للمشركين، وتوبيخًا لهم، وترغيبًا لهم بالإيمان.

قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾، أي: واذكر حين صرفنا إليك نفرًا من الجن، أي: بعثناهم ووجهناهم إليك، والنفر: الجماعة والعدد من عشرة فما دونها. قيل: وكان عددهم تسعة.

﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، أي: يستمعون قراءتك القرآن.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾، أي: فلما حضروا قراءتك القرآن.

﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُواْۖ﴾، أي: أصغوا واستمعوا للقرآن؛ استجابة لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾، أي: فُرغ من قراءته، ووَعَوْه وآمنوا به؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن:١-٢].

﴿وَلَّوْاْ﴾، أي: انصرفوا ورجعوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، أي: محذِّرين لهم ومخوفينهم عذاب الله وعقابه.

عن علقمة، قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، لكنا فقدناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح- أو قال في السحر- إذا نحن به يجيء من قبل حِراء، فقلنا: يا رسول الله- فذكروا له الذي كانوا فيه- فقال: «**إنه أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم**». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم.

وفي رواية: «**أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن**»، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «**كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم**». قال رسول الله: «**فلا تستنجوا بهما؛ فإنهما طعام إخوانكم**»[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن، ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسِلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة الجن.

الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، واستمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم: «قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا»، وأنزل على نبيه ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ [الجن:١]، وإنما أوحي إليه قول الجن»[١].

قال ابن كثير[٢] بعد أن ذكر الروايات في صرف الجن إليه ﷺ، وقراءته عليهم، ومنها الرواية عن ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما؛ قال: «فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدًا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عز وجل، وشرع لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود».

﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾، أي: قائلين: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ﴾؛ يعنون: القرآن الكريم، ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، أي: من بعد موسى وكتابه الذي أنزل عليه، وهو التوراة، ولم يذكروا عيسى عليه السلام؛ لأن رسالة عيسى وكتابه الإنجيل، متممان لرسالة موسى عليه السلام وكتابه التوراة.

وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه، أول أمره قال: «هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى»[٣].

ولما سمع النجاشي القرآن قال: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»[٤].

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة الجن.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٢٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥٢٥.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، «مصدقًا»: حال من «كتابًا»، أي: مصدقًا لما سبقه من كتب الله تعالى، شاهدًا بصدقها وصحتها، ومصداق ما أخبرت وبشرت به من نزوله على النبي ﷺ، ومصدقًا لما دعت إليه من عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك، وغير ذلك؛ لموافقته لها بذلك.

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، أي: يدل ويرشد إلى الحق في الاعتقاد، بالتصديق والإيمان بالقلب.

﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: عدل لا اعوجاج فيه في العمل، بكونه خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، وهو صراط الله وطريق السائرين إليه، الموصل إلى مرضاته وجناته؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، فالهدى: العلم النافع، ودين الحق: العمل الصالح.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ لما امتدحوا القرآن، وبيَّنوا عظمته، دعوا قومهم إلى الاستجابة له بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والإيمان به.

ويحتمل أن يكون المراد بـ«داعي الله»: الرسول ﷺ، فهو داعي الله إلى العمل بالقرآن.

وفي هذا دلالة على أن الله عز وجل أرسل محمدًا ﷺ إلى الثَّقلَين: الإنس والجن؛ حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليمهم، ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: ويقكم من عذاب مؤلم موجع شديد، وهو عذاب النار.

وإذا غفر الله لهم ذنوبهم، وأجارهم من العذاب الأليم، فما ثم إلا إدخالهم جنات النعيم؛ لأنه ما ثمة بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزمر:٧١-٧٢]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر:٧٣].

قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعريَ بعد الموت ما الدارُ؟

الدار جنة عَدْن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرَّطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار[1]

﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾: بعد أن رَغَّبوا من أجاب داعي الله من قومهم بمغفرة الله له، ووقايته من عذاب أليم، أتبعوا ذلك بترهيب من لم يجب داعي الله منهم، فجمعوا لهم بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، أي: بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: فليس بفائت من عذاب الله بالهرب في الأرض؛ لكمال قدرة الله تعالى، فلا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب.

﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: وليس له غير الله ﴿أَوۡلِيَآءُۚ﴾، أي: أنصار ينصرونه، ويمنعون عنه عذاب الله، ويدفعونه أو يرفعونه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الإشارة لمن لم يجب داعي الله، وكفر بالله. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا.

﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، أي: بعيد كل البعد عن الهدى والحق.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٤١.

أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾:

خُتمت السورة بإثبات البعث والاحتجاج عليه في هذه الآيات؛ كما بُدئت بذلك في قوله تعالى في أولها: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف:٣].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أولم يعلم هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، أن الله الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهن على غير مثال سبق.

﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، أي: ولم يعجز ولم يكترث أو يتعب بخلقهن، بل قال لهما: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ﴾؛ قرأ يعقوب: ﴿يَقْدِرُ﴾، وقرأ الباقون: ﴿بِقَادِرٍ﴾، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، أي: بقادر على إحياء الموتى.

أي: أن الذي قدر على خلق السموات والأرض ولم يعجز ولم يكترث بذلك، فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، «يوم»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: يقال يوم يعرض الذين كفروا على النار: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ﴾؟ أو اذكر يوم يعرض الذين كفروا، أي: يوم القيامة، يوم يعرض الذين كفروا على النار.

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ﴾: الاستفهام: للتقرير والتوبيخ والتنديم؛ أي يقال لهم: أليس هذا الذي تشاهدونه وترونه عيانًا؛ من إحيائكم بعد موتكم، وعرضكم على النار، ﴿بِالْحَقِّ ۖ﴾، أي: هو الحق المبطل لقولكم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾

[الدخان:٣٥] ، وقولكم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾، [الصافات:٥٨، ٥٩]، وزعمكم أن ذلك سحر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾ [الطور:١٥].

وأظهَرَ في مقام الإضمار؛ لتسجيل الكفر عليهم، وأنه سبب عرضهم على النار، وقولِ هذه المقالة لهم.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾، «بلى»: حرف جواب، أي: بلى هذا هو الحق، فلم يَسَعْهم إلا الاعتراف بالحق، والإقرار بتكذيبهم.

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ الأمر للإهانة، أي: فأَحسُّوا بالعذاب وتَجرَّعوه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كفركم.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فاصبر على أذى قومك وعنادهم وتكذيبهم.

﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ الكاف: للتشبيه، أي: مثل صبر أولي العزم.

و﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾: ذوو الثبات والصبر، والتوكل على الله، وعدم التردد، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى:٤٣].

﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، «من»: تبعيضية، أي: من الرسل قبلك، وهم: إبراهيم وموسى ونوح وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وقد فاقهم ﷺ في ذلك، فكان- وهو خاتم الرسل- أول أولي العزم؛ كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب:٧]، فبدأ به ﷺ من بينهم.

ويحتمل أن تكون «من»: بيانية، فيكون قوله: ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ مرادًا به جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، أي: ولا تطلب منا تعجيل العذاب لهم، لطلبهم ذلك جهلًا منهم وحمقًا، أي: ولا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم؛ كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل:١١]، وقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾ [الطارق:١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾: تعليل للنهي السابق، أو استئناف بياني، و«ما» موصولة، أي: كأنهم يوم يشاهدون الذي يوعدون، أي: الذي تُوعِّدوا به من العذاب يوم القيامة.

﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: لم يمكثوا في الدنيا ويتنعموا فيها إلا ساعة واحدة قليلة من نهار، أي: يستقلون أعمارهم مهما طالت في حياتهم الدنيا؛ من عِظَم ما يشاهدون من العذاب الذي وُعِدوا به، وشدةِ الهول والكرب؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۝٤٦﴾ [النازعات:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب**» الحديث(١).

﴿بَلَاغٌ﴾، أي: هذا القرآن بلاغ، فيه تبليغ الناس رسالة ربهم، وموصل إلى مرضاته وجنته؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنبياء:١٠٦].

وأيضًا فإن لبث الخلائق في الدنيا كله بلاغ، أي: بُلْغة، وسرعان ما ينقضي.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الاستفهام: للنفي، و«إلا»: أداة حصر، أي: لا يهلك ويعذب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى بالكفر والشرك، وإنكار البعث وتكذيب وعد الله تعالى؛ لاستحقاقهم ذلك. وهذا من عدله عز وجل؛ فإنه لا يَهْلِك على الله إلا هالك.

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢١.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٢- إثبات وجود الجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

٣- إثبات شهود نفر منهم لقراءته ﷺ، واستماعهم لها، والتذكير بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٤- أن تدبير الجن وتصريفهم، بيد الله، وأعمالهم كغيرهم من الخلق مخلوقة لله وبمشيئته. وفي هذا رد على المعتزلة الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم.

٥- حسن أدب الجن مع القرآن لَمَّا شهدوا قراءته؛ لأمر بعضهم بعضًا بالإنصات له؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾.

٦- وعيُهم وفهمهم للقرآن لَمَّا سمعوه، ومبادرتهم بالإيمان به، والإنذار به، والدعوة إليه بعد فراغ قراءته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٧- أن الجن فيهم نُذُرٌ منهم، لكن ليس فيهم رسل؛ لأن الرسل كلهم من الإنس؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وأما قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما، وهم الإنس؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢]، أي: من أحدهما.

٨- تعظيمهم للقرآن، وتأثرهم به، وامتداحهم له، ولما اشتمل عليه من الهداية؛ لقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ

﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٩- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإنزال التوراة عليه، وإيمان الجن بذلك؛ لقولهم: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾.

١٠- إثبات أن القرآن منزل من عند الله، غير مخلوق، وكذا التوراة، وجميع كتب الله تعالى.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.

١٢- أن القرآن يهدي إلى الحق، وإلى التي هي أقوم في الاعتقاد والعمل؛ لقولهم: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٣- تلطفهم مع قومهم في دعوتهم إلى إجابة الرسول ﷺ، والعمل بالقرآن، والإيمان بالله؛ لقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾.

١٤- ترغيبهم قومَهم بقولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٥- أن من استجاب للرسول ﷺ، وعمل بالقرآن، وآمن بالله من الثقلين، غَفَر الله له ذنوبه، وأجاره من عذاب النار، وأدخله جنته؛ لأنه ليس في الآخرة من دار إلا الجنة أو النار، فمن زُحْزِح عن النار أُدخِلَ الجنة.

أما الاستدلال بهذه الآية على أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة، وإنما يجارون من عذاب النار يوم القيامة، فإنه ليس بصحيح؛ للأدلة الثابتة على دخولهم الجنة، وتنعيمهم؛ كما سيأتي.

١٦- تهديدهم ووعيدهم لمن لم يجب داعي الله بأنه لن يعجز الله هربًا في الأرض، وليس له من دونه أولياء، وهو في ضلال مبين؛ لقولهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

١٧- جمعهم في دعوتهم لقومهم بعد التلطف معهم بين الترغيب لهم والترهيب؛ ولهذا نجع ذلك في كثير من قومهم، فجاؤوا إلى النبي ﷺ وفودًا وفودًا.

١٨- أن الجن مكلَّفون بفعل المأمورات، وترك المنهيات، مجازَوْن على أعمالهم، مثابُون، أو معاقَبُون؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

﴿ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن:١، ٢]، وقال تعالى مخاطبًا الإنس والجن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن:٤٦، ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ [الرحمن:٥٦، ٥٧، ٧٤، ٧٥]؛ ولهذا قالت الجن: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»(١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ﴾ [الأعراف:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقد استدل ابن القيم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ على تكليف الجن من سبعة أوجه(٢).

١٩- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث والمعاد، وإحياء الأجساد؛ لقدرته التامة دون عجز أو تعب على خلق السموات والأرض التي من أعظم المخلوقات، وأكبر من خلق الناس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾.

٢٠- قدرته عز وجل التامة على كل شيء؛ لكمال قدرته، وتمام علمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢١- التذكير بعرض الذين كفروا على النار، وتقريرهم وتوبيخهم على تكذيبهم بالبعث والحساب والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾.

٢٢- إقرارهم واعترافهم بأن البعث والعرض على النار حق بعدما شاهدوا الأمر

(١) سيأتي تخريجه في سورة الرحمن.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٥٦.

عيانًا لا مجال لإنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾.

٢٤- تبكيتهم وتقريعهم وإهانتهم بأمرهم بذوق العذاب بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٢٥- تسليته عز وجل للنبي ﷺ، وتقوية قلبه بأمره بالصبر على أذى قومه وعنادهم؛ كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٢٦- التنويه بصبر أولي العزم من الرسل قبله، وهم: إبراهيم وموسى ونوح وعيسى عليهم السلام، أو جميع الرسل.

٢٧- نهيه عز وجل له ﷺ عن استعجال العذاب لهم؛ لطلبهم ذلك؛ جهلًا منهم وحُمقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

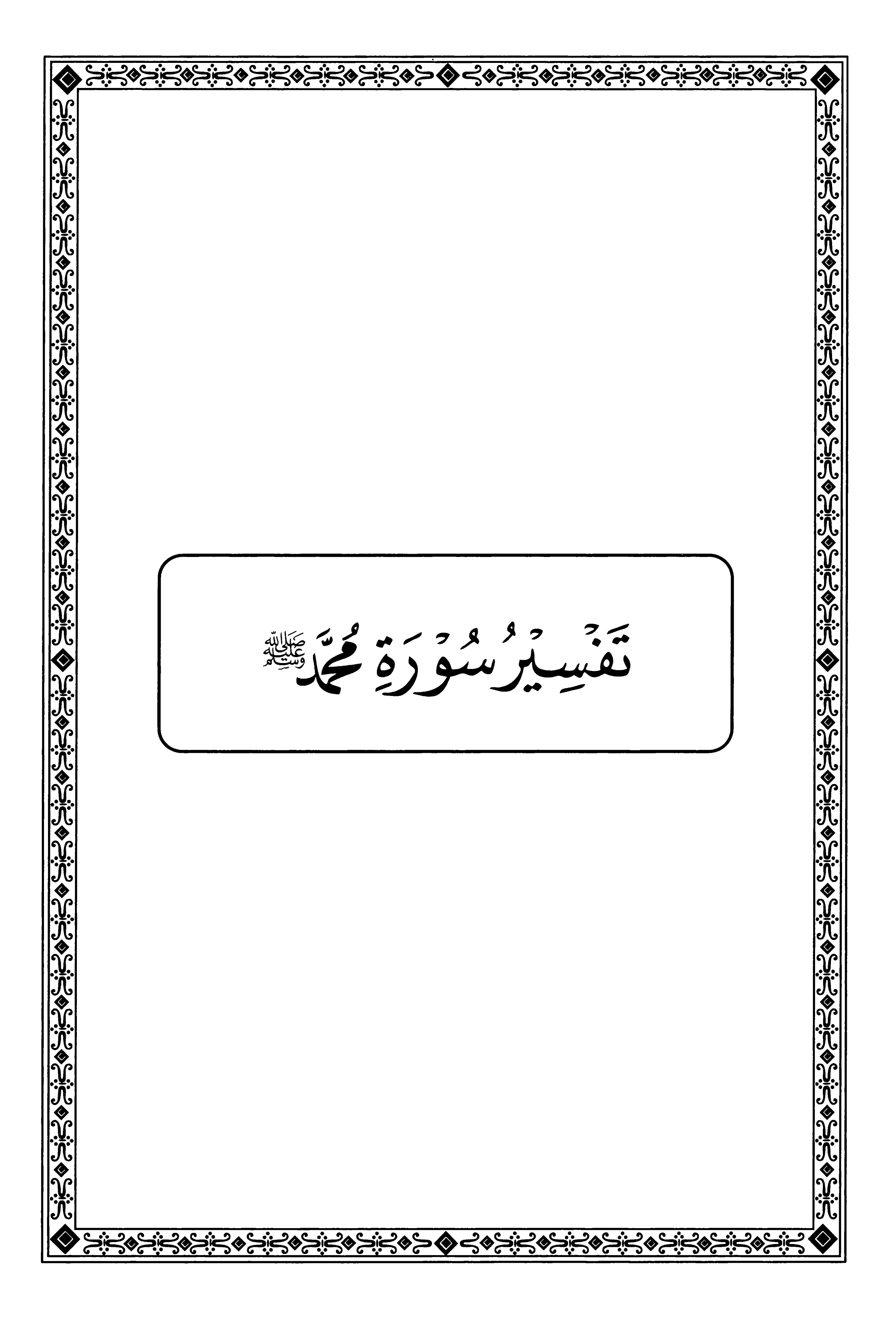
٢٨- استقلالهم مدة لبثهم وتنعمهم في الدنيا عند رؤيتهم ما يوعَدون من العذاب، من عظم الخطب، وشدة الهول والكرب؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

٢٩- أن القرآن بلاغ للناس، فيه إبلاغهم رسالة الله، وإيصالهم إلى مرضاته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾؛ كما أن الحياة الدنيا كلها بلاغ، أي: بُلْغة، وسرعان ما تنقضي.

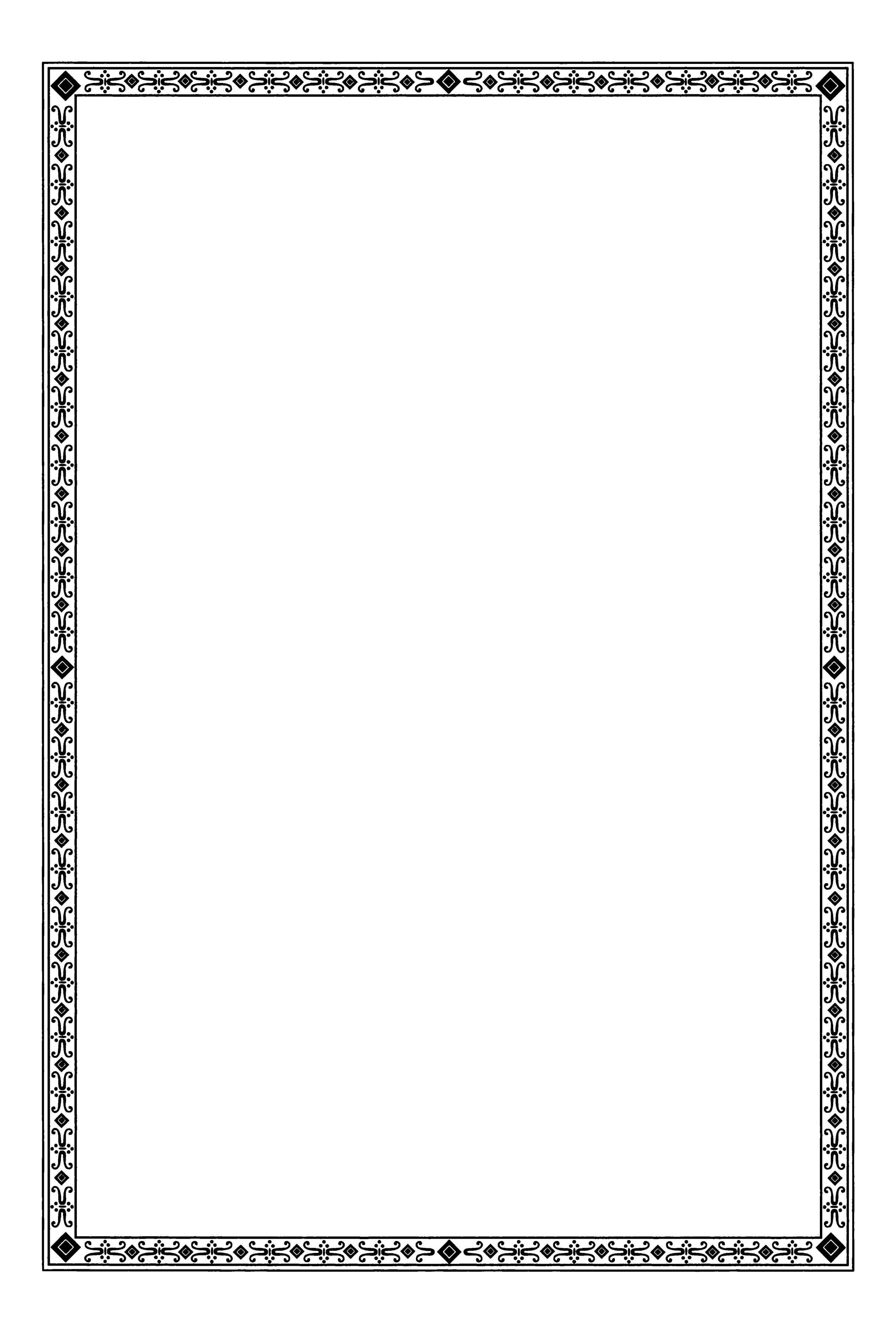
٣٠- أنه لا يهلك ولا يعذب إلا القوم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله تعالى بالكفر، وإنكار البعث، وتكذيب وعد الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٣١- التحذير من الفسق، وأنه سبب الهلاك والعذاب، وأنه لا يهلك على الله إلا هالك.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة محمد»؛ لقوله تعالى في الآية الثانية منها: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [الآية:٢].

وتسمى: «سورة القتال»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ [الآية:٢٠].

ويقال لها: «سورة الذين كفروا».

ب- مكان نزولها:

مدينة.

جـ - موضوعاتها:

١- بدئت السورة بذم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وبيان إضلاله أعمالهم، بسبب اتباعهم الباطل، والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم، بسبب اتباع الحق من ربهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾.

٢ - التهييج على قتال الكفار وضرب رقابهم وأسرهم، ووعد الله تعالى لمن قُتلوا في سبيل الله بهدايتهم وإصلاح بالهم وإدخالهم الجنة، ووعد المؤمنين بالنصر وتثبيت أقدامهم، ووعيد الذين كفروا بالشقاء وإضلال أعمالهم وإحباطها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

٣ - توبيخ المكذبين للنبي ﷺ كيف لم يتأملوا ويعتبروا بعاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد:١٠].

٤ - إثبات ولاية الله للمؤمنين، وإدخالهم الجنات، وبيان أن الكافرين لا مولى لهم ومصيرهم إلى النار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾﴾.

٥ - التهديد للمشركين بالهلاك كما أهلك كثير من القرى فلا ناصر لهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾﴾.

٦ - شتان بين من كان على بينة من ربه مآله إلى الجنة وما فيها من الأنهار والثمرات ومغفرة الرب العظيم، وبين من زين له سوء عمله واتبع هواه، ومصيره إلى الخلود في النار والحميم: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾﴾.

٨ - ذم الذين كفروا في عدم انتفاعهم من سماع القرآن ودعوة الرسول ﷺ ومعاقبتهم بالطبع على قلوبهم، واتباعهم أهواءهم، وتهديدهم بقرب قيام الساعة: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾﴾.

٩ - التنويه بشأن الذين اتقوا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾﴾.

١٠- وجوب العلم أنه لا إله بحق إلا الله عز وجل والاستغفار، وبيان أن العلم قبل القول والعمل: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾.

١١- تمنى بعض المؤمنين شرعية الجهاد واستعجالهم ذلك جهلاً منهم، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾﴾.

١٢- التحذير من قطيعة الأرحام، وأنها من أعظم الفساد في الأرض، والذم والوعيد لمن قطع رحمه: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

١٣- الوعيد للمعرضين عن تدبر القرآن والعمل به المرتدين على أدبارهم، وذمهم، وبيان سوء حالهم عند توفي الملائكة لهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

١٤- التهديد للمنافقين ومرضى القلوب بفضيحتهم: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

١٥- الوعيد للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

١٦- حث المؤمنين على طاعة الله والرسول، ونهيهم عن الوهن والمسالمة للأعداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

١٧- التزهيد في الدنيا وبيان حقارتها والترغيب في الإيمان والتقوى والإنفاق في سبيل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الذين كفروا بالله، وجحدوا ألوهيته، وكذبوا رسوله فيما جاء به.

أو علموا بصدقه ولم يتبعوه، قال ابن تيمية(١): «الكفر يكون بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه، مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم».

﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: انصرفوا بأنفسهم عن دين الله وصراطه المستقيم، وصرفوا غيرهم عنه من رؤساء الكفر وأئمة الضلال ونحوهم؛ كما في نهيهم عن سماع القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت:٢٦].

---

(١) في «درء تعارض العقل والنقل» ١/ ٢٤٢.

وفي إنفاقهم ليصدوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال:٣٦]، وغير ذلك.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أحبطها وأبطلها، سواء كانت من الأعمال السيئة التي يكيدون بها للرسول ﷺ ولدعوته وللمؤمنين، فخيَّب الله سعيهم ولم يحصلوا على مرادهم.

أو من الأعمال التي يعتقدون أنهم يثابون عليها، كالكرم والنجدة، وحفظ الجوار، وصلة الأرحام ونحو ذلك، فلم يؤجروا عليها؛ وذلك لفقدان شرط قبولها، وهو الإيمان.

كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة:٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدقوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرع الله تعالى بجوارحهم.

﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هذا من عطف الخاص على العام، أي: وآمنوا بالقرآن الذي أنزله الله على محمد، أي: آمنوا بما أنزل على رسل الله عمومًا، وبالذي أنزل على محمد خصوصًا؛ لأنه لا يصح الإيمان إلا بالإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن نوح إلى محمد سيدهم وخاتمهم؛ ولهذا فإن من كذَّب من أهل الكتاب وغيرهم برسالته ﷺ، وأنكرها أو زعم أنها خاصة بالعرب، فليس بمؤمن.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الجملة: حالية، أو اعتراضية، والضمير «هو» يعود إلى «ما» الموصولة في قوله: ﴿بِمَا نُزِّلَ﴾، أي: إلى الذي أنزل على محمد، وهو القرآن الكريم.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، أي: تجاوز ومحا عنهم سيئاتهم، أي: ذنوبهم وخطاياهم، صغارها وكبارها، فنجاهم من عذابه في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي: وأصلح شأنهم، وأمْر دينهم ودنياهم، فأسعدهم في دنياهم، وأنالهم أعظم السعادة والثواب في أخراهم بجنته ورضوانه.

ولهذا جاء في تشميت العاطس الدعاء له بقوله: «**يهديكم الله ويصلح بالكم**»[(١)].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للمفهوم مما سبق، وهو إضلاله عز وجل أعمال الكافرين الصادين عن سبيله، وتكفيره سيئات الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد، وإصلاحه بالهم.

﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل، وسلكوا طريقه بالكفر والصد عن سبيل الله.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، أي: وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، بالإيمان والعمل الصالح والإيمان بما أنزل على محمد.

وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: تنويه به، وتشريف لهم.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة لما تقدم من ذكر الكفار وأعمالهم وبطلانها، وذكر المؤمنين وأعمالهم وثوابها، أي: مثل هذا البيان يبين الله للناس وصف أهل الخير، وأهل الشر، ومآل أعمالهم وجزائها؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾:

قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، أي: فإذا لقيتم- أيها المؤمنون- الذين كفروا في الحرب، وفي ميدان المعركة، ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«ضرب»: مفعول مطلق، أي: فاضربوا رقابهم، أي: أعناقهم، واقتلوهم بلا هوادة،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٥٢٤، وأبو داود في الأدب، ما جاء في تشميت العاطس ٥٠٣٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا تحريض وتهييج للمسلمين على قتال الكفار المحاربين دين الله وأولياءه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾، أي: حتى إذا أرهقتموهم وأوهنتموهم وأضعفتموهم بكثرة القتل فيهم، وكسرتم شوكتهم، ورأيتم الأسر أولى وأصلح.

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾، أي: فَأْسِروا من أمكنكم أسرهم منهم، وشدوا وثاقهم.

والوثاق: القيد والرباط، أي: أحكموا أسرهم وقيودهم؛ لئلا ينفلتوا ويهربوا.

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: حرف تخيير في الموضعين، «منًّا»: مفعول مطلق، ومثله: «فداءً».

أي: فأنتم مخيرون فيهم بعد انتهاء الحرب، إن شئتم مننتم عليهم وأطلقتموهم بدون فداء، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء من مال أو عرض، أو غير ذلك، وأطلقتموهم.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾، أي: حتى تضع الحرب أثقالها، أي: تنتهي وتنقضي، وتتم المفاصلة بينكم وبينهم.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ الإشارة لما سبق من الأمر بقتل الكفار وأسرهم، أي: أمركم الله بذلك؛ لحكمة، ولو يشاء لانتصر منهم بنفسه، وأهلكهم، وأباد خضراءهم، دون قتال منكم.

﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ الله الانتصار منهم بنفسه عز وجل، بل شرع الجهاد والقتال.

﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبلو، أي: يمتحن ويختبر بعضكم ببعض، أي: ليبتلي المؤمنين بالكافرين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾[التوبة:١٤، ١٥].

فابتلى الله المؤمنين بفرض الجهاد والقتال في سبيله ليتبين ويظهر من يجاهد في سبيله ويصبر ممن ينكل عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

وليُجزل للمؤمنين المجاهدين في سبيله الأجر، ويتخذ منهم شهداء، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)﴾ [النساء:٩٥، ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران:١٦٩، ١٧٠].

وقال ﷺ: «تكفل الله لمن خرج، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة»[1].

وقال ﷺ: «**إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله**»[1].

ولهذا قال هنا: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم: ﴿قُتِلُوا﴾ بضم القاف، وكسر التاء، من غير ألف بينهما.

وقرأ الباقون: «قَاتَلُوا» بفتح القاف والتاء وألف بينهما.

أي: والذين قتلوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ خبر «والذين»، أي: فلن يحبط أعمالهم، ويبطل ثوابها، بل يقبلها منهم، ويحفظها لهم، ويضاعفها وينميها لهم.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ السين: للاستقبال وتحقق الوعد، أي: سيدلهم إلى طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾، أي: ويصلح شأنهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ [يونس:٩].

---

(١) سبق تخريجه.

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، أي: عرفها لهم في الدنيا، وبيّن لهم طريقها في كتبه وعلى ألسنة رسله، ورغبهم فيها، بذكر صفاتها العظيمة، وما فيها من ألوان النعيم، وذكر الأعمال الموصلة إليها، ووفقهم إلى ذلك.

وعرفها لهم في الآخرة بتقريبها لهم، ومعرفة منازلهم فيها ومساكنهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير:١٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَخلُص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**»(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ بنصر دينه وشرعه بأقوالكم وأفعالكم، بالحجة واللسان، والسيف والسِّنان.

﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ على الحق في الحرب والسلم، ويقوي قلوبكم، ويربط عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج:٤٠].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾ هذا بخلاف ما وعد الله به المؤمنين من النصر والتثبيت؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

قوله: ﴿فَتَعْسًا لَهُمْ﴾، «تعسًا»: مفعول مطلق، أي: خيبة لهم وشقاءً، وهلاكًا وخذلانًا وانتكاسًا؛ كما قال ﷺ: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة؛ إن أُعْطِيَ رضي وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»(٢).

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أحبط وأبطل أعمالهم مما يكيدون به للحق وأهله، فلم يبلغوا بها قصدهم، بل رد الله كيدهم في نحورهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، القصاص يوم القيامة ٦٥٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، وابن ماجه في الزهد، باب في المكثرين ٤١٣٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومما يزعمون طلبهم بها مرضاة الله، فلا يثابون عليها، ورُدت إليهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الإشارة إلى تَعْسهم، وإضلال أعمالهم، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أي: ذلك بسبب أنهم كرهوا، أي: أبغضوا القرآن الذي أنزله الله، ولم يقبلوه، لما اشتمل عليه من الدعوة إلى التوحيد، وتقرير رسالته ﷺ، وإثبات البعث وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣].

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أبطلها.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وتحقيرهم، وبيان بطلان أعمالهم؛ توطئة لتحريض المؤمنين على قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١﴾.

٢- بطلان سعي الكافرين، وحبوط أعمالهم، وخيبة مسعاهم؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين.

٣- امتداح الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ، بتكفير سيئاتهم، وإصلاح بالهم وأحوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾.

٤- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه.

٥- إثبات رسالته ﷺ ونزول القرآن عليه، ووجوب الإيمان بذلك، وأنه الحق من عند الله تعالى.

٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ وأن القرآن كلامه، منزل من عنده، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، وقوله: ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٨- الجمع للمؤمنين بين زوال المرهوب بتكفير سيئاتهم، وحصول المطلوب بإصلاح بالهم وأحوالهم؛ إذ لا يتم النعيم إلا بهذين الأمرين: حصول المطلوب،

والنجاة من المرهوب.

٩- أن الإيمان والأعمال الصالحة سبب لتكفير السيئات، وصلاح البال والحال.

١٠- أن الجزاء من جنس العمل، وأن الله جعل لكل شيء سببًا، فالسبب في إضلال أعمال الذين كفروا هو: كفرهم وصدهم عن سبيل الله واتباعهم الباطل.

والسبب في تكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم هو: إيمانهم وعملهم الصالحات، وإيمانهم بما نزل على محمد ﷺ، واتباعهم الحق من ربهم.

١١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب بذكر المؤمنين وأعمالهم، وما وُعدوا به، وذكر الكافرين وأعمالهم، وما تُوعّدوا به؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء، وللتحذير من الكافرين وأعمالهم، والترغيب في سبيل المؤمنين وأعمالهم.

١٢- ضرب الأمثال للناس بذكر الكافرين وأعمالهم، ووعيدهم؛ للحذر منهم ومن أعمالهم، وذكر المؤمنين وأعمالهم ووعد الله لهم؛ لاتباع سبيلهم، والعمل بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

١٣- تحريض المؤمنين وتهييجهم على قتل الكفار المحاربين لدين الله ولأوليائه، وضرب أعناقهم بلا هوادة؛ لكفرهم بالله، وصدهم عن سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

١٤- أن اتخاذ أسرى من الكفار لا يكون إلا بعد الإثخان بهم قتلًا، وخَضْدِ شوكتهم، مع شد وَثاقهم وأسرهم لئلا ينفلتوا ويهربوا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾.

وقد عاتب الله النبي ﷺ والمؤمنين في بدر، في اتخاذ الأسرى، حتى يثخن في الأرض، فقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨].

١٥- تخيير المؤمنين بعد انتهاء الحرب بين المن على الأسرى بالإفراج عنهم بدون فداء، وبين الإفراج عنهم بفداء؛ من مال أو عرض أو غير ذلك، حسب الأصلح

والحال والحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

وقد يكون المن عليهم أولى؛ لتقديمه في الذكر، ما لم تدعُ الحاجة إلى الفداء، أو تكون المصلحة في أخذه.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

١٧- أن الله لو شاء لانتصر من الكفار دون أن يوجب الجهاد والقتال على المسلمين.

١٨- أن الحكمة في فرض الجهاد والقتال: الابتلاء والامتحان للمؤمنين بالكافرين؛ ليظهر من المؤمنين من يجاهد حقًّا ويصبر، ممن ليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

١٩- وعد الله تعالى الذي لا يُخلف وعده لمن قاتل أو قُتل في سبيل الله بقبول أعمالهم ومضاعفتها، وهدايتهم وإصلاح بالهم في الدنيا والآخرة، وإدخالهم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

٢٠- أن الجهاد والقتال ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله، وموافقًا لشرعه، أي: كما جاء في الكتاب والسنة، ومن أهم ذلك: قوة المسلمين وقدرتهم على القتال، وأن يكون بإذن ولي أمر المسلمين، وليس تحت راية عمياء، وألا يقتل النساء والصبيان والرهبان ومن لم يقاتل، إلى غير ذلك.

٢١- إثبات وجود الجنة، وأن الله أعدها لأوليائه.

٢٢- منة الله تعالى على الذين قاتلوا أو قتلوا في سبيل الله، بتعريفهم بالجنة وصفاتها ونعيمها، والطريق الموصلة إليها، في الدنيا قبل قتلهم وقتالهم، مما رغبهم فيها وفي طلبها، وفي الآخرة بعد قتلهم وقتالهم بتقريبها لهم وتعريفهم منازلهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

٢٣- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، وندائهم بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما

بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثال ذلك يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢٤- الإغراء والترغيب بنصر دين الله، بالحجة واللسان، والسيف والسِّنان، وأن من ينصر الله ينصره الله وثبت قدميه ويقويه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾.

٢٥- خيبة الذين كفروا وشقاؤهم، وخذلانهم وهلاكهم، وضلال أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾.

٢٦- أن سبب تعاستهم وشقائهم وخسرانهم وهلاكهم وإضلال أعمالهم وإحباطها هو: كراهتهم وبغضهم للقرآن الذي أنزله الله، وما دعا إليه من توحيد الله، وإثبات رسالته ﷺ، والبعث بعد الموت، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ۝١٤ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّىۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣ ﴾.

قوله: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الاستفهام: للتقرير والتوبيخ والإنكار، أي: أفلم يسر هؤلاء الكفار المكذبون في الأرض بأبدانهم.

﴿فَيَنظُرُواْ﴾ بأبصارهم، ويتأملوا ببصائرهم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين من قبلهم من الأمم لما كذبوا رسل الله، وكفروا بالله وبآياته.

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ﴾، أي: أهلكهم الله ودمر أموالهم وأعمالهم ومكرهم، وخرب ديارهم ومساكنهم وهدمها، وأنجى عباده المؤمنين من بينهم.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، أي: وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال تلك العواقب الوخيمة، والعقوبات العظيمة، مما يوجب أخذ العظة والعبرة مما حل بأولئك، والسعيدُ من وُعظ بغيره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الإشارة إلى مضمون ما سبق وهو تدمير الكافرين وإنجاء المؤمنين، والباء: للسببية، أي: بسبب أن الله:

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: ناصرهم ومعينهم ومتوليهم بولايته الخاصة، ولاية التوفيق والحفظ والتأييد، والعون والتسديد.

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أن الكافرين لا مولى لهم، أي: لا ناصر لهم ولا معين؛ لتخليه عز وجل عنهم، وخذلانهم، وعدم توفيقه لهم، ومن لم ينصره الله فلا ناصر له سواه؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران:١٦٠].

فلا هادي لهم، ولا ناصر، ولا منقذ لهم من عذاب الله، وإنما وليهم الشيطان يدعوهم إلى الكفر، ويقودهم إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

ولهذا لما أخذ أبو سفيان يرتجز يوم أحد من نشوة النصر قائلًا: اعْلُ هبل، اعل هبل، قال النبي ﷺ لأصحابه: «**ألا تجيبوا له؟**» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». قال: إن لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبوا له؟**» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ لما ذكر أنه تعالى مولى الذين آمنوا ذكر أعظم ما يتفضل به عليهم، وهو إدخالهم الجنات، وما فيها من الأنهار وألوان النعيم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٩؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

أي: إن الله يدخل الذين آمنوا باطنًا وظاهرًا جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها الأنهار.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾.

ذكر عز وجل أن الكافرين لا مولى لهم، ثم ذكر سوء حالهم، حيث وُكلوا إلى أنفسهم، فصاروا في الدنيا كالأنعام، وفي الآخرة مثواهم النار.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾، أي: في الدنيا بشهواتها وملذاتها وزينتها.

﴿وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾، «ما»: مصدرية، أي: كأكل الأنعام، ليس لهم همة إلا الأكل، قضمًا وهضمًا، ولا يكادون يشبعون.

قال ﷺ: «**المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأتي في سبعة أمعاء**»[1].

﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾، أي: مقرًّا ومسكنًا ومأوى لهم، في الآخرة، وبئس المهاد.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وكثير من القرى، ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ﴾، أي: أهلها أشد قوة وبأسًا، وعددًا وعدة، وأموالًا وأولادًا.

﴿مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ مكة، والمراد: أهلها، ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾، أي: أخرجك أهلها، أي: اضطروك وألجؤوك للخروج.

﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ بأنواع العقوبات، لما كذبوا رسلنا، وكفروا بآياتنا، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ يدفع عنهم عذاب الله لما حل بهم، وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمشركي مكة المكذبين للرسول ﷺ، وهو أفضل الرسل وخاتمهم، فإذا كان الله قد أهلك الأمم قبلهم بسبب تكذيبهم رسلهم، وقد كانوا أشد قوة منهم، فهم بالعذاب والإهلاك أولى وأحرى وأجدر، فلا يغتروا بأنفسهم ويأمنوا عذاب الله- مع تكذيبهم محمدًا ﷺ سيد الخلق، الذي أنزل عليه القرآن الكريم أعظم كتب الله وأفضلها وأجلها.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٣٩٣، ومسلم في الأشربة ٣٠٦٠، والترمذي في الأطعمة ١٨١٨، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٥٧؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾:

قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن كان في دينه على علم وبصيرة ونور.

﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بما أنزله عز وجل في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ من الهدى والعلم ودين الحق؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الكاف: للتشبيه، و«من»: موصولة، أي: كالذي زُيِّن له سوء عمله، أي: زُيِّن وحُسِّن له عمله السيئ، من الكفر والتكذيب وارتكاب الموبقات، أي: زَيَّن له ذلك شيطانه وهواه ونفسه الأمارة بالسوء، وقرناء السوء من شياطين الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤، العنكبوت:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥].

أو زين الله له ذلك كونًا وقدرًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل:٤].

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾، أي: واتبعوا ما تهواه نفوسهم الأمارة بالسوء؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣].

فلا أضل ولا أردى ولا أبعد عن الهدى ممن اتبع هواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ

مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١٦].

والمعنى: لا يستوي من كان على بينة ونور وهدى وبصيرة من ربه في أمر دينه، ومن زُيِّن له سوء عمله واتبع هواه، أي: ليس هذا كهذا؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد:١٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر:٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥، ٣٦].

فما أبعد ما بين الفريقين، وشتان شتان ما بين الطائفتين، شتان بين الثرى والثريا!

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان (١)

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾، «مثل»: مبتدأ خبره محذوف، أي: فيما يتلى عليكم مثل الجنة، أي: صفة الجنة العظيمة، ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، أي: التي وعد الله بها من اتقاه بفعل ما أمره الله به، واجتناب ما عنه نهاه.

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾، «فيها»: متعلق بخبر مقدم للمبتدأ: ﴿أَنْهَارٌ﴾، أي: موجود فيها، أي: في الجنة ﴿أَنْهَارٌ﴾، أي: أنهار عظيمة، يصرفها أهل الجنة كيف شاؤوا، تجري بغير أخدود؛ قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان (٢)

﴿مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قرأ ابن كثير بغير مد بعد الهمزة: «أَسِنٍ»، وقرأ الباقون بالمد: ﴿آسِنٍ﴾، أي: غير متغير، ولا منتن، بل هو من أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحًا،

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» ص١١.
(٢) انظر: «النونية» ص٢٢٩.

وألذها شربًا.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لا بحموضة، ولا بغيرها، بل هو في غاية البياض والحلاوة والدسومة.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، أي: لذيذ شربها، يلتذ بها الشاربون؛ لحسن طعمها، وطيب رائحتها، وبياض لونها، ونشوة شاربيها، وليست كخمر الدنيا كريهة الطعم والرائحة، تغتال العقول، وتصدع الرؤوس، قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات:٤٦، ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة:١٩].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، أي: من عسل مصفى من شمعه ومن جميع الشوائب، فهو في غاية الصفاء.

وهذه الأنهار تفجر من الفردوس؛ كما قال ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن**»(١).

وعن حكيم بن معاوية، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد**»(٢).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: وللمتقين في الجنة- مع تنوع مشروباتهم فيها- أنواع المأكولات من كل الثمرات؛ كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان:٥٥]، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن:٥٢]، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن:٦٨].

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بستر ذنوبهم والتجاوز عنهم، فجمع الله لهم بين حصول المطلوب بالتنعم بأفضل المشروبات، وأطيب المأكولات، وزوال المرهوب بالمغفرة

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠، وأحمد ٢/ ٣٣٥؛ من حديث أبي هريرة، وأخرجه الترمذي في صفة الجنة، ما جاء في صفة درجات أهل الجنة ٢٥٢٩؛ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة أنهار الجنة ٢٥٧١، وأحمد ٥/ ٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

والتجاوز عما ارتكبوه من الذنوب والسيئات.

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«من»: موصولة، أي: كالكافر، الذي هو خالد في النار، لا يخرج منها.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾، أي: ماء في غاية الحرارة، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، أي: فقطع أمعاءهم وأحشاءهم من شدة حرارته.

فجُمع لهم بين العذاب لظاهر أجسامهم بالنار، والعذاب لباطنهم بشرب الماء الحار؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن:٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤]، وقال تعالى: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر:٧٢].

والمعنى: أنه لا يستوي المتقون الذين وعدهم الله الجنة وما فيها من الأنهار والثمار، بمن في النار ويسقى الحميم من الكفار، ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هم في رفيع الدرجات، كمن هم في حضيض الدركات.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، أي: ومن المنافقين من يستمع إليك، أي: يجلسون إليك، ويستمعون قراءتك القرآن وكلامك، استماعًا لا يتجاوز آذانهم، من غير رغبة، ولا تدبر، ولا تفهُّم.

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]؛ ولهذا قال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾، أي: من مجلسك.

﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: للذين أعطاهم الله تعالى العلم به، وبما ينزل على

رسوله ﷺ، من الصحابة رضي الله عنه.

﴿مَاذَا قَالَ﴾، «ماذا»: اسم استفهام، أي: ماذا قال محمد؟ أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي قاله محمد.

﴿ءَانِفًا﴾ ظرف متعلق بـ«قال»، أي: ماذا قال الساعة؟ أو حال.

وهذا يدل على عدم اهتمامهم بسماع ما قال، وعدم اكتراثهم به؛ تقليلًا لشأنه، وتشكيكًا لغيرهم به، وأنه لا معنى له، ولا قيمة، وتهكمًا به ﷺ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، أي: الذين ختم على قلوبهم، وسد منافذ وصول الخير إليها، فلا تقبل الحق ولا تعيه ولا تفهمه، بسبب نفاقهم، واتباعهم أهواءهم الباطلة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ سلكوا طريق الهدى، بالإيمان والإخلاص، واتباع ما يرضي الله، وانتفعوا بسماع قراءته ﷺ القرآن وكلامه.

﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾، أي: زادهم هداية وتوفيقًا تفضلًا منه وكرمًا؛ لإخلاصهم وسلوكهم طريق الهدى، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾، أي: وأعطاهم تقواهم، فألهمهم رشدهم، ووفقهم للخير، وحفظهم من الشر؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»(١).

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ الاستفهام: للنفي، و«إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من «الساعة»، «بغتة»: حال، أي: ما ينتظر هؤلاء الكفار المكذبون، المتبعون لأهوائهم، إلا القيامة أن تأتيهم فجأة

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨؛ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

وهم غافلون عنها؛ لأنها لا تأتي إلا بغتة، وقد قرب إتيانها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧﴾ [النجم:٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر:١].

وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:١].

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ الفاء: تعليلية، و«قد»: حرف تحقيق، أي: فقد ظهرت علاماتها الدالة على قربها، ومن أول علاماتها: بعثته ﷺ.

قال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى[1].

ولهذا قال ﷺ: «**وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي**»[2].

فهددهم عز وجل بقرب الساعة؛ لأن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: فكيف للكافرين إذا جاءتهم الساعة، وانقضت آجالهم أن يتذكروا؟ وأين لهم التذكر، حين لا ينفعهم ذلك؟ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ [سبأ:٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أي: أنه لا معبود بحق إلا الله.

قال ابن كثير[3]: «وهذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمرًا بعلم ذلك».

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٦، ومسلم في الفتن ٢٩٥٠؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٩٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠؛ من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٢٩٨.

وقال السعدي[(١)]: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بمعنى ما طُلب منه علمه، وتمامه: أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به- وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك».

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾، أي: اطلب من الله تعالى المغفرة لذنبك ولذنوب المؤمنين والمؤمنات، وقد كان ﷺ يقول: «اللهم اغفر لي خطئي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»[(٢)].

وكان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(٤)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة**»[(٥)].

وعن عبدالله بن سرجس رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ، وأكلت معه خبزًا ولحمًا، أو قال: ثريدًا. قال: فقلت له: أستغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ »[(٦)].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ص٧/ ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت**» ٦٣٩٩، ومسلم في الذكر ٢٧١٩.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٢؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٩.

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٢.

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٤٦.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾، أي: تصرفكم في نهاركم ويقظتكم.

و﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾: مستقركم في ليلكم ومنامكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير المشركين المكذبين للنبي ﷺ بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم بأبصارهم آثار ما حل بالكافرين من الأمم قبلهم، والإنكار عليهم كيف لا يتعظون بسوء عاقبة أولئك الأقوام؟ لقوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾.

٢- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للكافرين، بأن لهم أمثال عقوبات الكافرين قبلهم ممن دمر الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

٣- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للذين آمنوا وتوفيقه لهم ونصرهم وحفظهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٤- نفي ولايته الخاصة عن الكافرين، وأن من لم يتوله الله فلا مولى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾. وهذا لا ينافي ولايته العامة لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام:٦٢].

٥- إثبات الأسباب وتعلق مسبباتها بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

٦- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ﴾.

٧- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح الخالص لله تعالى، الموافق لشرعه، بالجوارح.

٨- ذم الكافرين في تمتعهم في الدنيا وأكلهم كالأنعام، وتهديدهم ووعيدهم بالمستقر في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

٩- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح بذكر ما أعد للمؤمنين من دخول الجنات، وما فيها من النعيم، والتحذير من الكفر؛ لذم الكافرين، وتوعدهم بالنار وعذابها الأليم.

١٠- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾.

١١- أن القرية تطلق على المدينة الكبيرة، مأخوذة من «القرى»؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين؛ كما تطلق القرية على أهلها؛ لأن المراد بالقرية هنا: أهلها.

١٢- أن كفار مكة ألجؤوا النبي ﷺ واضطروه للخروج منها، والهجرة إلى المدينة هو وأصحابه.

١٣- إهلاك كثير من القرى المكذبة للرسل فلا ناصر لهم، مع أنهم أشد قوة من كفار مكة، فلم تنفعهم قوتهم، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد ووعيد للمشركين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

١٤- أنه لا ناصر من عذاب الله، ولا واقي منه، ولا عاصم ولا دافع، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

١٥- شتان بين من كان مؤمنًا وعلى بينة وبصيرة ونور من ربه، وبين من زين له عمله السيئ من الكفر والتكذيب واتبعوا أهواءهم، فلا يستوي هذا وهذا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه المؤمنين؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٧- أن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

١٨- ينبغي الحذر من تسويل الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، ومن اتباع الهوى.

١٩- إثبات وجود الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، وعظم صفتها، وما فيها من الأنهار، وما لهم فيها من الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ الآية.

٢٠- تعدد أنهار الجنة وكثرتها وتنوعها وحسنها وطيبها، ففيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر في غاية اللذة، وأنهار من عسل في غاية الصفاء؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

٢١- أن ما في الجنة من الشراب والطعام وغير ذلك من ألوان النعيم لا يقاس به ما في الدنيا؛ لأن كل ما في الدنيا يعتريه التغير والنقص والفناء، فالماء يأسن، واللبن يتغير طعمه، وخمرها كريهة الطعم والرائحة، تغتال العقول، وتصدع الرؤوس، وعسلها لا يخلو من الكدر، وجميع ما فيها يبلى ويفنى، والإنسان فيها عرضة للأمراض والآفات، والهرم ثم الموت.

٢٢- الجمع لأهل الجنة بين أنواع الشراب، وأصناف المآكل من كل الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد:٣٥].

٢٣- الجمع لهم بين حصول المطلوب بالجنة وما فيها من ألوان النعيم، وبين النجاة من المرهوب بمغفرة الذنوب.

٢٤- شتان بين ما وعد الله به المتقين من الجنة وما فيها من النعيم، وبين ما توعد به

الكفار من الخلود في النار وشرب الحميم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

٢٥- الجمع لأهل النار بين عذابها وحرها الشديد، وبين الحميم الشديد الذي يقطع أمعاءهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن:٤٤].

٢٦- استماع بعض المنافقين إلى قراءته ﷺ وكلامه، وجلوسهم إليه من غير رغبة، ولا تفهم لما يسمعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

٢٧- إظهارهم عدم اهتمامهم بما سمعوا؛ تقليلًا لشأنه، وتشكيكًا لغيرهم به، وأنه لا معنى له ولا قيمة، وتهكمًا به ﷺ وبقوله؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

٢٨- عقوبة الله لهم بالطبع على قلوبهم فلا يصل إليها خير، واتباعهم أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

٢٩- إثبات القدر، وأن من كتب الله عليهم الكفر والضلال فلا سبيل إلى هدايتهم.

٣٠- ذم اتباع الأهواء؛ لأن الهوى يُعْمي ويُصم عن الحق والهدى.

٣١- التنويه بشأن الذين سلكوا طريق الهدى بالإيمان والإخلاص، وانتفعوا بسماع القرآن واتبعوا هدى الله، وزيادتهم هدى، وإيتاؤهم تقواهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

٣٢- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أعرض عن استماع القرآن طبع الله على قلبه فاتبع هواه، ومن اهتدى زاده الله هدى وتقوى.

٣٣- تهديد الكفار بقرب الساعة وعذابها، لظهور علاماتها، وإتيانها بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر:٤٦].

٣٤- إثبات الساعة والقيامة، وبعث الخلائق، وحسابهم وجزائهم، وأن علاماتها قد ظهرت، وأولها: بعثته ﷺ، والحث على الاستعداد لها.

٣٥- أنه بعد إتيان الساعة، لا ينفع نفسًا تذكرها ولا إيمانها؛ لفوات وقته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾.

٣٦- أنه لا معبود بحق إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

٣٧- الحث على سؤال مغفرة الذنوب؛ لأن الله أمر النبي ﷺ بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات، وهو أمر له ولأمته، بل الأمة مأمورة بذلك من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وفيه مشروعية استغفار المؤمن لإخوانه المؤمنين.

٣٨- فضل العلم، وأنه مقدم على القول والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾.

قال البخاري: «باب العلم قبل القول والعمل؛ لقوله الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم»(١).

٣٩- علم الله التام بتصرفات العباد في نهارهم ويقظتهم، ومستقرهم في ليلهم، وجميع أحوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

٤٠- وجوب مراقبة الله في جميع الأوقات والأحوال، في السر والعلن.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «فتح الباري»، كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل ١/ ١٥٩.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ﴾، أي: هلا نزلت سورة وذكر فيها القتال، بدليل قوله بعده: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ﴾.

والمعنى: أنهم تمنوا شرعية الجهاد، واستعجلوا ذلك.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها ولا تشابه، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ﴾، أي: مشروعيته والأمر به.

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك ونفاق، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ﴾، «نظر»: مفعول مطلق، أي: نظر المغمى عليه ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾، أي: لأجل الموت، وذلك بسبب شدة خوفهم وجبنهم من لقاء العدو، ونكلوا عن القتال وكرهوه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، أي: فأولى لهم من النكول عن القتال والتخوف منه.

﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾، أي: أن يسمعوا ويطيعوا، ويقولوا قولًا معروفًا؛ كما قال تعالى عن المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ [النور:٥١].

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، أي: جد الحال، وحضر القتال.

﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له النية، وصدقوا في القتال ابتغاء مرضاته.

﴿لَكَانَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لكان صدقهم مع الله ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ خيرية مطلقة في الدنيا والآخرة.

قال السعدي(١): «﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾، أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المتحتم عليهم، ويجمعوا عليهم هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله وعفوه. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، أي: جاءهم أمر جد، وأمر حتم، ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ في هذه الحال بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله، ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ من حالهم الأولى».

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ قرأ نافع بكسر السين: «عَسِيتُمْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿عَسَيۡتُمۡ﴾.

وروى رويس: «تُوُلِّيتُمْ» بضم التاء والواو وكسر اللام، وقرأ الباقون بفتحهن: ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾.

أي: فلعلكم إن أعرضتم بقلوبكم عن الإيمان، وتوليتم بأبدانكم عن الجهاد، وعن العمل بشرائع الإسلام.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٧/ ٧٨.

﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان، فتعودوا إلى ما كنتم عليه من الجاهلية الجهلاء.

﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ قرأ يعقوب بفتح التاء، وإسكان القاف، وفتح الطاء وتخفيفها: «وَتَقْطَعُوا».

وقرأ الباقون بضم التاء، وفتح القاف، وكسر الطاء وتشديدها: ﴿وَتُقَطِّعُوا﴾.

وهذا أشبه بعطف الخاص على العام؛ لأن من أعظم الفساد في الأرض قطيعة الأرحام.

قال ابن كثير[1]: «وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا».

وهو أيضًا: من ذكر السبب والمسبب، فإن الإفساد في الأرض بالكفر وسفك الدماء والفجور وشرب الخمور ونحو ذلك من أعظم أسباب قطيعة الأرحام،

كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى في الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة:٩١]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧].

فمن تولى وأعرض عن طاعة الله تعالى حرم كل خير، وما ثم أمامه إلا الإفساد في الأرض وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحَقْو الرحمن- عز وجل، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ فقالت: بلى. قال: فذاك، قال: اقرؤوا**

---
(١) في تفسيره ٧/ ٣٠٠.

إن شئتم: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝٢٢﴾»[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة للذين تولوا وأفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم. وأشار لهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم من رحمته وجنته، فاستحقوا سخطه وأليم عقابه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾ [الرعد:٢٥]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾، أي: عن سماع الحق والإصغاء إلى سماعه سماع فهم وتدبر وانتفاع، ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ عن النظر في آيات الله والتأمل فيها، وعن رؤية الحق، وسلوك طريقه، فلا يسمعون ما ينفعهم، ولا يبصرونه. وتلك والله قاصمة الظهر، وأعظم المصائب.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أفلا يتفكرون في القرآن وألفاظه ومعانيه ويتفهمونه، ويعملون بأحكامه.

﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، «أم»: هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أعلى قلوبهم أقفالهم؟ أي: أغلاقها وأغطيتها، فهي مقفلة مغلقة، لا تتدبر القرآن، ولا يصل إليها بسبب غفلتها وإعراضها.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت:٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾ [الأنعام:٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف:٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة محمد ﷺ ٤٨٣٢، ومسلم في البر، صلة الرحم وتحريم قطيعتها ٢٥٥٤.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم﴾، أي: رجعوا كفارًا بعد إسلامهم وإيمانهم.

﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾، «ما»: مصدرية، أي: من بعد تبيُّن الهدى لهم وظهوره، ومعرفتهم طريق الحق والهدى من طريق الباطل والضلال.

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾، أي: زين لهم ذلك وحسنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال:٤٨].

﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة، وكسر اللام: «وَأُمْلِي لَهُمْ»، وقرأ الباقون بفتح الهمزة واللام، وقلب الياء ألفًا: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾.

أي: مدّ لهم في الأمل، وخدعهم وغرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾ [النساء:١٢٠].

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم﴾ الآية، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: للسببية، أي: ارتداد هؤلاء المنافقين بسبب أنهم:

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾، «ما»: موصولة، أي: قالوا لإخوانهم من اليهود الذين كرهوا الذي أنزل الله من القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الحشر:١١].

ويحتمل أيضًا أن يراد بهم: المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)﴾ [محمد:٩].

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وهو ما يوافق أهواءهم من الكيد للمسلمين،

وإفشاء أسرارهم، ونحو ذلك، فتمالأ هؤلاء المنافقون في الباطن على الباطل مع هؤلاء الكفار، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولكن الله فضحهم، وهتك أستارهم، وأظهر للمؤمنين عوارهم حتى لا يغتروا بهم؛ ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بكسر الهمزة: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾، مصدر: «أسر»، وقرأ الباقون بفتح الهمزة: «أَسْرَارَهُمْ»: جمع «سِر».

أي: والله يعلم ما يسرونه ويخفونه من الكفر والخبث والكيد للحق وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء:٨١].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، أي: يضربون وجوههم، وأقفيتهم وظهورهم بالمقامع بعنف وشدة، عندما تستعصي أرواحهم عن الخروج من أجسادهم؛ لإخراجها بالقوة والقهر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لتوفي الملائكة لهم على هذه الكيفية من ضرب وجوههم وأدبارهم ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم:

﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾، «ما»: موصولة، أي: اتبعوا الذي أسخط الله من الكفر والنفاق والفسوق والعصيان، ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، أي: وكرهوا الذي يرضيه من الإيمان والإخلاص والطاعة، فلم يرغبوا فيه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال:٥٠، ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وبين قوله: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ مقابلة.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: أبطلها، فلم يثابوا على شيء منها، ولم يبلغوا فيها مرادهم.

الفوائد والأحكام:

١- العتاب للمؤمنين في تمنيهم واستعجالهم مشروعية القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾، والمعنى: لولا نُزِّلت سورة فيها ذكر القتال ومشروعيته، بدليل ما بعدها.

٢- تفسير القرآن بالقرآن، وأنه قد يُحذَف من الجملة ما تبينه الجملة بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾، أي: وذكر فيها القتال؛ لقوله في التي بعدها: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء:١٧٦].

٣- أن لله وحده الحكم، والحكمة فيما حكم، وفيما يحكم به من أحكام شرعية، أو كونية، أو جزائية، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، وأنه غير مخلوق.

٥- نكول كثير ممن في قلوبهم شك ونفاق عن القتال بعد فرضه، وشدة فزعهم وفَرَقهم من لقاء العدو؛ لقوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

٦- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٧- بلاغة القرآن، ودقة تصويره لحال هؤلاء الجبناء.

٨- أن الأولى لهؤلاء أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولًا معروفًا، فيقولوا: سمعنا وأطعنا، فإذا حضر القتال صدقوا الله في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾.

كما أن الأولى لهم امتثال الأمر الحاضر الواجب عليهم، وألا يطلبوا شرع ما هو شاق عليهم، فإذا أمروا بذلك فعليهم أن يصدقوا الله ويستعينوا به على امتثال ذلك.

٩- وجوب الصدق والإخلاص لله في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وأن الخير كل الخير في ذلك.

١٠- أن من تولى وأعرض عن الإيمان وعن الجهاد والعمل بشرائع الإسلام حُرم من كل خير، فما ثم أمامه إلا الإفساد في الأرض بالكفر والفجور وقطيعة الأرحام؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)﴾.

١١- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن فعل ذلك بلعنة الله تعالى لهم، والحيلولة دون وصول الحق إليهم؛ بالصمم في آذانهم، والعمى في أبصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾.

١٢- التحذير من الإفساد، وذم المفسدين في الأرض.

١٣- التحذير من قطيعة الأرحام، وأنها من أعظم الفساد في الأرض، والتأكيد على وجوب صلة الأرحام.

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بَتَّتُّه**»[1].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه، يبلغ به النبي ﷺ، قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم: شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله**»[2].

وعن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**»[3].

١٤- الإنكار على المفسدين في الأرض بقطيعة الرحم وغير ذلك، وتقريعهم وتوبيخهم؛ لعدم تدبرهم القرآن، وإقفالهم قلوبهم عن وصوله إليها بسبب غفلتهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، صلة الرحم ١٦٩٤، والترمذي في البر، ما جاء في قطيعة الرحم ١، وأحمد ١/ ١٩١، وقال الترمذي: «حديث صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٢٤، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، ليس الواصل بالمكافئ ٥٩٩١، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٨.

١٥- وجوب تدبر القرآن الكريم؛ ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وأهم ذلك ولُبُّه: العمل به، فكم من زاعم أنه متدبر للقرآن، يعتقد أن التدبر ثقافة تدور حول بعض ألفاظه ومعانيه، وليس معه من تدبر القرآن إلا إقامة الحجة عليه؛ لأنه لم يعمل به، وما أكثر هؤلاء في هذا الزمن، وما أكثر الدعاة إليه.

١٦- التحذير من الردة عن الإسلام، واتباع الشيطان، وذم الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الضلال بعد الهدى، وأن ذلك من تسويل الشيطان، وإمداده لهم في الأمل وغرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

١٧- أن ارتداد هؤلاء المنافقين بسبب تمالئهم في الباطن على الباطل مع الذين كرهوا ما أنزل الله من اليهود والمشركين بطاعتهم لهم فيما يوافق أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ﴾.

١٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

١٩- علم الله تعالى بالسرائر، وما تخفيه الضمائر، من الكفر والنفاق، والكيد والخداع، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، وفي هذا تهديد لهم.

٢٠- التحذير من إضمار الشر، ووجوب مراقبة الله في السر والعلن؛ لأنه عز وجل يعلم السر وأخفى.

٢١- تهديدهم ووعيدهم بسوء حالهم عند توفي الملائكة الموكلين بقبض أرواحهم لهم؛ بضربهم وجوههم وأدبارهم بمقامع الحديد بعنف وشدة عندما تستعصي أرواحهم عن الخروج من أجسادهم؛ لإخراجها بالقوة والقهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٢- أن توفي الملائكة لهم على هذه الكيفية من الإهانة والضرب، إنما هو بسبب اتباعهم الذي أسخط الله من الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان، وكراهتهم ما

يرضيه من الإيمان والإخلاص والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٢٨﴾.

٢٣- بطلان أعمال الكفار وحبوطها، فلا يثابون على شيء منها، ولا يصلون بها إلى مرادهم.

٢٤- التحذير من اتباع وارتكاب ما يسخط الله بالكفر والمعاصي، وكراهية ما فيه رضاه من الطاعات، من الإيمان والطاعات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾:

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب، أي: بل أظن ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك ونفاق.

﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ﴾، «أن» والفعل «يُخرِج» في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مُفعولَيْ «حَسِب».

أي: أظن هؤلاء المنافقون أن لن يظهر الله أحقادهم، وما في قلوبهم من العداوة للحق وأهله؟ أي: بل سيظهر أحقادهم ويكشفها لعباده المؤمنين، ويفضحهم، وقد جلَّى حقيقتهم، وعدد فضائحهم وقبائحهم في كيدهم للإسلام وأهله في سورة براءة؛ ولهذا سماها بعض أهل العلم: «الفاضحة»؛ لكثرة ما جاء فيها من فضائحهم، وهذا ما كانوا يحذرونه؛ كما قال تعالى فيها: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم

بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ [التوبة:٦٤].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«لو»: حرف شرط غير جازم، واللام في قوله: ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ واقعة في جواب «لو»، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلعرفتهم بعلاماتهم الظاهرة، التي لا يستطيعون إخفاءها.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لتعرفنهم في لحن القول، وهو تعريض الخطاب وإشارته، وفحوى الكلام ومغزاه، فيظهر ما في قلوبهم من كلامهم، وفلتات ألسنتهم.

قال ابن القيم: «واللحن ضربان: صواب، وخطأ، فلحن الصواب نوعان؛ أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «**ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض**»[(١)].

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية». قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن الخطاب على شرط، بل أخبر به خبرًا مؤكدًا بالقسم، فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه»[(٢)].

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه»[(٣)].

وقد قالوا في المثل: «كاد المريب أن يقول: خذوني».

وقال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

قال ابن القيم: «والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن الخطاب، فإن

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨، ومسلم في الأقضية ١٧١٣، وأبو داود في الأقضية ٣٥٨٣، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠١، وابن ماجه في الأحكام ٢٣١٧؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٦٢.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٠٤، ٣٤٣.

معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه، وما في وجهه؛ فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السماء المرئية، والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر، والسماع»[١].

وقد عرف ﷺ جماعة من المنافقين، وأخبر بهم صاحب السر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**في أصحابي اثنا عشر منافقًا...**» الحديث[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، أي: لا يخفى عليه شيء منها، قبل فعلها وبعده.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بالياء: «وَلَيَبْلُونَّكُمْ»، «حَتَّى يَعْلَمَ»، «وَيَبْلُوَ»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾، ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾، ﴿وَنَبۡلُوَاْ﴾.

أي: ولنختبرنكم ونمتحن إيمانكم وصبركم بإيجاب الجهاد عليكم؛ ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾، أي: علمًا يترتب عليه الجزاء والثواب، وذلك بعد حصول الجهاد منهم، وإلا فهو سبحانه قد علم في الأزل قبل أن يخلقهم من سيجاهد منهم من غيره.

﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ روى رويس بإسكان الواو: ﴿وَنَبْلُوْ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَنَبۡلُوَاْ﴾، أي: ونختبر أقوالكم وأفعالكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسوله، ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: انصرفوا بأنفسهم عن دين الله عز وجل، وصدوا الناس وصرفوهم عنه، بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل، وتزيينه لهم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٦٣.

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٧٧٩.

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: وخالفوا الرسول وحاربوه وكذبوه، عن عمد وعناد، لا عن جهل وضلال؛ لقوله:

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، «ما»: مصدرية، أي: من بعد تبيُّن الهدى وظهوره لهم.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأن الله عز وجل غني عن الخلق كلهم، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر:٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»(١).

وإنما ضرر ذلك عائد إليهم، ووباله واقع عليهم؛ ولهذا قال:

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، أي: وسيبطل أعمالهم ومساعيهم للنيل من الحق ونصرة الباطل، فلا تُثمر لهم إلا الخيبة والخسران.

وسيبطل أعمالهم التي يرجون بها الثواب، فلا يثابون عليها بسبب كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وردتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [محمد:٢٥-٢٨].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ بامتثال ما أمركم الله به ورسوله، واجتناب ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وفي إعادة الفعل «أطيعوا»: دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالًا، فيطاع ﷺ في امتثال أمره ونهيه وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم؛ لأن الكل من عند الله تعالى؛

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣، ٤].

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالردة عن الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

أو بفعل ما يبطل الأعمال ويفسدها، من الإعجاب والفخر، والسمعة والرياء، وقد قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر**»، فسئل عنه، فقال: «**الرياء**»[1].

أو بإتباع الصدقة بالمن والأذى؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

أو بعمل الموبقات والمعاصي التي تضمحل معها الأعمال الصالحة، ويخف وزنها، ويحبط أجرها.

أو بالخروج من الفرض بعد الدخول فيه؛ كقطع صلاة الفريضة، وصوم رمضان، والحج والعمرة بعد الدخول فيهما فرضًا كانا أو نفلًا.

ومفهوم هذا كله: الأمر بإصلاح الأعمال وإكمالها وإتمامها علمًا وعملًا، إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الجملة حالية، أي: وماتوا حال كونهم كفارًا من غير توبة.

﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن»، أي: فلن يغفر الله لهم؛ لأنهم ماتوا على الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝١٦٢﴾ [البقرة:١٦١، ١٦٢]. ومفهوم هذه الآيات: أنهم إن تابوا قبل موتهم فإن الله يغفر لهم.

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾، أي: فلا تضعفوا ولا تجبنوا عن مقاتلة أعدائكم الكفار.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، أي: ولا تدعوا إلى المسالمة والمصالحة والمهادنة بينكم وبين عدوكم، ووضع القتال بينكم وبينهم طلبًا للراحة.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الجملة: حالية، أي: والحال أنكم أنتم الأعلون، أي: لكم الظهور عليهم بقوتكم وعددكم وعدتكم، كما أنكم الأعلون بدينكم وإيمانكم.

قال ابن كثير(١): «فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك؛ كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك».

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بمعيته الخاصة لأوليائه المتقين، وجنده المفلحين، معية النصر والعون والتوفيق، والتسديد والحفظ والتأييد.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، أي: ولن ينقصكم ثواب أعمالكم، بل سيؤتيكم أجوركم، ويضاعفها لكم، ويزيدكم من فضله، والله ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا لعب، أي: لعب في الأبدان، لا فائدة منه، تنشغل به عن الطاعات، والعمل لدينها ودنياها.

﴿وَلَهْوٌ﴾ للقلوب تنشغل به عن التفكر في آيات الله وعظمته، والإخلاص له.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

وفي هذا تزهيد في الدنيا، وبيان لحقارتها، وأن حاصلها لعب ولهو، فلا ينبغي أن

---

(١) في «تفسيره» ص٧/ ٣٠٦.

يُغتر بها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

وفي الحديث: «**ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم**»[(١)].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»[(٢)].

ولهذا قال هنا: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ فبعد أن زَهَّد في الدنيا رغب في الإيمان والتقوى، والعمل للآخرة.

أي: وإن تؤمنوا وتصدقوا بقلوبكم، وتتقوا بجوارحكم بفعل المأمورات، وترك المحظورات.

﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: يعطكم ثواب إيمانكم وتقواكم من غير نقص، وأعظم ذلك وأجله: إدخالهم جنات النعيم، والنظر إلى وجهه الكريم.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾، أي: ولا يسألكم أموالكم مقابل دعوته إياكم للإيمان والتقوى، ومقابل قبوله منكم ذلك؛ لكمال غناه عز وجل عن خلقه؛ ولهذا أمر عز وجل رسوله محمدًا ﷺ أن يقول لقومه ذلك، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان:٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص:٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

وهكذا نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، كل منهم قال لقومه: ﴿وَمَآ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٢، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) سبق تخريجه.

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء:١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

فما سأل عز وجل العباد أموالهم على دعوته إياهم للإيمان والتقوى، وقبول ذلك منهم، وأمر رسله أن يقولوا ذلك لأممهم؛ لئلا يجعلوا ذلك ذريعة لعدم الانقياد لرسله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القلم:٤٦].

كما أن ما أوجبه الله من الحقوق في المال، إنما هو لمواساة المسلم لإخوانه الفقراء، ويعود نفعه عليه، ويرجع ثوابه إليه، وهو قليل من كثير.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾، أي: إن يسألكم أموالكم.

﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيحرجكم ويجهدكم، تبخلوا.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ قرأ يعقوب بالنون: «وَنُخْرِجْ»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿وَيُخْرِجْ﴾، أي: ويظهر أحقادكم لحبكم للمال، وكراهيتكم بذله.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، أي: فمنكم الذي يبخل ويمتنع عن الإنفاق في سبيل الله، فكيف لو طلب منكم أموالكم؟ لكان ذلك أحرى بامتناعكم منه.

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: فإنما يعود وبال وضرر بخله على نفسه؛ لأنه حرمها الأجر والثواب، ولن يضر الله شيئًا؛ ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن جميع خلقه غنى تامًّا مطلقًا؛ لأن الغنى وصف لازم له.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون إليه عز وجل في جميع أموركم وأوقاتكم وأحوالكم، لا غنى لكم عنه طرفة عين؛ لأن الفقر وصف لازم للخلق لا ينفكون عنه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾، أي: وإن تعرضوا عن الإيمان بقلوبكم، وتتولوا عن تقوى الله وعن الإنفاق في سبيله والعمل بطاعته بجوارحكم.

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، أي: يذهبكم ويأتي بغيركم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣٣]، وقال

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ في التولي والإعراض، بل يؤمنون بالله، ويتقونه، وينفقون في سبيله، ويسمعون، ويطيعون.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المنافقين ومرضى القلوب ظنهم الباطل: أن الله لن يظهر ما في قلوبهم من الأحقاد على الحق وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾.

٢- إظهاره عز وجل أضغانهم وأحقادهم، وفضحهم بذكر صفاتهم القبيحة، ومواقفهم المخزية، في سورة براءة، وسورة المنافقين، وفي غير ذلك من سور القرآن الكريم.

٣- حقد المنافقين وعداوتهم وكيدهم للحق وأهله، وهذا ديدنهم في كل زمان ومكان، مما يوجب الحذر منهم؛ كما قال عز وجل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون:٤].

٤- علم الله التام بما تنطوي عليه الصدور والقلوب من المضمرات والسرائر؛ مما يوجب مراقبته عز وجل في السر والعلن.

٥- أن الله عز وجل لو شاء لأرى النبي ﷺ هؤلاء المنافقين بأشخاصهم وأعيانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ ﴾، وله الحكمة في عدم مشيئته ذلك.

٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٧- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له.

٨- معرفته ﷺ المنافقين بعلاماتهم الظاهرة، ومن كلامهم وفلتات ألسنتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾.

٩- أن معرفتهم بلحن القول أظهر وآكد؛ لهذا أقسم الله تعالى عليه، بخلاف معرفتهم بالسيماء والنظر، فقد علقه على المشيئة.

١٠- علم الله تعالى التام بأعمال العباد، فلا تخفى عليه منها خافية؛ لقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ مما يوجب مراقبته.

١١- ابتلاء الله تعالى العباد بفرض الجهاد؛ ليظهر المجاهدون منهم والصابرون، من غيرهم، وابتلاء أقوالهم وأفعالهم؛ لمجازاتهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

١٢- أن الجنة حُفّت بالمكاره، وأن سلعة الله غالية، فلا بد لنيل ذلك من الابتلاء والجهاد والصبر؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢].

١٣- تحقير شأن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وخالفوا رسوله بعد تبين الهدى لهم، وأنهم لن يضروا الله شيئًا، بل ضررهم على أنفسهم، وسيبطل أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

١٤- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا لهم وحثًا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

١٥- وجوب طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ، وأن طاعته ﷺ تجب استقلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وفي هذا رد على الذين يرون الاستدلال بالقرآن دون السنة.

١٦- نهي المؤمنين عن إبطالهم أعمالهم بالردة عن الإسلام، أو بفعل ما يبطلها كالمن والأذى بالصدقة، والإعجاب بالعمل، والسمعة والرياء، أو ارتكاب الموبقات والمعاصي التي تطيش بالحسنات، أو قطع العبادة الواجبة بعد الدخول فيها؛ كقطع صلاة الفريضة وصوم رمضان، والحج والعمرة بعد الإحرام بهما، فرضًا كانتا أو نفلًا، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، ومفهوم هذا: وجوب إصلاحها.

١٧- حرمان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وماتوا على الكفر من مغفرة الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

١٨- أن كل وعيد بإحباط العمل مقيَّد بموت صاحبه على الكفر؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٧].

١٩- نهي المؤمنين عن الوهن والضعف أمام الكفار، والدعوة إلى السلم، مع أنهم هم الأعلون، ووعده عز وجل لهم بأنه معهم بتوفيقه ونصره وعونه، وبإيتائهم أجور أعمالهم ومضاعفتها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

٢٠- إثبات معية الله تعالى الخاصة للمؤمنين، معية النصر والعون والتوفيق، والحفظ والتأييد والتسديد.

٢١- تحقير الحياة الدنيا، وأن حاصلها لعب في الأبدان، ولهو للقلوب، والتحذير من الاغترار بها، ونسيان الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

٢٢- الحث على الإيمان والتقوى، والاستعداد للآخرة، والترغيب في ذلك بالوعد على ذلك بإيتاء الأجور العظيمة، من غير غرم مالي؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

٢٣- تسميته عز وجل ثواب المؤمنين المتقين أجرًا؛ تفضلًا منه؛ لأنه عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه.

٢٤- أن الناس لو سئلوا أموالهم مقابل دعوتهم إلى الإيمان والتقوى، ومقابل قبول ذلك منهم، لامتنع كثير منهم من ذلك بخلًا بالمال، وظهرت أضغانهم بسبب طلب أموالهم؛ ولهذا لم يسألهم عز وجل أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

٢٥- شدة محبة الإنسان للمال، وبخله به، وتشبثه فيه، حتى ولو كان على حساب دينه، وموالاته ومعاداته من أجله، إلا من رحم الله ووفقه.

٢٦- أن الله عز وجل إنما دعا العباد إلى الإنفاق في سبيله- ومع ذلك يبخل الكثير منهم- فكيف لو سألهم أموالهم؟ لقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾.

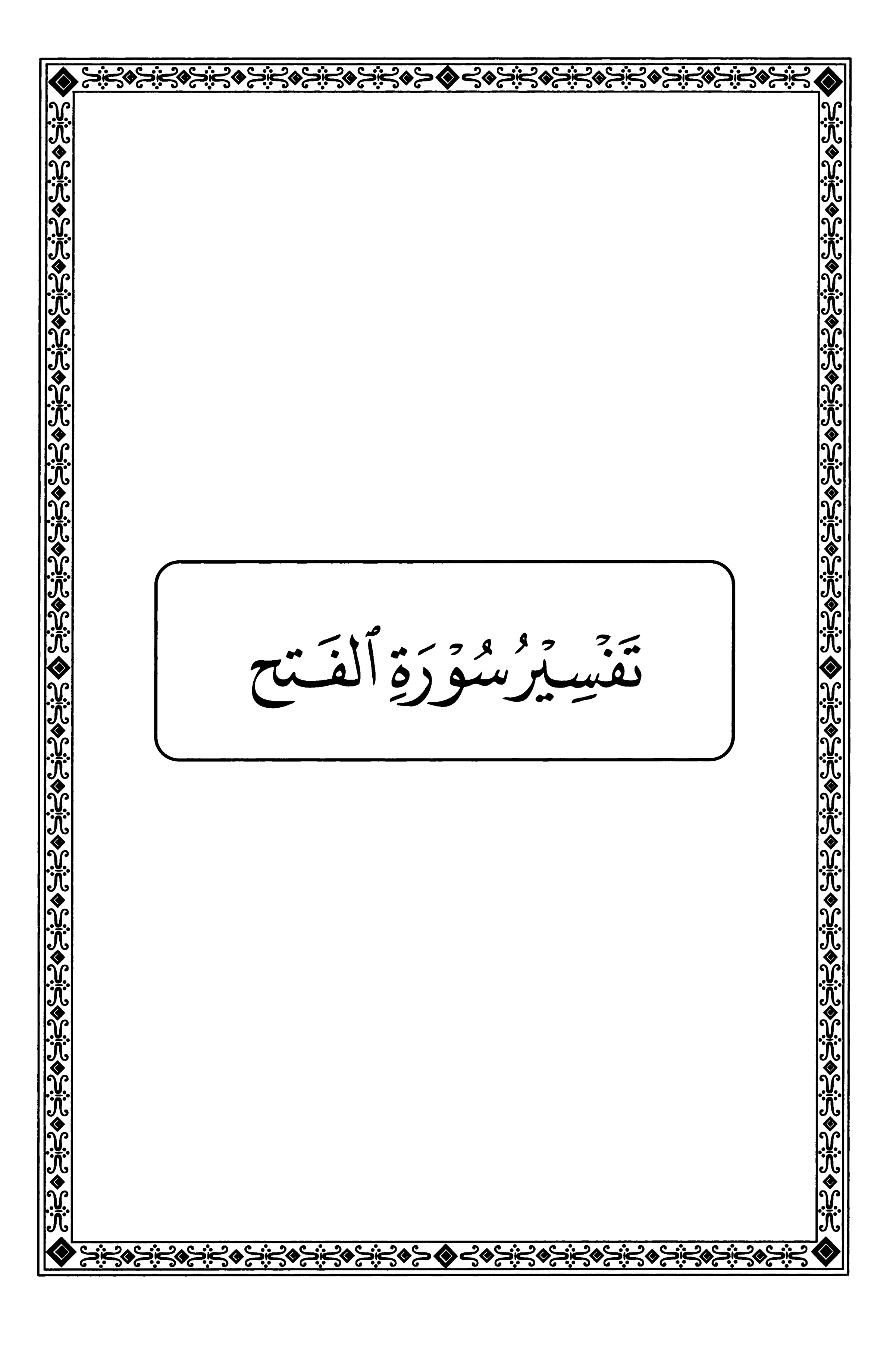
٢٧- أن من بخل وامتنع عن الإنفاق في سبيل الله، فإنما وبال وضرر بخله على نفسه، بحرمانها من ثواب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله: «الغني»، وغناه التام المطلق عن جميع خلقه، وأن الغنى صفة لازمة له سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾.

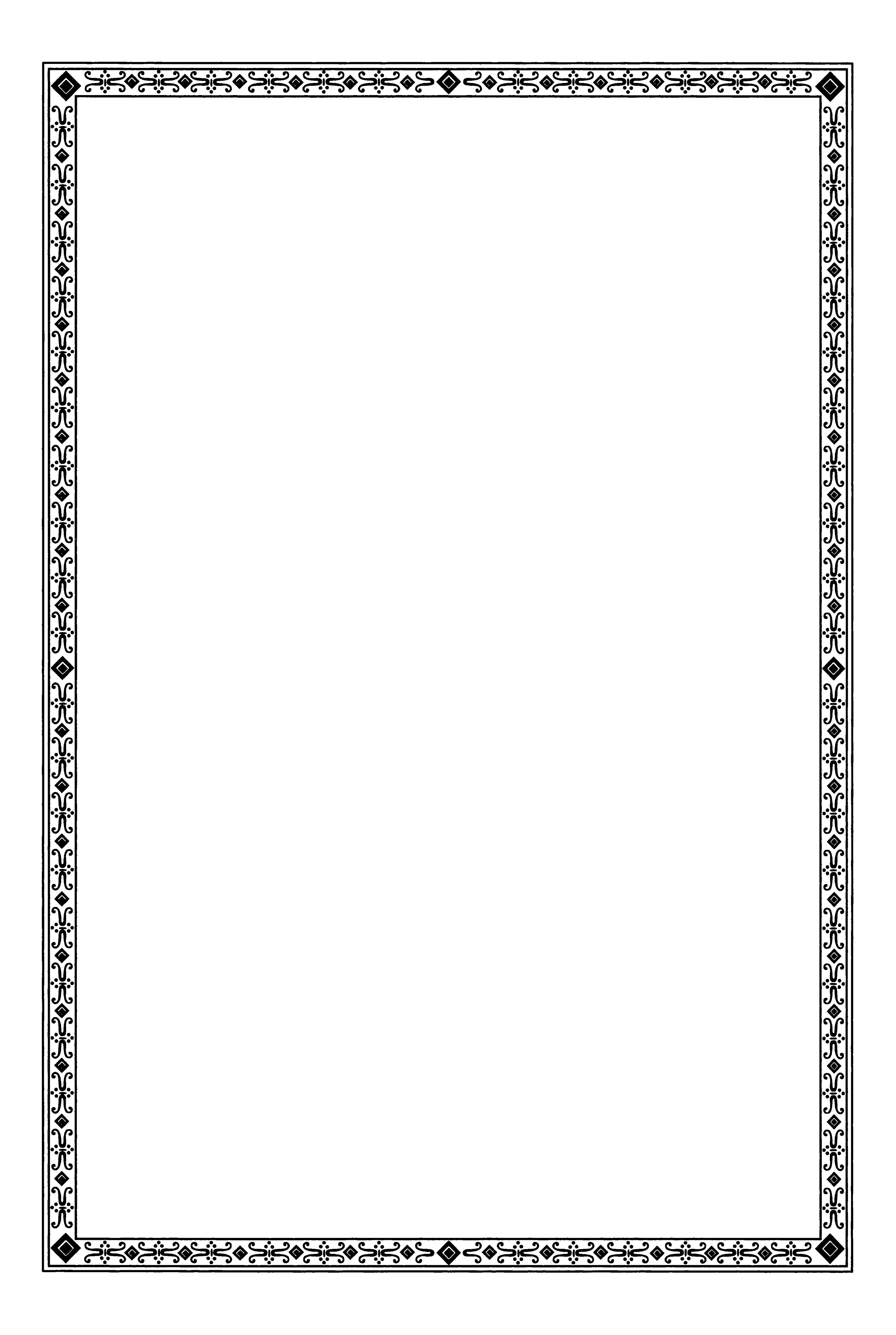
٢٩- إثبات فقر الخلائق كلهم، وحاجتهم إلى الله تعالى، وأن افتقارهم إليه صفة لازمة لهم لا تنفك عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾.

٣٠- التحذير من التولي والإعراض عن الإيمان بالله وتقواه، وتهديد من تولوا باستبدالهم بقوم غيرهم، يؤمنون ويتقون، ولا يكونون أمثالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾.

* * *



تَفسِيرُ سُورَةِ ٱلفَتح



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الفتح بهذا الاسم»، لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١] وتضمنها هذا الفتح العظيم وقصته.

ب- مكان نزولها:

مدنية

جـ - فضلها:

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: «قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة «سورة الفتح» فرجّع فيها»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد أنزلت علي الليل سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:١](٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢-٥] مرجعه من الحديبية، وهم يخالطون الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية. فقال: «**لقد أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا**»(٣).

د- موضوعاتها:

١- ابتدأ الله عز وجل هذه السورة بالأخبار والبشارة للنبي ﷺ بالفتح المبين والمغفرة له وإتمام نعمته تعالى عليه، وهدايته صراطه المستقيم ونصره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح ٤٨٣٥، ومسلم في الصلاة ٧٩٤، وأحمد ٤/ ٨٥- ٦٨، ٥/ ٤٤ ومعنى «فرجع فيها»، أي: ردد القراءة.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٧٧، والترمذي في تفسير سورة الفتح ٣٢٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٦٣.

٢ - الامتنان على المؤمنين بإنزاله عز وجل السكينة في قلوبهم؛ ليزداد إيمانهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾.

٣ - وعد المؤمنين والمؤمنات بإدخالهم الجنات والفوز العظيم، ووعيد المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات بالغضب واللعنة، وبجهنم وساءت مصيرا.

٤ - بيان عظمة ملكه عز وجل، وقوة سلطانه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾.

٥ - بيان الحكمة من إرساله ﷺ وهي الشهادة على الأمة، والبشارة والإنذار: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩)﴾.

٦ - أن مبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)﴾.

٧ - كشف نفاق المخلفين من الأعراب، وفضحهم، وقولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وظنهم ظن السوء، بهلاك الرسول والمؤمنين، وطمعهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾، إلى قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾.

٨- بيان ما يعذر فيه بترك الجهاد: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾.

٩- ذكر رضاه عز وجل عن المؤمنين أهل بيعة الشجرة وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة وكف أيدي الناس عنهم، وهدايتهم صراطًا مستقيمًا: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾.

١٠- امتنانه تعالى بكف أيدي المشركين عن المؤمنين، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين ببطن مكة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

١١- تهييج المؤمنين على قتال المشركين: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

١٢- تأكيد صدق الله عز وجل رسوله ﷺ رؤياه في دخول البيت الحرام: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

١٣- امتنانه عز وجل على العباد بإرسال محمد ﷺ بالهدى ودين الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾﴾.

١٤- ثناء الله عز وجل على النبي ﷺ وصحابته الكرام، وامتداحهم: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ⑦ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ⑩﴾.

سبب النـزول:

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: «أيها الناس، اتهموا أنفسكم؛ فإنا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولـمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا. فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا. فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال: أوفتح هو؟ قال: نعم»[1].

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلًا، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يجبه

(١) أخرجه البخاري في الجزية، إثم من عاهد ثم غدر ٣١٨٢، ومسلم في الجهاد والسير، صلح الحديبية ١٧٨٥.

رسول الله ﷺ، ثم سأله، فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب: ثكلت أم عمر: نَزَرْتَ[1] رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن، فما نشبت أن سمعت صارخًا يصرخ بي، قال: فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، وجئت رسول الله ﷺ، فسلمت عليه، فقال: «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾**»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾، قال المسلمون: يا رسول الله، هنيئًا لك ما أعطاك الله، فما لنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح:٥]»[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾:

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، أي: إنا فتحنا لك يا محمد وللمؤمنين فتحًا عظيمًا بيِّنًا ظاهرًا جليًّا، وأكّد ذلك بقوله: «إنا»، وعظّمه بتنكير «فتحًا»، وبوصفه بقوله: «مبينًا».

و«الفتح»: النصر، والمراد به هنا: صلح الحديبية، وقد جعل الله هذا الصلح العظيم فتحًا ونصرًا؛ لما ترتب عليه من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة، والعاقبة الحميدة، والمآل الحسن؛ كما قال ﷺ لما سأله عمر رضي الله عنه: أوفتح هو؟ قال: «**نعم**».

وعن مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ على الناس:

---

(١) أي: ألححت عليه بالمسألة. انظر: «النهاية»، مادة: «نزر».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٧٧، والترمذي في التفسير، باب: ومن سورة الفتح ٣٢٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٣٩٣٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٨٦، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الفتح ٣٢٦٣.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، فقال رجل من أصحاب رسول الله: أي رسول الله، وفتح هو؟ قال: «**والذي نفسي بيده إنه لفتح**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه: «وما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية»(٣).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «وتعدون الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»(٤).

قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك، أو أكثر»(٥).

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ اللام: للتعليل، و«ما» في الموضعين: موصولة، أي: لأجل أن يغفر لك الله الذي تقدم من ذنبك والذي تأخر منه؛ وذلك لتعظيمه ﷺ أوامر الله ونواهيه، وشعائره وحرماته؛ ولهذا قال ﷺ حين بركت الناقة: «**حبسها حابس الفيل**»، ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يعظمون به حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها**»(٦).

ولهذا أجابهم إلى الصلح مع ما رأى فيه بعض أصحابه من غضاضة عليهم، وكان من ثمرة ذلك أن رتب الله عليه ما لا يحصى من الأجور والمصالح الدينية والدنيوية

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب فيمن أسهم سهمًا ٢٧٣٦، وأحمد ٣/ ٤٢٠.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٤١٥٠.

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٣٦، وانظر: «الأم» ٤/ ١٨٩، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٧.

(٦) أخرجه البخاري في الشروط في الجهاد ٢٧٣٤، وأبو داود في الجهاد، صلح العدو ٢٧٦٥، وأحمد ٢/ ٣٢٣، ٣٢٩، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

والأخروية.

قال ابن كثير[١]: «هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره: «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ».

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفطر رجلاه، فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[٣].

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، «نعمة» مفرد مضاف، فيعم جميع النعم، الدينية والدنيوية والأخروية.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: طريقًا عدلًا لا اعوجاج فيه، بما يشرعه لك من الشرع العظيم، والدين القويم.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾، أي: قويًّا مؤزرًا تامًّا، لا يتضعضع.

فجمع عز وجل له ﷺ في هذه الآية خمس عطايا عظيمة، الأولى: الفتح المبين، والثانية: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والثالثة: إتمام نعمته عليه، والرابعة: هدايته الصراط المستقيم، والخامسة: نصره نصرًا مؤزرًا.

وجمع له بين الهدى والنصر، وهذان الأصلان بهما كمال السعادة والفلاح، فالهدى: العلم النافع بالله ودينه، والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع، والعمل الصالح.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣٠، ومسلم في صفة القيامة، إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة، ما جاء في الاجتهاد في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقام الصلاة، ما جاء في طول القيام في الصلاة ١٤١٩.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠، وأحمد ٦/ ١١٥.

والنصر: القدرة التامة على تنفيذ دينه. وهو عز وجل كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة، وظهور دينه على الدين كله؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩](١).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾، أي: الطمأنينة والثبات، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فاستسلموا لحكم الله ورسوله، وانقادوا له، مع ما في هذا الصلح وشروطه في الظاهر من شدة وثقل عليهم؛ طاعة لله ورسوله، وإيقانًا منهم بأن الخيرة فيما يختاره الله لهم ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٣٦].

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يزدادوا إيمانًا، أي: ليزيدهم الله تعالى إيمانًا مع إيمانهم، بسبب ثباتهم، وتوطينهم أنفسهم، وصبرهم على تلك الشروط التي في ظاهرها غضاضة عليهم، وإجحاف في حقهم، مما لا تكاد تصبر عليه النفوس، فأثابهم الله تعالى على ذلك بأن زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، أي: ولله وحده- خلقًا وملكًا وتدبيرًا- جميع جنود السموات والأرض، من الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن، والريح والمطر وغير ذلك، ولو شاء لأرسل جندًا من جنوده، فانتصر من هؤلاء الكافرين، وأباد خضراءهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾، أي: ذا العلم الواسع المحيط بكل شيء، ﴿حَكِيمًا﴾، أي: ذا الحكم

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٦٧.

التام، والحكمة البالغة.

ولسعة علمه عز وجل، وتمام حكمه وحكمته، شرع الجهاد والقتال، وجعل الأيام دولًا بين الناس، للابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم﴾ [محمد: ٤].

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

سبق في ذكر سبب نزول هذه السورة قول أنس رضي الله عنه: «لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾، قال المسلمون: يا رسول الله، هنيئًا لك ما أعطاك الله، فما لنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾»[1].

قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدخل الله المؤمنين والمؤمنات ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها الأنهار المختلفة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يُخرجون منها، ولا يبغون عنها حولًا.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ﴾، أي: يمحو ويزيل عنهم خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يغفرها لهم، ويتجاوز ويعفو ويصفح عنهم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إدخالهم الجنات وخلودهم فيها، وتكفير سيئاتهم.

﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾، الفوز: الفلاح والظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، و﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ«فوزًا»، أي: فوزًا وفلاحًا لا أعظم منه، ولا يقدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العلي العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ عذابًا حسيًّا ومعنويًّا في الدنيا، بقتل المشركين، وفضح المنافقين، وإقامة الحجة عليهم، وإغاظتهم جميعًا بنصر المسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران:١١٩].

وعذابًا في الآخرة بالنار، وبئس القرار؛ كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦].

وقدم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات؛ لأن المنافقين جمعوا الكفر في الباطن والمخادعة في الظاهر، فهم أشد كفرًا، وأشد ضررًا على الإسلام وأهله، وأشد عذابًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: صفة للمنافقين.

و﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الظانين بالله الظن السيئ، أي: بأنه لا ينصر دينه ونبيه، وأن الرسول ﷺ وأصحابه سيُقتلون ويُستأصلون، ونحو ذلك.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «السُّوءِ» بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: عليهم تدور دائرة العذاب والدائرة السيئة، وعليهم تدور الدوائر.

وهذا حكم من الله عليهم بذلك، وإخبار منه بذلك، وليس دعاء عليهم.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وسخط الله عليهم فاستحقوا نقمته؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم عن رحمته، وطردهم من جنته؛ ولهذا قال:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾، أي: هيأ وجهز لهم نار جهنم، هي مصيرهم ومثواهم؛ لأن من طُرد من الجنة ليس له في الآخرة إلا النار؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود:١٦].

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، أي: وقبحت مستقرًّا ومثوى لهم.

فليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، وقد أحسن القائل:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار(١)

وقد ذُكر أن الإمام أحمد كثيرًا ما كان يتمثل بهذه الأبيات.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كرر الإخبار بهذا؛ لتأكيد كمال عظمته وقوته وقدرته على إهلاك أعدائه، ونصر أوليائه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾، أي: ذا العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمًا﴾ ذا الحكم التام، والحكمة البالغة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾، «شاهدًا»: حال، أي: إنا أرسلناك شاهدًا لله تعالى

---

(١) الأبيات سبق تخريجها.

بالوحدانية؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، وشاهدًا على أمتك بإبلاغك إياهم رسالة ربك، وعلى أعمالهم خيرها وشرها.

كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وشاهدًا للرسل بصدقهم، وتبليغهم رسالات ربهم إلى أقوامهم.

وشاهدًا على الخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

وهذا يشمله هو وأمته عليه الصلاة والسلام؛ لأن شهادة أمته على الناس شهادة بما أخبرهم به ﷺ عن الناس من الأمم قبلهم.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن آمن وأطاع الله بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة.

والتبشير: الإخبار بما يسر.

﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن كفر وعصى الله من الشقاء في الدنيا والآخرة، والنار. والإنذار: التحذير والتخويف مما يضر.

ومن لازم كونه مبشرًا ونذيرًا: تبليغ التكاليف والأوامر والنواهي، ومن ثم البشارة لمن امتثل ذلك، والنذارة لمن خالفه؛ ولهذا قال:

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في: «لِيُؤْمِنُوا» وما عطف عليه، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾، وكذا ما عطف عليه.

واللام: للتعليل، أي: إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا؛ لأجل أن تؤمنوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان بالرسول ﷺ: شهادة أنه رسول الله، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ الضمير يعود إلى الرسول ﷺ، أي: وتناصروه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، أي: وتعظموه وتحترموه وتتأدبوا معه.

ويحتمل عود الضمير إلى الله، أي: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾، أي: وتعزروا الله، أي: تنصروه بنصر دينه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، أي: وتعظموا الله وتجلوه.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ الضمير يعود إلى الله تعالى، أي: وتنزهوا الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وتعبدوه وتذكروه.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره، وهذا ينتظم الصلوات الخمس وأذكار الصباح والمساء، والتعبد لله وتسبيحه في جميع أوقات الليل والنهار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والذين بايعوه هم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إن مبايعتهم لك ما هي إلا مبايعة لله. كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ ولهذا قال:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: هو معهم، يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، ويعلم سرهم ونجواهم، وبواطنهم وظواهرهم، فهو المبايع لهم بواسطة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾ [التوبة: ١١١][1].

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمن نكث البيعة، أي: نقضها، ولم يف بما عاهد عليه الله.

﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط في الموضعين، و«إنما»: أداة حصر، أي: فإنما يعود وبال وضرر نكثه البيعة على نفسه، وعقوبته واقعة عليه، والله غني عنه.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾، أي: ومن أتم الذي عاهد عليه الله، أي: أتى به تامًّا

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣١٢.

وافيًا كاملًا.

﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم ورويس بالياء: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «فَسَنُؤْتِيهِ».

أي: فسيعطيه الله ثوابًا جزيلًا، وجزاءً عظيمًا، لا يقدر قدر عظمته إلا من منحه لهم، ووصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

والمراد بهذه البيعة: «بيعة الرضوان»، التي بايع بها الصحابة رسول الله ﷺ يوم الحديبية تحت الشجرة، وكان سبب هذه البيعة العظيمة: أنه لما أرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش؛ ليبلغهم أنه ﷺ لم يأتِ لحرب، وأنه إنما جاء معتمرًا زائرًا لهذا البيت، معظمًا حرمته، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت «بيعة الرضوان» تحت شجرة سمرة في الحديبية؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨](١).

وكان عدد الصحابة رضي الله عنهم الذين شهدوا هذه البيعة العظيمة ألفًا وأربع مئة، أو ألفًا وخمس مئة، وقيل غير ذلك.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة»(٢).

وعنه رضي الله عنه: «كنا خمس عشرة مئة»(٣).

وعن قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: بلغني أن جابر بن عبدالله كان يقول: «كانوا أربع عشرة مئة. فقال لي سعيد: حدثني جابر: كانوا خمس عشرة مئة الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية»(٤).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣١٥- ٣١٦، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣١٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح ٤٨٤٠، ومسلم في الإمارة، استحباب مبايعة الإمام الجند عند إرادة القتال وبيعة الرضوان ١٨٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٤١٥٢، ومسلم في الباب السابق ١٨٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في الباب السابق ٤١٥٣.

ونحن أربع عشرة مئة»[١].

وعن عبدالله بن أبي أوفى، قال: «كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلاث مئة»[٢].

قال ابن كثير[٣] بعدما ذكر قول سعيد بن المسيب أن جابرًا حدثه أنهم كانوا خمس عشرة مئة: «والمشهور الذي رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مئة، وهذا هو الذي رواه البيهقي... عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفًا وأربع مئة». وكذا هو في رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار والبراء بن عازب، وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي».

واختلف: هل مبايعتهم رسول الله ﷺ كانت على ألا يفروا، أو كانت على الموت؟ فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون؟ قال: على الموت»[٤].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت»[٥].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه، قال: «لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر»[٦].

والخُلف في هذا يسير، والمراد: أنهم بايعوا رسول الله ﷺ ألا يفروا ولو هلكوا عن آخرهم.

وقد بايع ﷺ بيده الشريفة عن عثمان رضي الله عنه، فعن أنس بن مالك رضي الله

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، غزوة ذي قرد ١٨٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٥٥، ومسلم في الموضع السابق ١٨٥٧.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٣١٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٦٠، ومسلم في الموضع السابق ١٨٦٠، والنسائي في البيعة ٤١٥٩، والترمذي في السير ١٥٩٢.

(٥) أخرجه مسلم في الموضع السابق ١٨٥٦، والنسائي في البيعة ٤١٥٨، والترمذي في السير ١٥٩١.

(٦) أخرجه مسلم ١٨٥٨.

عنه، قال: «لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان، كان عثمان بن عفان رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم**»[1].

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين بصلح الحديبية، وأنه فتح عظيم بيِّن ظاهر جلي؛ لما ترتب عليه من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الآيات.

٢- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له، وتكريمه بما أجزل عز وجل له من العطايا في هذه الآيات، من الفتح المبين، ومغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عز وجل عليه، وهدايته إياه الصراط المستقيم، ونصره نصرًا مؤزرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

٣- أن فتح القلوب للإيمان أعظم من فتح البلدان؛ حيث كان هذا سببًا في دخول كثير من الناس في الإسلام.

٤- اختصاص الله عز وجل له ﷺ من بين سائر الخلق بمغفرته له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

٥- إتمام نعمته عليه في الدين والدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

٦- هدايته له الصراط المستقيم، بما شرع له من الشرع العظيم، والدين القويم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾.

٧- نصر الله عز وجل له ﷺ نصرًا قويًّا مؤزَّرًا، وإظهاره لدينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

٨- نعمة الله تعالى العظيمة على المؤمنين في إنزال السكينة والطمأنينة عليهم،

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٠٢، وذكره ابن كثير من رواية البيهقي ٧/ ٣١٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

وتثبيت قلوبهم في هذا الموقف الصعب؛ حيث صدهم المشركون عن البيت، واشترطوا في الصلح تلك الشروط التي في ظاهرها غضاضة عليهم، فاستسلموا وانقادوا لحكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٩- زيادة إيمانهم بسبب ثباتهم وتوطينهم أنفسهم وصبرهم، واستسلامهم وانقيادهم لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

١٠- إثبات أن الإيمان يزيد وينقص؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة وغيرهم ممن ينفون زيادة الإيمان ونقصانه.

١١- كمال قوة الله وتمام قدرته؛ فله جنود السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فلو شاء أرسل على هؤلاء الكافرين جندًا من جنده فأهلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٢- إثبات سعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾.

١٣- إثبات صفة الحكم والحكمة له عز وجل، وأنه سبحانه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

١٤- أن الله عز وجل أنزل السكينة في قلوب المؤمنين، وثبتهم ليزداد إيمانهم؛ ليدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ويمحو ذنوبهم، وعدًا عليه حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

١٥- أن هذا هو الفوز العظيم عند الله؛ لأن الله جمع لهم فيه بين حصول المطلوب، بدخول الجنات، والتمتع بما فيها من النعيم، وبين السلامة من المرهوب، بتكفير سيئاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

١٦- أن الفوز لا يتم إلا بحصول المطلوب، والنجاة من المرهوب؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

١٧- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للمنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات

ذوي الظن السيئ بالله، بأنه لا ينصر دينه ونبيه، وأن الرسول ﷺ وأصحابه سيُقتلون ويُستأصلون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

١٨- أن المنافقين أشد كفرًا وخطرًا على الإسلام وأهله، وأشد عذابًا؛ ولهذا قدمهم على المشركين.

١٩- التحذير من النفاق والشرك وسوء الظن بالله؛ لأن ذلك موجب للعذاب.

٢٠- حكم الله تعالى وقضاؤه بأن الدائرة السيئة عليهم، عقوبة لهم، وتخييبًا لظنهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

٢١- غضب الله تعالى عليهم، وطردهم من رحمته وجنته، وإعداده نار جهنم منزلًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾.

٢٢- أن جهنم موجودة الآن معدة للكافرين، وأنها بئس المصير والمنزل والمثوى لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

٢٣- تأكيد قوته عز وجل وكثرة جنده، وتمام قدرته على إهلاك الكافرين، ونصرة المؤمنين، وكمال عزته وتمام حكمه وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

٢٤- إثبات صفة العزة لله تعالى بأقسامها: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

٢٥- إثبات رسالته ﷺ، وأن الله أرسله شاهدًا بوحدانيته عز وجل، وشاهدًا على أمته بإبلاغهم رسالة ربه، وعلى أعمالهم، وعلى الرسل بصدقهم وتبليغهم رسالات ربهم، وشاهدًا هو وأمته على الأمم السابقة، ومبشرًا لمن أطاعه بالجنة، ونذيرًا لمن عصاه بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾.

٢٦- أن الحكمة من إرساله ﷺ دعوة الناس إلى الإيمان بالله، وعبادته وتسبيحه، وتصديقه ﷺ، ونصرته، وتوقيره؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾.

٢٧- مشروعية تسبيح الله تعالى وعبادته بكرة وأصيلًا، وفي جميع الأوقات.

٢٨- تعظيم شأن مبايعة المؤمنين له ﷺ، وأنها مبايعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

٢٩- إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

٣٠- التحذير من نقض البيعة، وأن من نقضها فوبال وضرر نقضه على نفسه، والله غني عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

٣١- فضيلة أهل بيعة الرضوان، وعظم ما أعد الله لهم من الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣٢- الترغيب بالوفاء بعهد الله، والتنويه بشأن من أتم ما عاهد عليه الله، ووعد الله له بإيتائه أجرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣٣- تكفله عز وجل بثواب من أوفى بما عاهد عليه الله؛ لتسميته له أجرًا.

٣٤- أخذ بعض أهل العلم من الآية استحباب مبايعة الإمام الجند عند إرادة القتال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾، أي: سيقول لك يا محمد، والسين: للاستقبال.

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، أي: الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى مكة، عند رجوعك إلى المدينة، معتذرين عن تخلفهم كذبًا ونفاقًا.

وأطلق عليهم: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾، ولم يقل: «المتخلفون»؛ تحقيرًا لهم.

﴿شَغَلَتْنَآ﴾، أي: شغلتنا عن الخروج معك ﴿أَمْوَٰلُنَا﴾، أي: انشغلنا بأموالنا، من المواشي والمزارع والتجارة وغير ذلك، ﴿وَأَهْلُونَا﴾ من الأزواج والأولاد.

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، أي: فاطلب من الله واسأله المغفرة لنا، وهذا منهم ليس على سبيل الاعتقاد، وإنما على سبيل النفاق والمصانعة؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ ظاهرًا ﴿مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، «ما»: مصدرية، أي: قولًا ليس في قلوبهم.

أي: قولًا مخالفًا لما في قلوبهم، فظاهر قولهم هذا: الاعتذار والتوبة والندم بطلب الاستغفار، ولكن الذي في قلوبهم وباطنهم: الشك والنفاق وسوء الظن والكفر الكُبّار.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الاستفهام للنفي، و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا أحد يملك لكم من الله أيَّ شيء.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الضاد: «ضُرًّا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ضَرًّا﴾.

أي: لا أحد يقدر على دفع ما أراد الله بكم، فإن أراد بكم ضرًّا فلا أحد يدفعه، وإن أراد بكم نفعًا فلا أحد يمنعه.

والضر: كل ما يُتضرر به، والنفع: كل ما يُنتفع به.

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، «بل»: للإضراب في الموضعين، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بل كان الله بعملكم، أو بالذي تعملونه.

﴿خَبِيرًۢا﴾، أي: عليمًا مطلعًا على باطنه وظاهره، ودقيقه وجليله، وخفيِّه وجليِّه، فهو أعلم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتمونا، وأظهرتم لنا خلاف ذلك.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: بل اعتقدتم أن لن

يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا، أي: أنهم سيُقتلون ويُستأصلون، ولا يرجع منهم مخبر، وأن الله لن ينصر رسوله ودينه.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي: وزيَّن ذلك الظن السيئ في قلوبكم الشيطان والأنفس الأمارة بالسوء.

أو زُين ذلك قدرًا في قلوبكم، أي: قدر الله ذلك عليكم وزينه في قلوبكم، وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تحقيرًا له.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾، أي: الظن السيئ، وهو أن الله لن ينصر دينه ورسوله ومن معه من المؤمنين، وأنهم سيقتلون، وتُستباد خضراؤهم.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾: البُور، والبَوار: الهلاك والخسار، أي: قومًا هالكين خاسرين، لا خير فيكم.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: ويَنقَدْ لما أمر الله به ورسوله.

﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: فإنا أعددنا وهيأنا وجهزنا للكافرين أمثالِه.

﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا مسعورة متوقدة. وفي هذا تهديد ووعيد له.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ولله وحده جميع الذي في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾، أي: يغفر للذي يشاؤه من عباده بفضله عز وجل، وهم الذين آمنوا به واتقوه، فيستر ذنوبهم عن الخلق، ويتجاوز عنهم، فلا يعذبهم بها.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾، أي: ويعذب الذي يشاؤه من عباده بعدله، وهم الذين كفروا به وعصوه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه، وذا رحمة واسعة لعباده.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)﴾:

قوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾، أي: الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية.

﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعنون: مغانم خيبر التي وعد الله بها أهل الحديبية خاصة؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾.

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، أي: اتركونا نتبعكم ونخرج معكم، أي: لنشارككم المغنم، وفي هذا ما يشعر أن الرسول ﷺ وأصحابه منعوهم من الخروج معهم.

تخلفوا عن الجهاد والقتال، ومبايعة الرسول ﷺ على الثبات وعدم الفرار حتى الموت، ويطمعون في مغنم خيبر، يريدون مغنمًا بلا مغرم!

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «كَلِمَ» بكسر اللام من غير ألف، وقرأ الباقون: ﴿كَلَٰمَ﴾ بفتح اللام وألف بعدها.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يريدون»، أي: يريدون تبديل كلام الله، وهو وعده أهل الحديبية خاصة بمغانم خيبر.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، أي: لن يقع ذلك؛ لأن الله لم يأذن بذلك لا شرعًا ولا قدرًا، ولن يأذن به، وذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فحيث تخلفوا عن الجهاد والقتال، عوقبوا بحرمانهم من الغنيمة.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: وعد أهل الحديبية مغانم خيبر، وخصهم بها قبل سؤالكم اتباعهم ومشاركتهم المغانم.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾، «بل»: للإضراب في الموضعين، أي: بل تحسدوننا أن نشارككم في المغانم، أي: ليس السبب في منعكم لنا من اتباعكم قول الله، بل حسد منكم لنا أن نشارككم في المغانم.

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ليس الأمر كما يزعمون أن منعنا إياهم حسدًا لهم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لا يفهمون إلا قليلًا، ولهذا لم يعرفوا الحكمة في منعهم من المشاركة في المغانم، وأن ذلك بسبب امتناعهم من الجهاد والقتال.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾.

قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ﴾ مستقبلًا ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: أصحاب قوة وشدة في الحرب.

﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾ إن لم يسلموا، ولم يدفعوا الجزية، ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ فتتركون قتالهم.

وقد اختلف المفسرون في المراد بهؤلاء القوم على أقوال، ليس على شيء منها دليل ولا برهان، فهم قوم أولو بأس شديد، وكفى.

﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾، أي: وإن تمتثلوا وتستجيبوا لأمر الله ورسوله، وتنفروا للجهاد مع المؤمنين.

﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو ما وعد به عز وجل المجاهدين في سبيله من الأجر العظيم.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾، أي: وإن تعرضوا بقلوبكم، وتتولوا بأبدانكم عن طاعة الله ورسوله، والجهاد في سبيله.

﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم﴾، أي: كما توليتم وأعرضتم عن ذلك ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي: زمن الحديبية، حيث دُعيتم للجهاد فتخلفتم.

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا، حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا والآخرة.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، أي: ليس على هؤلاء الثلاثة إثم ولا ذنب في ترك الجهاد بسبب هذه العلل، وهي: العمى وفقدان البصر، والعرج الذي لا يستطيع صاحبه معه مجابهة الأصحاء، والمرض الذي لا يستطيع صاحبه معه القتال.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بفعل ما أمر الله به ورسوله، والجهاد في سبيل الله.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون، وقرأ

الباقون بالياء: ﴿يُدْخِلْهُ﴾. وفي هذا ترغيب في الجهاد وطاعة الله ورسوله.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون: «نُعَذِّبْهُ»، وقرأ الباقون: ﴿يُعَذِّبْهُ﴾، أي: ومن يتول وينكل عن الجهاد، ويعرض عن طاعة الله تعالى ورسوله، يعذبه الله في الدنيا والآخرة.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا، ومنه المذلة في الدنيا، والنار في الآخرة. وفي هذا تحذير من ترك الجهاد، والتولي عن طاعة الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق.

أي: والله لقد رضي الله عن المؤمنين، أي: أحل رضاه عليهم، وكانوا- كما تقدم- ألفًا وأربع مئة.

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾، «إذ»: ظرف في محل نصب، والخطاب للنبي ﷺ، أي: إذ يبايعونك على ألا يفروا ولو هلكوا عن آخرهم.

﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، «تحت»: ظرف في محل نصب، أي: في ظل الشجرة، وهي: سمرة في الحديبية.

فأخبر عز وجل برضاه عنهم، وأقسم على ذلك؛ ولهذا سُمِّيت: «بيعة الرضوان»، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وأذل الرافضة ولعنهم، وأهلكهم وأخزاهم. كما يقال لها أيضًا: بيعة أهل الشجرة؛ لأنها وقعت في ظل شجرة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الفاء: عاطفة في الموضعين، و«ما»: موصولة، أي: فعلم الذي في قلوبهم من قوة الإيمان واليقين، والإخلاص والصدق، والوفاء والسمع والطاعة، والثقة بوعد الله ونصره.

وعلم ما في قلوبهم أيضًا: من الغيظ والقلق والاضطراب بسبب منع المشركين لهم

من دخول البيت، وحبس الهدي، ومنعه من بلوغ محله، واشتراطهم في الصلح تلك الشروط الجائرة الظالمة، التي يصعب تحملها، والصبر عليها، لولا لطف الله بهم، وعونه لهم بإنزاله السكينة عليهم، فشهد عز وجل لهم بالإخلاص له، وبما ألمَّ بقلوبهم بسبب انتهاك حرماته، وصدهم عن الحرم، ومنع الهدي من وصول مَحِلِّه.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: فأنزل الطمأنينة والثبات على قلوبهم؛ كما قال في أول السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح:٤].

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ﴾، أي: وأعطاهم ثوابًا وجزاءً عاجلًا على يقينهم وثباتهم وصبرهم، ﴿فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ هو فتح خيبر، فخصهم بها وبمغانمها؛ ولهذا قال:

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾، أي: من خيبر وأرضها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ كرر هذا في السورة؛ لتأكيد أنه عز وجل ذو العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة، وأنه لو شاء لانتصر من الكفار، ولكنه أراد ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران:١٤١].

ومما ينبغي أن يُعلَم: أن الحكمة في تكرار ذكر أسماء الله تعالى وصفاته، وبعض الأحكام والأخبار والقصص وغير ذلك: هي ترسيخ وتثبيت المعاني العظيمة المستخلصة من تلك النصوص في القلوب والأذهان، وأهمها عظمة الله وكمال أسمائه وصفاته، وتربية النفوس بذلك؛ لأن القرآن منهج حياة؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خُلُقِه ﷺ، قالت: «كان خُلُقُه القرآن»(١).

الفوائد والأحكام:

١- اعتذار الذين تخلفوا من الأعراب عن الخروج إلى مكة من النبي ﷺ عند رجوعه، بانشغالهم بأموالهم وأهليهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، وقد جمعوا في هذا بين الكذب، والاعتذار بما ليس بعذر.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١.

٢- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾.

٣- علم الله تعالى الغيب، وما سيكون؛ لقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ الآية.

٤- أن الأعراب سكان البوادي أقرب إلى الجفاء وضعف الإيمان؛ لبعدهم عن العلم وأهله.

٥- لا يجوز الانشغال بالأموال والأهل وغير ذلك عن طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله.

٦- طلب هؤلاء المتخلفين من النبي ﷺ الاستغفار لهم؛ إمعانًا منهم في النفاق؛ لقولهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾.

٧- فضح الله لهم، وبيانه نفاقهم، وأنهم يقولون بألسنتهم قولًا يخالف ما في قلوبهم، من الكفر والنفاق والكذب؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾.

٨- وجوب الإخلاص لله، والحذر من النفاق ومخالفة الباطن للظاهر.

٩- أنه لا أحد يملك لأحد من الله شيئًا، لا دفع ضر، ولا جلب نفع؛ لأن جلب الضر ودفعه، وجلب النفع ومنعه كل ذلك بيد الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾.

١٠- ذم هؤلاء المخلفين وتحقيرهم؛ حيث يظهرون الحسن للناس الذين لا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًّا، ويجاهرون الله بالنفاق والكفر والكذب في قلوبهم؛ لأن الله يعلم سرهم ونجواهم؛ ولهذا سماهم الله: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ ولم يقل: «المتخلفون».

١١- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، وهي المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾، وقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾.

١٢- علم الله تعالى التام بأعمالهم، دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لهم بمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم.

١٣- ظنهم السيئ بأن الله لن ينصر رسوله ودينه، وأن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبدًا، بل سيقتلون ويستأصلون، وتزيين ذلك في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

١٤- توبيخهم على هذا الظن السيئ الباطل، وذمهم ونعتهم بالبوار والهلاك والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

١٥- الترغيب بالإيمان بالله ورسوله، وتحذير من لم يؤمن بالله ورسوله، وأنه كافر، ومصيره النار المسعورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

١٦- أن النار موجودة مسعرة الآن، أعدها الله للكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

١٧- سعة ملك الله عز وجل، وأن له وحده جميع الذي في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

١٨- مغفرته عز وجل لمن يشاء من عباده بفضله، وتعذيبه من يشاء منهم بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

١٩- إثبات صفتي: «المغفرة» و«الرحمة» الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢٠- طلب هؤلاء المخلفين المشاركة في المغانم مع تخلفهم عن الجهاد؛ طمعًا في المغنم دون الغرم؛ لقولهم للمؤمنين: ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾.

٢١- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبور على أفعاله وأقواله.

٢٢- وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر، وأنها لهم خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، وهو وعده لهم بذلك؛ لقوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

٢٣- أنه لا تبديل لكلمات الله، ولا خُلف لوعده.

٢٤- أمر الله للنبي ﷺ بمنعهم من اتباعهم؛ لأنه عز وجل لن يأذن لهم بذلك، لا قدرًا ولا شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

٢٥- زعمهم أن منع المؤمنين لهم من اتباعهم حسد من المؤمنين لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

٢٦- قلة فقههم وفهمهم، وعظم جهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٢٧- إخبارهم بأنهم سيُدْعَوْن مستقبلًا امتحانًا لهم إلى قوم أصحاب قوة وشدة في الحرب، يقاتلونهم إن لم يسلموا، أو يسلمون فلا يقاتلونهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

٢٨- حثهم على طاعة الله والجهاد في سبيله، ووعدهم بالأجر الحسن، وتحذيرهم من التولي والإعراض عن ذلك كما تولوا من قبل، وتهديدهم بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٩- تكفله عز وجل بأجرهم إن هم أطاعوا؛ لتسميته له: «أجرًا».

٣٠- أنه لا حرج ولا إثم على الأعمى والأعرج والمريض في تركهم الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٣١- رفع الحرج عن هذه الأمة بهذه الشريعة المطهرة، وأن المشقة تجلب التيسير.

٣٢- الترغيب بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، بذكر ما أعد الله لمن امتثل ذلك من الجنات، وما فيها من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٣٣- الترهيب من التولي عن طاعة الله ورسوله، وعن الجهاد في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٣٤- إخباره عز وجل برضاه عن المؤمنين حين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة على الثبات وعدم الفرار، وتأكيده عز وجل رضاه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

ورضاه عز وجل من أعظم وأفضل ما أعطاه لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(١).

٣٥- علمه عز وجل ما في قلوبهم من الإيمان واليقين، والإخلاص والصدق، والوفاء، والثقة بنصر الله ووعده، وما فيها من الغيظ والقلق بسبب منع المشركين لهم عن البيت، وحبسهم الهدي، وامتنانه بإنزال السكينة والطمأنينة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

٣٦- إثابته عز وجل ومجازاته إياهم على ذلك بفتح قريب، هو فتح خيبر ومغانمها، وتخصيص ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

٣٧- إثبات صفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٩، ومسلم في الإيمان ١٨٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ وهي كل غنيمة يغنمها المسلمون في حروبهم إلى يوم القيامة؛ لأن الله اختص هذه الأمة لشرف نبيها، وفضلها بالغنائم من

بين الأمم؛ كما قال ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي**»[١].

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ وهي فتح خيبر وغنيمتها.

قال ابن كثير[٢]: «فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه، بعضها عَنْوة وبعضها صلحًا، وهي إقليم عظيم، كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم، إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه وأبو موسى الأشعري وأصحابه».

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، أي: منع أيدي الناس من مشركي مكة وغيرهم من أن تمتد لقتالكم أو أذاكم بسبب هذا الفتح المبين، والصلح العظيم المبارك، وهذا تنبيه على نعمة عظيمة غفلوا عنها، وهي نعمة السلم، وامتنان عليهم بها.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولتكون هذه الغنيمة التي عجلها الله للمؤمنين، وهي غنيمة خيبر ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: علامة لهم على صدق وعد الله عز وجل لهم بالمغانم الكثيرة.

وأيضًا: لتكون هذه المنة من الله عليهم بكف أيدي الناس عنهم آية وعلامة لهم على عناية الله بهم، وحفظه ونصره لهم، وأنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لهم، وإن كرهوه في الظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: ويهديكم طريقًا عدلًا قويمًا، يدلكم عليه، ويوفقكم إليه وفيه، بسبب طاعتكم، وانقيادكم لأمر الله ورسوله.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾، أي: ووعدكم غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، ولم تحصل لكم الآن.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٣٧.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، أي: علمها، وقدر عليها، وأعدها لكم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، أي: لا يعجزه شيء.

واختلف المفسرون في المراد بهذه الغنيمة الموعود بها، فمنهم من قال: فتح مكة، ومنهم من قال: فارس والروم، ومنهم من قال: كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، وهذا أعم وأشمل.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم. ﴿لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لانهزموا وولوكم ظهورهم؛ لإلقائه عز وجل الرعب في قلوبهم، وجبنهم وشدة خوفهم، وتأييده عز وجل ونصره لكم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولاهم ويجلب لهم النفع والخير، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويدفع عنهم الضر والشر؛ لخذلان الله عز وجل لهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾، أي: هذه سنة الله وطريقته وعادته التي قد مضت من قبل بنصرة أوليائه المؤمنين، وهزيمة أعدائه الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أي: فسنته ثابتة لن تتبدل ولن تتغير، بنصرة أوليائه، وهزيمة أعدائه، وإنجاء المؤمنين، وإهلاك المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

سبب النزول:

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مئة- ثم ذكر دعوة النبي ﷺ للبيعة، ومبايعته أول من بايع.. إلى أن قال: «فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فكسحت

شوكها[١]، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قُتل ابن زُنَيم. قال: فاخترطت سيفي، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم فجعلته ضغثًا في يدي[٢]. قال: والذي كرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه. قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات، يقال له: مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجَفَّف[٣] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «**دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثِناه**[٤]»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾» [٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلمًا فاستحياهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾» [٦].

وفي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما: أن سبب نزول هذه الآية: قصة أبي جندل، قالا: «خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق».

فذكرا الحديث، إلى أن قالا: «وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي

---

(١) أي: كنست وأزلت شوكها.

(٢) أي: حزمة في يدي.

(٣) أي: عليه تَجْفاف، وهو شيء من سلاح يترك على الفرس يقيه الأذى.

(٤) أي: أوله وآخره.

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، غزوة ذي قرد وغيرها ١٨٠٧.

(٦) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ١٨٠٨، وأبو داود في الجهاد، المن على الأسير بغير فداء ٢٦٨٨، والترمذي في التفسير، تفسير سورة الفتح ٣٢٦٤، وأحمد ٣/ ١٢٢.

بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم: لما أرسل: فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت»(١).

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾، أي: وهو سبحانه الذي كف أيدي المشركين عنكم، أي: منع أيديهم أن تمتد إليكم بقتل أو أذى، والمراد بهم: الذين هبطوا من التنعيم يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، وكانوا ثمانين رجلًا، وقيل: أقل من ذلك.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾، أي: وكف أيديكم عنهم، أي: منع أيديكم أن تمتد إليهم بقتل أو أذى؛ حيث أخذهم النبي ﷺ سلمًا فاستحياهم، وعفا عنهم.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، أي: بالحديبية أسفل مكة(٢). و«البطن»: يطلق على أسفل المكان.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: من بعد أن أقدركم عليهم، وأمسكتم بهم.

وفي هذا امتنان على المؤمنين في كف أيدي المشركين عنهم، وكف أيديهم عن المشركين، ومن ثم الصلح بينهم، مما كان فيه الخيرة والعاقبة الحسنة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، أي: بعملكم أو بالذي تعملونه، بصيرًا، أي: عالمًا به مطلعًا عليه، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) أخرجه البخاري في الشروط في الجهاد ٢٧٣٤، وأحمد ٢/ ٣٢٣- ٣٢٩.

(٢) الحديبية موضع مشهور بين مكة وجدة في طريق جدة القديم، ويعرف اليوم بالشميسي، وهي ليست من الحرم، وتبعد عن حدود الحرم حوالي:١.٥ كم، وتبعد عن الحرم قرابة ٢٥ كم.

لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، «هم» يعني: مشركي قريش، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ بالله وبكل ما أوجب الله الإيمان به، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: ومنعوكم من دخول المسجد الحرام، وأداء مناسك العمرة، بغيًا وعدوانًا، وأنتم أهل الحرم وأحق به.

﴿وَٱلْهَدْىَ﴾، أي: وصدوا الهدي، وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ؛ ليهديها في الحرم.

﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، أي: محبوسًا ممنوعًا، ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾: «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من بلوغ محله، الذي يحل به نحره، وهو الحرم.

﴿وَلَوْلَا﴾، أي: ولولا وجود ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ مستضعفون مستَخْفون بإيمانهم بين أظهر المشركين خوفًا على أنفسهم منهم.

﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾، أي: لم تعلموا أعيانهم وأماكنهم من بين الكفار، والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: خشية أن تطؤوهم، أي: تتعرضوا لهم بقتل أو أذى؛ لعدم تميزهم عن الكفار.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: إثم وذنب وتبعة وغرم بغير علم منكم بذلك، وبغير قصد.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدخل الله في رحمته الذي يشاء منهم، فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر، والهدى بعد الضلال.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾، أي: لو تزيل الكفار من المؤمنين، أي: تميزوا، وانفصل بعضهم عن بعض بأعيانهم وأماكنهم.

﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لعذبنا الذين كفروا عذابًا مؤلمًا موجعًا، بتسليطكم عليهم، وقتلهم وإهلاكهم.

فمنع الله العذاب عنهم، وأخَّر عقوبتهم؛ لوجود بعض المؤمنين والمؤمنات بين ظهرانَيْهم، وليدخل عز وجل في رحمته من يشاء منهم، فيمن عليهم بالهداية والإيمان.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾، أي: الأنفة القبيحة السيئة.

﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الباطلة المقيتة، وذلك بصدهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام في تلك السنة؛ لئلا يقال: إن محمدًا دخلها هو وأصحابه قهرًا عن قريش، وامتناعهم من كتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ومن كتابة «محمد رسول الله».

كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما: فقال النبي ﷺ: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**». فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»؛ كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «**اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: هذا ما قاضى عليه رسول الله ﷺ**». قال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله. فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبدالله**»(١).

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أنزل عليهم السكينة في قلوبهم، وهي الطمأنينة والثبات والأناة والتعقل، ودفع عنهم العجلة والانتقام.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بألسنتهم، وهي قول: لا إله إلا الله، وامتثال ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله بجوارحهم، فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله ورسوله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله، مع ما فيها من غضاضة عليهم.

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾، أي: وكان المؤمنون أحق وأجدر بكلمة التقوى ولزومها، ﴿وَأَهْلَهَا﴾، أي: وكانوا أهلها خاصة دون غيرهم.

---

(١) سبق تخريجه.

فبسبب إنزاله عز وجل سكينته عليهم، وإلزامهم كلمة التقوى، وكونهم أحق بها وأهلها، اهتدوا بها إلى كل خير، وبسبب جعل الذين كفروا في قلوبهم حمية الجاهلية، صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، ولم يقروا بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، ولا بأنه ﷺ رسول الله، فقادتهم إلى كل شر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ [طه:٩٨].

ومن واسع علمه عز وجل علمه بأن المؤمنين أحق وأولى وأجدر بكلمة التقوى من غيرهم، وأنهم هم أهلها دون من سواهم.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾:

قال ابن كثير(١): «كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو في المدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك، على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء».

كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: قال عمر: «أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «**بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» قلت: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوِّف به**». فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر... أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنت آتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه وتطوف به» (٢).

قوله: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: صدق الله رسوله الرؤيا التي أراه إياها في المنام من دخوله

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٣٧.

(٢) سبق تخريجه.

البيت والطواف به، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالحق الثابت الواقع، أي: لا بد من وقوعها وصدقها.

﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: حال كونكم آمنين في حال دخولكم.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، أي: حال كون بعضكم محلقين رؤوسهم، وبعضكم مقصرين لها، وقدَّم التحليق؛ لأنه أفضل وأولى من التقصير.

قال ﷺ: «**اللهم اغفر للمحلقين**». قالوا: وللمقصرين. قال: «**اللهم اغفر للمحلقين**». قالوا: وللمقصرين. قال: «**اللهم اغفر للمحلقين**». قالوا: وللمقصرين. قال: «**وللمقصرين**»(١).

وفي ذكر التحليق والتقصير فقط دون بقية مناسك العمرة إشارة إلى تمكنهم من إتمام عمرتهم؛ لأن الحلق أو التقصير آخر أعمال العمرة.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير «مقصرين»، وهي مؤكدة في المعنى للحال «آمنين».

فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال أدائهم عمرتهم، وإتمامهم لها، وحال مكثهم في الحرم، وكان هذا في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحًا عليهم إلا سيوفًا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أقام بها ثلاثًا أمروه أن يخرج، فخرج»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، الحلق والتقصير ١٧٢٨، ومسلم في الحج، تفضيل الحلق على التقصير، وجواز التقصير ١٣٠٢، وابن ماجه في المناسك ٣٠٤٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح ٢٧٠١.

قال ابن كثير[١]: «فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون، فلما كان قريبًا من مر الظهران، بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رُعبوا رعبًا شديدًا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه نكث العهد الذي بينه وبينهم، من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم[٢]، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج[٣]، وسار بالسيوف مغمدة في قُرُبها؛ كما شارطهم عليه، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «**وما ذاك؟**» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: «**لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج**». فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفر من مكة؛ لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه غيظًا وحنقًا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى[٤]، وهو راكب ناقته القصواء، التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبدالله بن رواحة آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها».

﴿فَعَلِمَ﴾، أي: فعلم الله ﴿مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾، «ما»: موصولة، أي: ما لم تعلموه من الحكمة والخيرة والمصلحة والمنافع العظيمة.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: من دون ذلك الدخول، أي: قبل دخولكم الذي وعدكم الله به فيما أراه لنبيه ﷺ.

﴿فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ وهو: صلح الحديبية الذي كان بينكم وبين أعدائكم المشركين، ومن ثم فتح خيبر.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٣٧- ٣٣٨.

(٢) علامات حدود الحرم.

(٣) يأجج على ثمانية أميال من مكة.

(٤) موضع عند مكة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾، أي: بالبيان والعلم النافع.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو العمل الصالح، فمن وفق للأخذ بهذين الأمرين فهو الموفق حقًّا؛ لأنهما رأس مال المؤمن في هذه الحياة.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ اللام: للتعليل، أي: ليعلي ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق على الأديان كلها.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق رسالته ﷺ، وأنه جاء بالهدى ودين الحق.

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا (٢٩)﴾:

هذه الآية مع قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [الآية:١٥٤]، هما أجمع آيتين لحروف الهجاء.

قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين.

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، أي: أعزة أقوياء على الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التوبة:٧٣، التحريم:٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾ [التوبة:١٢٣].

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾، أي: متراحمون فيما بينهم، متحابون متعاطفون.

كما قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الناس والبهائم ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة، تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٦؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» وشبك بين أصابعه[1].

﴿تَرَىٰهُمْ﴾ الخطاب لغير معين، أي: تشاهدهم.

﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أي: حال كونهم ركعًا سجدًا، أي: تراهم في أكثر الأحوال يصلون ويتعبدون.

وذكر حالة الركوع والسجود؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة؛ ففي الركوع تعظيم الرب، وفي السجود القرب منه.

وذكَرَ الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات، وسبب للقيام بما دونها من العبادات.

﴿يَبْتَغُونَ﴾، أي: مخلصون لله، يطلبون ويريدون في شدتهم على الكافرين، ورحمتهم فيما بينهم، وكثرة صلاتهم وعبادتهم.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: ثوابًا من الله وأجرًا في الدنيا بالحياة الطيبة وسعة الرزق، وفي الآخرة الجنة ونعيمها.

﴿وَرِضْوَٰنًا﴾، أي: ورضاه عز وجل، وهو أكبر من الأول؛ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

فغايتهم ومقصودهم: بلوغ رضا ربهم وفضله وثوابه.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾، أي: علاماتهم ظاهرة في وجوههم حُسنًا وضياءً.

﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ على جباههم، والخشوع والخضوع لربهم.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، أي: ذلك المذكور وصفهم الذي وصفهم الله به في التوراة، فوُصفوا بهذا الوصف في القرآن؛ كما وُصفوا به قبل ذلك في التوراة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، أي: ووصفهم الذي وصفوا به في الإنجيل.

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ قرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء: «شَطَأَهُ»، وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾، أي: كمثل زرع أخرج فراخه وفروعه.

(١) أخرجه البخاري في المظالم، نصر المظلوم ٢٤٤٦، ومسلم في الباب السابق ٢٥٨٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾، أي: فشده وقواه، ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾، أي: غلظ وقوي، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، أي: اعتدل واستقام على سيقانه وأصوله.

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ من كثرة فراخه، وشدته وقوته واستوائه، واكتماله وحسنه وجودته.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ اللام: للتعليل، أي: جعل الله عز وجل أصحاب النبي ﷺ بهذه المثابة والأوصاف العظيمة كالشطء مع الزرع؛ آمنوا به، وعزروه، وآزروه، ونصروه، ووقروه، وعظموه؛ ليغتاظ بهم الكفار حين يرون اجتماعهم وشدتهم وقوتهم على أعدائهم الكفار، وتراحمهم فيما بينهم.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾، «من»: لبيان الجنس؛ لأنهم كلهم مؤمنون.

﴿مَّغۡفِرَةً﴾ لذنوبهم، بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا﴾، أي: وثوابًا جزيلًا، ورزقًا كريمًا واسعًا، لا يناله أحد سواهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[1].

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى وبشارته للمؤمنين بما أعد لهم من المغانم، وامتنانه عليهم بتعجيل غنيمة خيبر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾.

٢- فضل الله تعالى على هذه الأمة بإحلال الغنائم لهم خاصة من بين سائر الأمم.

٣- امتنانه عز وجل على المؤمنين بكف أيدي المشركين والكفار عن قتالهم وأذاهم بهذا الفتح المبين، والصلح العظيم، وبنعمة السلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾.

٤- أن في تعجيل غنيمة خيبر للمؤمنين علامةً على صدق وعده عز وجل لهم

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ٢٥٤٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالمغانم الكثيرة، وفي كفه أيديَ المشركين عنهم علامة على عنايته تعالى بهم، وحفظه ونصره لهم، وعلى علمه بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لهم وإن كرهوه في الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥- أن الله عز وجل أراد بهذا الفتح والصلح العظيم: هداية المؤمنين صراطه المستقيم؛ وتوفيقهم بسبب طاعتهم وانقيادهم لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

٦- وعد الله تعالى لهم بغنيمة أخرى بعد خيبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾.

٧- تشجيع المؤمنين على الجهاد في سبيله؛ بوعده عز وجل وبشارته لهم بما لهم من المغانم الكثيرة، وأنه لا بأس أن يستبشر المؤمنون بها ما دام أن قتالهم خالص لله تعالى، لإعلاء كلمته.

٨- علمه عز وجل التام بالغيب، وتقديره كل شيء عنده؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، أي: علمها وقدرها وكتبها لكم.

٩- قدرته تعالى التامة على كل شيء، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

١٠- تقوية قلوب المؤمنين على القتال ببيان جبن الكفار، وأنهم لا يصمدون أمامهم، بل يولون الأدبار، وليس لهم ولي ولا نصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

١١- أن العامل المعنوي بتقوية قلوب المقاتلين، ببيان ضعف عدوهم ونحو ذلك، من أعظم أسباب إقدامهم ونصرهم.

١٢- أن من لم يتوله الله وينصره، فليس له من دون الله ولي ولا نصير.

١٣- أن سنة الله تعالى وطريقته في نصر أوليائه وهزيمة أعدائه ثابتة لا تتبدل ولا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

١٤- امتنانه عز وجل على المؤمنين بكفه أيديَ المشركين الذين أرادوا غرتهم في

الحديبية، وتمكينه ﷺ من أخذهم سلمًا وعفوه عنهم، فكف أيدي كل من الفريقين عن الآخر؛ ليتم ما أراد الله من أمر الصلح والفتح المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

١٥- علم الله الواسع، واطلاعه التام على أعمال العباد، ومحاسبته ومجازاته إياهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

١٦- أن الله عز وجل أخَّر تعذيب الكافرين وقتلهم على أيدي المؤمنين لحكمتين عظيمتين؛ الأولى: وجود رجال ونساء بين ظهرانَيْهم، يُخفون إيمانهم، لم يعلمهم المؤمنون؛ خشية أن ينالوهم بقتل أو أذى، فيكون بذلك معرة على المؤمنين.

والحكمة الثانية: أن الله أخَّر عقوبتهم؛ ليدخل في رحمته من يشاء منهم، فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٧- حرمة قتل الأنفس المعصومة بالإيمان، أو غير ذلك، وأن قتلها بغير حق معرة وإثم وذنب وغرم، ووجوب التحرز في القتال من قتل الأنفس المعصومة التي لا تقاتل، وهي نفس المؤمن والمعاهد والذمي والمستأمن.

١٨- الوعيد والتهديد للكافرين، باستحقاقهم العذاب الأليم.

١٩- فضل الله تعالى، وسعة رحمته، وعظيم عفوه؛ حيث أخَّر عقوبة الكافرين؛ ليتوب على من شاء منهم.

٢٠- إثبات صفة المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢١- أنفة المشركين والكفار المقيتة، وحميتهم حمية الجاهلية الباطلة، في صدهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام وهم أهله، وامتناعهم من كتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ومن كتابة: «محمد رسول الله»؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

٢٢- منة الله تعالى على المؤمنين في تثبيت قلوبهم، وإنزال الطمأنينة عليهم، وإلزامهم كلمة التقوى، وطاعة الله ورسوله، والانقياد لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

٢٣- أن الرسول ﷺ والمؤمنين أحق وأجدر بكلمة التقوى، وطاعة الله عز وجل، وهم أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

٢٤- إثبات علم الله تعالى الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

٢٥- تحقيق الله تعالى وعده لرسوله ﷺ الرؤيا التي أراه إياها في دخوله وأصحابه المسجد الحرام، وإتمامهم مناسك العمرة آمنين غير خائفين؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾.

٢٦- أن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حق وصدق؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «رؤيا الأنبياء وحي»[(١)].

٢٧- مشروعية الحلق أو التقصير للمعتمر، وأنهما من أحكام العمرة.

٢٨- أهمية نعمة الأمن؛ لأن بها يستطيع الناس القيام بأمور دينهم ودنياهم؛ ولهذا امتن الله به على الناس بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش:٣، ٤].

٢٩- حكمة الله تعالى التامة، وعلمه- بعلمه الواسع- ما لم يعلمه المؤمنون من المصالح والمنافع، بجعله من قبل دخولهم المسجد الحرام وأدائهم العمرة فتحًا قريبًا، وهو صلح الحديبية وفتح خيبر؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

٣٠- أن على المؤمن أن يعلم ويتيقن أن الخيرة فيما يختاره الله له، فيطمئن ويُسَلِّم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٢١.

لأمر الله، ويرضى به، ولو لم يعلم وجه الحكمة فيه.

٣١- إثبات تمام قدرته عز وجل، وعظيم نعمته بإرساله رسوله بالهدى ودين الحق، أي: بالبيان والعلم النافع والعمل الصالح؛ ليظهره على الأديان كلها؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

٣٢- أن دين الإسلام هو أعلى الأديان وأكملها وأتمها؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

٣٣- كفى به عز وجل شهيدًا على صدق رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به من الهدى والدين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

٣٤- ثناء الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ والذين آمنوا معه بقوتهم في الحق، وشدتهم على الكفار، وغلظتهم عليهم، وتراحمهم وتعاطفهم فيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾.

٣٥- مداومتهم على الصلاة والعبادة، وإخلاصهم لله تعالى؛ طلبًا لفضله تعالى ومرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾.

٣٦- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾.

٣٧- ظهور آثار وعلامات السجود والعبادة والخضوع والخشوع نورًا وضياءً وحسنًا في وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾.

٣٨- أن ما وصفهم الله به في هذه الآيات هو مَثَلهم في التوراة، أعظم كتب الله بعد القرآن؛ حيث وصفهم الله فيها وامتدحهم بهذا الوصف العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾.

٣٩- أن الله مدحهم ووصفهم في الإنجيل، فشبههم بتعاضدهم وتعاونهم، وشدتهم وغلظتهم على الكفار، واكتمال قوتهم بزرع أخرج فراخه، فاشتد وقوي بها، وغلظ واستوى على أصوله وسيقانه، يعجب الزراع بكثرة فراخه وشدته وقوته وغلظته، واستوائه واستقامته على سيقانه وأصوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

٤٠- إثبات أن من كُتب الله عز وجل: «التوراة»، و«الإنجيل».

٤١- أن الله عز وجل جعل الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بهذه المثابة، ووصفهم بهذين المثلين والوصفين العظيمين؛ لإغاظة الكفار بهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

ومن هذا يؤخذ: كفر الرافضة الذين يبغضون الصحابة ويغتاظون منهم، ويسبونهم ويكفرون. قطع الله دابرهم، وأراح الإسلام والمسلمين من شرهم.

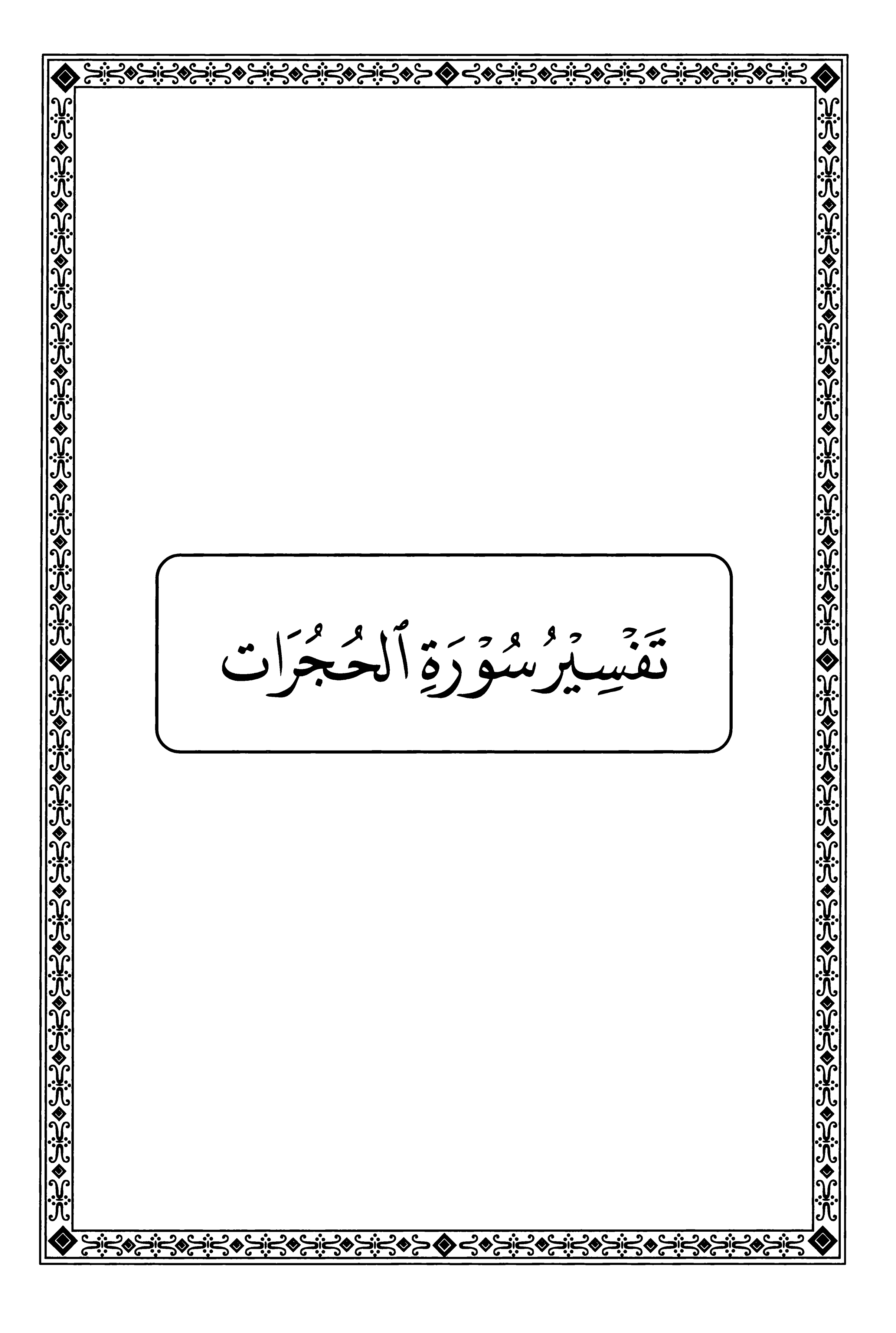
٤٢- وعده عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واسعة منه، وأجرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، وفي هذا ترغيب بالاقتداء بهم.

٤٣- لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

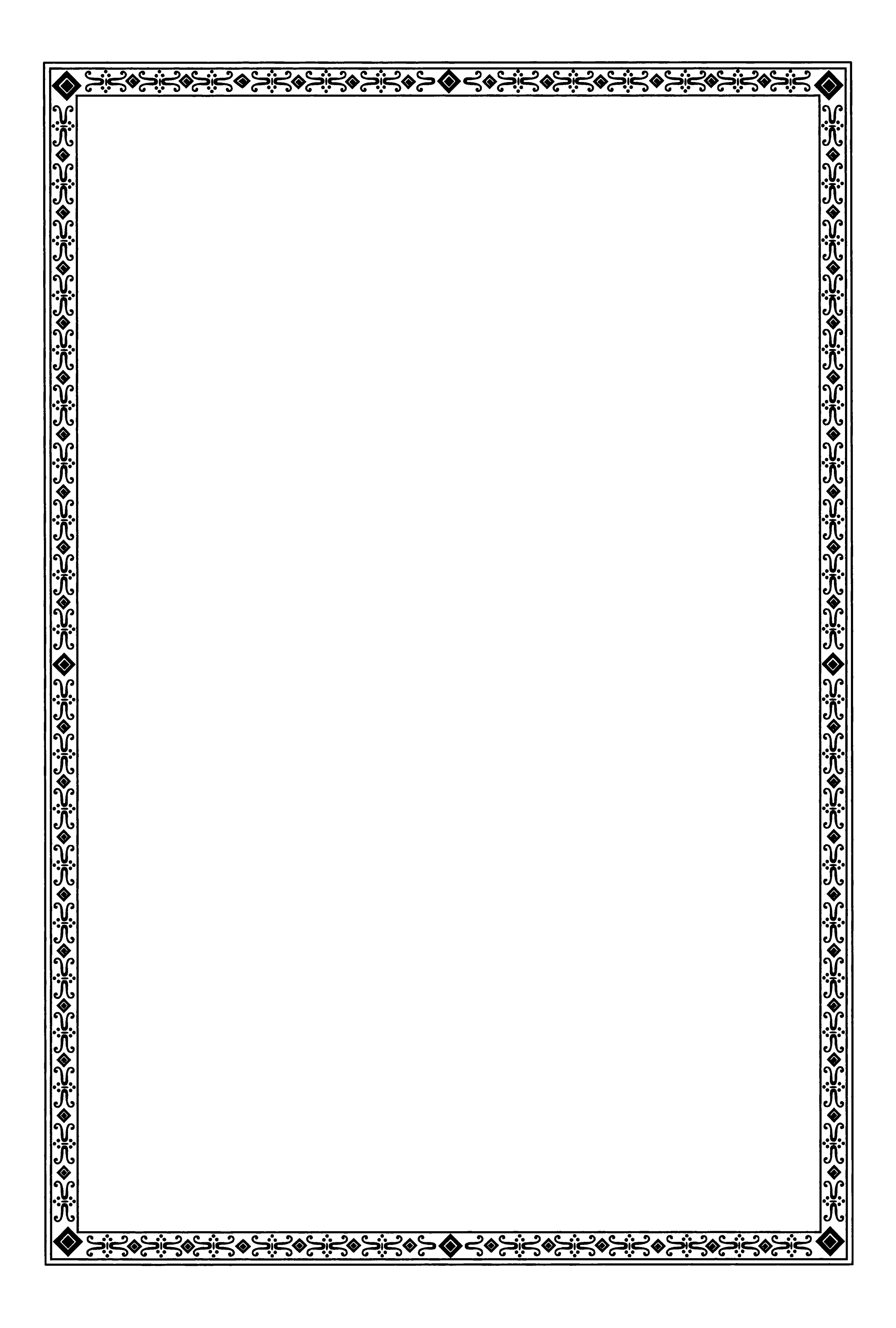
٤٤- تكفله عز وجل بثوابهم؛ لأنه سماه: أجرًا مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

٤٥- جمعه لهم بين زوال المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالأجر العظيم، وبهذا تمام النعيم.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلحُجُرَاتِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الحجرات»؛ لذكر الحجرات فيها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- نهي المؤمنين عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وأَمْرهم بتقوى الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾.

٢- نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي والجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض توقيرًا واحترامًا له ﷺ، والثناء على الذين يغضون أصواتهم عنده ﷺ، وتسفيه عقول الذين ينادونه من وراء الحجرات، وبيان أنهم لو صبروا لكان خيرًا لهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

٣- بيان وجوب تبين خبر الفاسق والتثبت في صحة الأخبار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

٤- بيان فضل الله على المؤمنين بوجود الرسول فيهم وما جاء به من الحنيفية السمحة، ورفع الحرج عنهم، وتحبيب الإيمان إليهم وتزيينه في قلوبهم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليهم: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

٥- بيان وجوب الإصلاح بين طوائف المسلمين، ومقاتلة الفئة الباغية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٦- نهى المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن

قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

٧- أمر المؤمنين باجتناب كثير من الظن؛ لأن بعض الظن إثم، ونهيهم عن التجسس والغيبة والتنفير منها وأمرهم بتقوى الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

٨- إخبار الناس أنه- عز وجل- خلقهم من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبًا ليتعارفوا، لا ليتفاخروا، وبيان أن أكرمهم على الله أتقاهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

٩- ذكر دعوى الأعراب الإيمان ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، والرد عليهم: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾.

قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، إذ أن المنادى في الأصل مفعول به، فمعنى (يا فلان): أدعوك، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح صفة لـ «أي» أو بدل، و«آمنوا» صلة الموصول.

والحكمة من نداء المؤمنين بوصف الإيمان: الحث والإغراء على الاتصاف بهذا الوصف، وتكريم المؤمنين وتشريفهم بهذا الوصف- كما يقال للجواد: يا جواد، وللشجاع: يا شجاع. وبيان أن امتثال ما بعده إن كان أمرًا، والانتهاء عنه إن كان نهيًا، وتصديقه إن كان خبرًا كل ذلك من مقتضيات الإيمان، وأن عدم ذلك يعد نقصًا في الإيمان.

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به، أو شر ينهى عنه» (١).

والقرآن كله دائر بين أمر ونهي، أو خبر مقتضاه الأمر والنهي كأخبار السابقين وأخبار القيامة فمقتضى ذلك سلوك طريق الأنبياء وأتباعهم، وما فيه النجاة من أهوال يوم القيامة، وهذا معناه الأمر، كما أن من مقتضى هذه الأخبار التحذير من سلوك طرق المكذبين وأعداء الرسل، وما فيه الهلاك في الدنيا والآخرة، وهذا معناه النهي.

والإيمان في اللغة: التصديق، كما قال تعالى ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١] وقال إخوة يوسف لأبيهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ⑰﴾ [يوسف:١٧] أي : وما أنت بمصدق لنا.

والإيمان في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح.

بهذا قال أكثر الأئمة، بل حكى الإجماع عليه عدد من الأئمة منهم الشافعي وأحمد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) ٣/ ٩٠٢- الأثر ٩٠٢٧.

وأبوعبيد- رحمهم الله- : فالإيمان: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(١).

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ يعقوب: (لا تَقَدَّموا) بفتح التاء والقاف والدال، وقرأ الباقون: (لا تُقَدِّموا) بضم التاء وكسر الدال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»(٢).

أي: لا تتعجلوا ولا تتسرعوا في الأشياء لا بقول ولا بفعل قبل أن يقول الله ورسوله، فلا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يحكم، ولا تفعلوا حتى يفعل رسول الله، ولا تقطعوا أمرًا حتى يحكم الله فيه ورسوله.

كما قال ﷺ: «لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين»(٣).

وقال ﷺ: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ»(٤).

قال ابن القيم(٥): «والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل».

وفي حديث معاذ رضي الله عنه لما بعثه النبي ﷺ قال له: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي: فضرب في صدره. وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله»(٦).

فأخّر معاذ رضي الله عنه اجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة.

---

(١) انظر (تفسير ابن كثير) ١/ ٦٢-٦٣.

(٢) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ١١٦.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم- لا يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين ١٩١٤، ومسلم في الصيام- لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ١٠٨٢، وأبو داود في الصوم ٢٣٣٥، والنسائي في الصيام ٢١٧٢، والترمذي في الصوم ٦٨٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٥٠- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم- إذا رأيتم الهلال فصوموا- معلقاً، وأخرجه موصولاً أبو داود في الصوم ٢٣٣٤، والنسائي في الصيام ٢١٨٨، والترمذي في الصوم ٦٨٦- من حديث عمار بن ياسر- رضي الله عنه.

(٥) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٧٨.

(٦) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام ١٣٢٧.

وقال ﷺ: «إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال: رجل : أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا: فقال رسول الله ﷺ:«لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرما رجل سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته»(٢).

فكل من خالف أمر الله ورسوله ﷺ من أهل الكفر والنفاق، وكذا أهل البدع والمعاصي فهو ممن تقدم بين يدي الله ورسوله وكل منهم بحسب عظم مخالفته، قد يخرج بذلك من الملة، وقد لا يخرج.

وقد عطف قوله (ورسوله) على اسم الله بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن هذا من باب التشريع والطاعة، فطاعة الرسول ﷺ طاعة لله- عز وجل -، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] .

بخلاف باب المشيئة فلا يجوز العطف فيه بالواو في هذا المقام؛ لأن مشيئة الرسول ﷺ ومشيئة جميع الخلق تابعة لمشيئة الله- عز وجل- ولهذا قال ﷺ للرجل الذي قال له: ما شاء وشئت: «أجعلتني لله نداً ما شاء الله وحده»(٣)

ويؤخذ من الآية تحريم اتباع الأهواء وآراء الرجال والقوانين الوضعية ووجوب اتباع الكتاب والسنة، والرد على جميع طوائف الضلال.

قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ١، ٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦١٠.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة- لزوم السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم- ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب =

كما يؤخذ من الآية مشروعية الأدب مع الوالد والعالم والأمير والكبير وغيرهم من ذوي المكانة، وعدم التقدم بين يديهم، وفي الحديث: «كبر كبر»(١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون.

أي: ذو السمع الذي يسمع الدعاء ويجيبه ويسمع جميع الأقوال والأصوات ما خفي منها وما ظهر، كما قالت عائشة- رضي الله عنها-: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾»(٢).

وإثبات السمع لله عز وجل يتضمن وعداً ووعيداً، وعداً لمن أحسن كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، ففي هذه الآية وعد بالحفظ، وكما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] ففي هذه الآية وعد بالإجابة، أي: يسمع الدعاء ويجيبه. ومثل هذا قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»(٣) أي: سمع واستجاب. ويتضمن وعيداً لمن أساء كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، والعلم أشمل وأعم من السمع، لأن السمع يتعلق بالمسموعات، أما

=

البدع ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة- اتباع سنة الخلفاء الراشدين ٤٢- من حديث العرباض بن سارية- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(١) قاله ﷺ لمحيصة بن سهل لما ذهب يتكلم قبل أخيه حويّصة وكان حويصة أكبر منه، أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٢، ومسلم في القسامة ١٦٦٩، وأبو داود في الديات ٤٥٢٠، والنسائي في القسامة ٤٧١٤، والترمذي في الديات ١٤٢٢، وابن ماجه في الديات ٢٦٧٧- من حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٦٨٩، ومسلم في الصلاة ٤١١، وأبو داود في الصلاة ٦٠١، والنسائي في الإمامة ٧٩٤، والترمذي في الصلاة ٣٦١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٧٦- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

العلم فيتعلق بكل شيء؛ لأن الله عز وجل أحاط بكل شيء علماً ومن ذلك أيضاً المسموعات فهو يعلمها. قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء، كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. ولهذا لما سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، فلا يعتري علمه- عز وجل- جهل سابق، ولا نسيان لاحق. وفي إثبات سعة علمه- عز وجل- وعد لمن أطاع الله ورسوله واتقى، ووعيد لمن خالف وعصى.

والعلم: إدراك الأشياء على ما هي عليه، إدراكًا جازمًا.

والناس في ذلك أقسام ثلاثة: عالم، وجاهل جهلاً بسيطًا، وجاهل جهلاً مركبًا، فمثلاً من قال: عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، فهذا عالم- يعني بالنسبة لهذه المسألة فهذا يدري ويدري أنه يدري.

ومن قال: لا أدري، فهذا جاهل جهلاً بسيطًا، لا يدري، ويدري أنه لا يدري.

ومن قال: بل عددها مائة وعشرون سورة، فهذا جاهل جهلاً مركبًا، لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

وما أكثر هذا الصنف

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٣- الترغيب بالاتصاف بهذا الوصف.

٤- أن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

٥- تحريم مخالفة أمر الله ورسوله بقول أو بفعل، ووجوب طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٦- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله بالواو التي تقتضي

التشريك في باب الطاعة، بخلاف باب المشيئة.

٧- وجوب تقوى الله - بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٨- إثبات أنه- عز وجل- ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء وفي ذلك وعد لمن لم يتقدم بين يدي الله ورسوله واتقى الله، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٩- في اقتران وصفه عز وجل بكمال السمع، وكمال العلم، كمال إلى كمال.

١٠- في تقديم السمع على العلم إشارة إلى أن السمع هو أحد وسائل العلم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾.

سبب النـزول:

عن عبد الله بن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره: «أنه قدم على النبي ﷺ ركب من بني تميم، فقال أبو بكر: يا رسول الله أمِّر عليهم الأقرع بن حابس، وقال عمر: أمِّر عليهم القعقاع بن معبد، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، وارتفعت أصواتها عند النبي ﷺ، فأنزل الله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾».

قال ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية- حتى يستفهمه»(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: لا تجعلوا أصواتكم عند مخاطبتكم للنبي ﷺ وفي مجلسه أعلى وأجهر من صوت النبي ﷺ، بل لتكن أصواتكم أغض من صوته ﷺ.

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ كقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور:٦٣]، أي: غضوا أصواتكم عند مخاطبته وخاطبوه بسكينة ووقار؛ تعظيمًا وتوقيرًا واحترامًا له ﷺ.

وهكذا يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ؛ لأنه محترم حيًا وميتًا صلوات الله وسلامه عليه، كما يكره رفع الصوت في مسجده ﷺ، وفي سائر المساجد.

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم، أي: إنما نهيناكم عن رفع أصواتكم فوق صوت النبي، وعن الجهر له بالقول، كما يجهر بعضكم لبعض لئلا تحبط أعمالكم أو خشية أن تحبط أعمالكم، أي: يبطل ثوابها فحبوط العمل معناه: بطلان ثوابه، كما قال

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٥، وفي الاعتصام ٦٨٧٢، النسائي في آداب القضاة ٥٣٨٦٥، والترمذي في التفسير ٣٢٦٦.

عز وجل ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨] أي: بطل.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تشعرون بذلك، ولا تعلمون عظم الذنب في رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وفي الجهر له بالقول، وأنه يحبط العمل.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم»(١).

وهكذا ينبغي عدم رفع الصوت، وعدم الجهر بالقول مع الوالد والعالم والكبير والأمير ونحوهم من ذوي المكانة في الأمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ بعد ما نهى الله عز وجل المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ وعن الجهر له بالقول؛ أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، ترغيبًا في ذلك وندباً إليه وحثًا عليه.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله تعظيماً له وتوقيراً واحتراماً وتقديراً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها وجعلها محلاً للتقوى، فغضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وبخاصة بعد نزول هذه الآية، منهم أبو بكر وعمر وثابت بن قيس رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين المتقين بعدهم.

رُويَ أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- حفظ اللسان ٦٤٧٨.

(٢) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٦ من حديث حصين بن عُمر، عن مخارق عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال ابن كثير: «حصين بن عمر- هذا ضعيف- لكن رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة بنحو ذلك».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ - فأخبره أنه قال: كذا وكذا، فقال: اذهب فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»(١).

وفي رواية: «فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعَوِّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل»(٢).

وفي رواية فقال له النبي ﷺ : «أما ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ»(٣).

ولهذا يشهد لثابت بن قيس- رضي الله عنه بالجنة لأن الرسول ﷺ شهد له بها.

قال مجاهد: «كُتِبَ إلى عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾».(٤)

والتكاليف الشرعية كلها امتحان واختبار للقلوب قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك:٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٥٤].

قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة قال ﷺ: «يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه- عز وجل-

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٣، وفي تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٦، ومسلم في الإيمان ١١٩، وأحمد ٣/ ١٣٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٥.

(٢) جاءت هذه الزيادة عند أحمد، وبعضها عند مسلم.

(٣) جاءت هذه الزيادة عند الطبري.

(٤) أخرجه أحمد في كتاب الزهد- فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٨.

حتى يضع عليه كنفه[١] فيقرره بذنوبه، فيقول:أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟، فيقول: أي رب، فيقول الله عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم[٢]».

ومنه سمي «المغفر» وهو: البيضة، التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: وثواب عظيم، وقدم المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية والتطهير قبل التحلية والتزيين، وسمي ثوابهم أجرًا لأن الله- عز وجل- تكفل به وأوجبه على نفسه، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، مع أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه.

وإنما أوجب ذلك على نفسه، تفضلاً منه وكرمًا، كما قال عز وجل :﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقوله (عظيم) أي: عظيم في كيفيته، وفي كميته، وفي غير ذلك، وإذا كان العظيم سبحانه وصف هذا الأجر بأنه عظيم، فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل :﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة :١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾». [٣]

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان والترغيب بالاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

---

(١) أي: ستره ورحمته: انظر (النهاية) مادة (كنف).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

٣- نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي والجهر له بالقول، ووجوب غض الصوت عنده، والتأدب معه ﷺ واحترامه في حياته وبعد مماته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

٤- جواز رفع الناس أصواتهم فيما بينهم وجهر بعضهم لبعض مالم يكن في ذلك أذى، أو ما يستنكر قال لقمان لابنه فيما ذكر الله عنه ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

٥- أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول سبب لحبوط العمل وبطلانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

٦- أن عمل الإنسان قد يحبط من حيث لا يشعر مما يوجب الحذر من محبطات الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

٧- ينبغي عدم رفع الصوت والجهر بالقول مع ذوي المكانة في الأمة كالوالد والعالم والكبير والأمير، ونحوهم.

٨- تكريم الله- عز وجل- وتشريفه لنبيه ﷺ ودفاعه عنه.

٩- ثناء الله- عز وجل- على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ بأن الله أخلص قلوبهم للتقوى وفي مقدمتهم الصحابة- رضوان الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

١٠- عظم ما أعد الله لمن يغضون أصواتهم عنده ﷺ وخلصت قلوبهم للتقوى من المغفرة الواسعة، والأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

١١- أن التخلية تكون قبل التحلية.

١٢- تأكيد تكفله- عز وجل- بهذا الجزاء، لهذا سماه أجراً، وأوجبه على نفسه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

لما نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، أتبع ذلك بذم الذين ينادونه من وراء الحجرات؛ لما في ذلك من رفع الصوت عنده، وعدم مراعاة ظروفه وأحواله.

سبب النـزول:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أنه نادى رسول الله ﷺ - فقال: يا محمد، يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال النبي ﷺ: «ذاك هو الله».(١)

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن ذمي شين قال النبي ﷺ: «ذاك هو الله عز وجل»(٢).

وعن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب، فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكًا نعش بجناحه، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا. فجاؤوا إلى حجرته، فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ قال: فأخذ رسول الله ﷺ - بأذني فمدها فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد»(٣).

قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ قرأ أبو جعفر «الحجَرات» بفتح الجيم، وقرأ الباقون بضمها، أي: إن الذين ينادونك ويدعونك من خلف حجرات أزواجك

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٨، ٦/ ٣٩٣- ٣٩٤.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٦٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٧ وقال الترمذي (حديث حسن غريب).

(٣) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٧، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٢- الأثر ١٨٦٠٧، وذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٩.

بقولهم: يا محمد، يا محمد، أي: اخرج إلينا.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أكثرهم لم ينتفعوا بعقولهم، وذلك بأن تحملهم وتدلهم على الأدب مع رسول الله ﷺ، الذي يجب عليهم احترامه وتوقيره والتأدب معه ﷺ، لما له من المكانة العظيمة عند الله.

ولما لم ينتفعوا بعقولهم نفى عنهم العقل، فكأنهم لا عقول لهم، مع أنهم عندهم العقل الذي هو مناط التكليف قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة النائم حتى يستيقظ والصغير حتى يبلغ والمجنون حتى يفيق»(١).

فالمجنون والمغمى عليه لا تكليف عليهم؛ لأن الله إذا أخذ ما وهب أسقط ما وجب.

فالعقل المنفي عن أكثرهم في الآية هو العقل الذي هو مناط المدح والذم كما قال عز وجل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فالعقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، ففاقده لا يكلف، وهو المثبت للكفار والعصاة وغيرهم، ولولاه ما كلفوا.

وعقل هو مناط المدح والذم، وهو الذي يثبته الله عز وجل للمؤمنين كما في قوله ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨] لأنهم انتفعوا بعقولهم، فعرفوا بها الحق واتبعوه، ففازوا الفوز العظيم.

وينفيه عن الكافرين والمجرمين، لأنهم لم ينتفعوا بعقولهم فيما يقربهم إلى الله عز وجل ففاتهم النصيب الأوفر، وخسروا الخسران المبين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الواو: عاطفة و«لو»: حرف امتناع لامتناع وهي شرطية غير جازمة.

أي: ولو أن هؤلاء الذين أخذوا ينادونك من وراء الحجرات.

﴿صَبَرُواْ﴾ فلم ينادوك ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ ولم يؤذوك بهذا النداء، أو يلجئوك

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

للخروج في وقت أو حال غير مناسب ويشقوا عليك.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان صبرهم وعدم ندائهم لك من وراء الحجرات خيرًا لهم، لأدبهم مع رسول الله ﷺ في عدم رفع الصوت عنده، ومراعاة ظروفه وأحواله وتقدير مكانته القيادية في الأمة، فيكونوا بهذا ممّن امتحن الله قلوبهم للتقوى، وأعد لهم المغفرة والأجر العظيم.

وأيضًا يكون خيرًا لهم بأن يخرج إليهم ﷺ وقت خروجه المناسب فيجيبهم على ما عنه يسألون، ويعطيهم ما يطلبون، وبهذا يحصلون على خيري الدنيا والآخرة.

وهكذا ينبغي للأمة أن تقدر لأهل المكانة، وذوي المسؤوليات الكبيرة فيها ظروفهم وأحوالهم من العلماء والملوك والرؤساء والأمراء والوزراء ونحوهم.

فإن بعض الناس قد ينغص على بعض المسؤولين حياتهم، ويضايقهم في مراجعتهم في بيوتهم، وربما في أوقات نومهم وراحتهم، أو في وقت لا يحبون مقابلة أحد فيه ونحو ذلك.

وعلى ذوي المسؤوليات في الأمة في المقابل أن يخصصوا من وقت دوامهم وعملهم اليومي وقتًا لمقابلة الناس، وقضاء حوائجهم، والإجابة على أسئلتهم، ومعرفة متطلباتهم، واستماع شكاواهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب التائبين من عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج :٦٥]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وقدم «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية، وقرن بينهما؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الذين ينادون الرسول ﷺ من وراء الحجرات بنفي العقل عنهم، وأن الخير كل الخير لهم لو صبروا حتى يخرج إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

٢- وجوب التأدب مع الرسول ﷺ ومراعاة ظروفه وأحواله، وعدم الجهر في مناداته، وتحاشي أذيته.

٣- عناية الله تعالى برسوله ﷺ ودفاعه عنه.

٤- أن من لم ينتفع بعقله كمن لا عقل له.

٥- ينبغي للأمة تقدير ظروف ذوي المسؤوليات الكبيرة فيها، وعدم التضييق عليهم في بيوتهم.

٦- فضيلة الصبر، وأن عقباه خير.

٧- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٨- الإشارة إلى أن التخلية قبل التحلية بتقديم المغفرة على الرحمة، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

٩- في اقتران صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين في حقه عز وجل، كمال إلى كمال، وبفوز العبد بهما كمال النعيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾.

سبب النـزول:

عن الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنه قال: «قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته. ويرسل إليَّ رسول الله ﷺ رسولاً لإبّان كذا وكذا، ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ – أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسـول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سَخْطةٌ من الله عز وجل ورسوله، فدعا بسروات قومه [١] فقال لهم: إن رسول الله- ﷺ - وقت لي وقتًا يرسل إليَّ رسوله ؛ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ- الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَقَ، أي: خاف- فرجع فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي.

فضرب[٢] رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة، ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا

---

(١) أي: أشرافهم.

(٢) أي: بعث.

حين احتبس عليّ رسول رسول الله ﷺ- خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله ﷺ. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ إلى هذا المكان ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾»(١).

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله عز وجل، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها فتعرضت للفساد.

ويطلق الفسق على الكفر، وعلى ما دونه من المعاصي، والمراد بالفاسق هنا مرتكب المعاصي دون الكفر.

﴿بِنَبَإٍ﴾ النبأ: هو الخبر الهام، الذي له شأن قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ:١، ٢].

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف «فتثبتوا» من التثبت، وقرأ الباقون: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من التبين. ومعنى القراءتين واحد أي: فتبينوا وتثبتوا وتأكدوا.

﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله. أي: خشية أن تصيبوا قوماً بجهالة، أي: أن تقعوا فيهم، بأذيتهم بقول أو بفعل بجهل منكم وعدم علم، وإنما بناءً على أخبار كاذبة وشائعات باطلة، مع براءتهم مما نسب إليهم.

﴿فَتُصْبِحُوا﴾ الإصباح في الأصل الدخول في الصباح، وليس مرادًا هنا، وإنما المراد ما هو أعم من ذلك، أي: فتصيروا.

﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فتصبحوا على الذي فعلتم، أو على فعلكم (نادمين) أي: متأسفين متحسرين على ما مضى من فعلكم، ممّا لا يمكن رده، وليس هو في محله بل هو خطأ وظلم وعدوان، فتندموا ولات حين مندم،

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٩، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٣- الأثر ١٨٦٠٨، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٥١ وأخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٨ مختصرًا- بمعناه- من حديث أم سلمة وابن عباس رضي الله عنهما.

فإذا وقع الفأس بالرأس- كما يقال- لا ينفع الندم، وإذا فات الفوت، ما ينفع الصوت.

ولله ما أعظم هذه التوجيهات الربانية التي بها سعادة المرء في دنياه وأخراه، والتي تحفظه بإذن الله عز وجل من أسباب الشقاء في الدنيا والآخرة، فإن الظلم والتعدي سبب للشقاء والندم والحسرة والأسى في الدنيا والآخرة.

ويؤخذ من الآية وجوب التثبت في قبول خبر الفاسق، فلا نقبله مطلقاً، ولا نرده مطلقاً، بل نتثبت فيه فإن دل قرينة على صدقه قبلناه، وإن دل قرينة على كذبه رددناه. وإلا توقفنا فيه.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «وههنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته. وكثير من الفاسقين يصدقون في رواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يردُّ خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله».

وإذا وجب التثبت في خبر الفاسق في عهد الرسالة فيجب التثبت والتأكد في قبول خبره في هذا العصر من باب أولى، والذي تعددت وتنوعت فيه وسائل النشر والإعلان مرئية ومسموعة ومقروءة وتسابق الكثيرون ممن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم إلى تلفيق الأخبار ونشر الإشاعات في هذه الوسائل وبخاصة في شبكة المعلومات الإنترنت، ورسائل الجوالات، والقنوات الفضائية التي يمول أكثرها اليهود، والرافضة أخزاهم الله، وخصصت لحرب الإسلام وضرب المسلمين بعضهم ببعض.

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٠.

وكل هذا يوجب علينا تمحيص الأخبار والتثبت فيها والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها، وبخاصة ما ينشر في هذه الوسائل المشبوهة والتي استغلها كثير من ضعاف الإيمان وضعاف النفوس، حتى ممن يحسبون على الإسلام وياللأسف، بل ممّن يزعمون ويدعون تبني قضايا الأمة والدفاع عنها، وهم أعظم بلية بليت بها الأمة، ضربوها في أغلى شيء لديها، وهو وحدتها وتضامنها، واجتماع كلمتها، فقدموا أعظم خدمة لأعداء الإسلام بما ينشرون في هذه الوسائل من أخبار كاذبة، وافتراءات باطلة، وإشاعات مغرضة، تحت شعارات مختلفة تارة دينية، وتارة سياسية، وتارة اقتصادية للتفريق بين المسلمين، وإيجاد العداء والضغائن بين الأمة وحكامها وعلمائها وذوي المسؤوليات فيها، بل بين الأولاد ووالديهم.

ويبدو بعض هؤلاء على هذه الشبكات والقنوات، وكأنه المنقذ للأمة والناصح لها والمدافع عن قضاياها دون غيره وهو- في الحقيقة- من ألد أعدائها.

ويبث بعضهم سمومهم في الخفاء وراء رموز وأسماء مستعارة في السوق السوداء، وفي الحراج العام، لعلمهم أن بضاعتهم مزجاة، وأكثرها سرقات ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [النساء:١٠٨].

خفافيش أعشاها النهار بضوئه فوافقها من ظلمة الليل غيهب[١].

وقد اغتر الكثيرون وانشغلوا بما ينشر في هذه الوسائل من هذه الأخبار الكاذبة، والتحليلات الخاطئة والإشاعات الباطلة فتناقلوها في مجالسهم وكأنها حقائق ومسلمات. فحذار حذار أخي المسلم من وحل هذه المستنقعات.

وعليك بالاحتياط لدينك، وإمساك اللسان والقلم والبنان عما لا يعني قال ﷺ «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[٢] واعلم أن العافية لا يعدلها شيء، وأن السلامة غنيمة.

ويفهم من قوله: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قبول خبر العدل، لكن لابد من

---

(١) البيت لابن مشرّف، انظر «ديوانه» ص٣٢.

(٢) أخرجه النسائي في الأشربة ٥٧١١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٥١٨ وقال: «حديث حسن صحيح».

اكتمال نصاب الشهود حسب الأمر المشهود عليه.

ففي الشهادة على رؤية هلال رمضان يكفي خبر الشاهد الواحد العدل، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما قال: «تراءى الناس الهلال، فرأيته فأخبرت النبي، ﷺ- فصامه وأمر الناس بصيامه»(١).

ولابد في الشهادة على السرقة والقتل ونحو ذلك من شاهدين لقوله تعالى ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وفي الشهادة على من أصابته جائحة لا بد من ثلاثة شهود؛ لحديث قبيصة: «حتى يشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أن فلاناً قد أصابته جائحة»(٢).

وفي الشهادة على الزنا لابد من أربعة شهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور:٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور:١٣].

قوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وأطيعوه، ولا تتقدموا بين يديه بقول ولا فعل، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، «لو»: حرف امتناع لامتناع، وهي شرطية غير عاملة، ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ العنت: المشقة.

والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تختارونه لأنفسكم وتطلبونه، لأوقعكم ذلك في المشقة والحرج.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصوم- شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان ٢٣٤٢، والدارمي في الصوم ١٦٩١.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة- من تحل له المسألة ١٠٤٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٩١- من حديث قبيصة بن مخارق- رضي الله عنه.

وفي هذا إشارة إلى ضعف آراء البشر وعدم معرفتهم لوجوه المصالح، ما لم يُربطوا بوحي السماء قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٧١].

ولما قال ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» قام الأقرع بن حابس رضي الله عنه فقال: أفي كل سنة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، الحج مرة فما زاد فهو تطوع»(١).

وقال ﷺ : «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»(١).

وقال ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته»(١).

ولهذا أنكر ﷺ على عثمان بن مظعون وأصحابه التبتل والانقطاع للعبادة وقال ﷺ: «أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٢).

وكذلك أنكر ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: «لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت»(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: ألقى محبته في قلوبكم، وهذا أمر خاص به عز وجل، فلا أحد يستطيع تحبيب الإيمان إلى القلوب ووضعه فيها، ولا هدايتها هداية التوفيق والقبول سوى الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حسَّنه في قلوبكم، بذكر شرف الإيمان وفضله وحسَّن صفات أهله وما وعد الله به المؤمنين من الفوز بالجنات والأجر العظيم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٦، ومسلم في الصيام ١١٥٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٢٧، والنسائي في الصيام ٢٣٩١- من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه.

والقلوب: جمع قلب، وهو الذي عليه مدار صلاح العمل قال ﷺ «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

وعن أنس: رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى ههنا، التقوى ههنا»(٢).

وقال ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» (٣).

ومحل القلب هو الصدر كما قال عز وجل﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] وهو أداة ومحل العقل مع ارتباط ذلك بالمخ.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾، «كرَّه إليكم»: أي جعل ذلك مكروهًا ومبغضًا عندكم.

و«الكفر» في اللغة: الستر، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون ويغطيه بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل كفْرًا؛ لأنه يستر الثمر الذي بداخله ويغطيه، إلى غير ذلك.

وهو إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، أو الاستكبار عن الانقياد لشرعه، أو الإعراض عنه، والشك فيه، وهو ضد الإيمان.

والمراد بالكفر هنا: الكفر المخرج من الملة.

وقد يكون الكفر دون المخرج من الملة كما في قوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٣٤- ١٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ٢١٦٥، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٣، وأحمد ١/ ١٨، ٢٦- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال الترمذي (حسن صحيح غريب). وأخرجه أحمد أيضًا٣/ ٤٤٦- من حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه.

كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت[١]» ومنه كفران النعم.

والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى وعن الإصلاح إلى الإفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد.

والفسق والفسوق قد يطلق على الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة:٢٠].

وقد يطلق على ما دون الكفر كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:٩٧].

والمراد به في الآية هنا: الذنوب الكبار خاصة لذكر الكفر قبله، والعصيان بعده.

والعصيان والمعاصي: عدم الطاعة، والمراد بالعصيان هنا: الذنوب الصغار لذكر الكفر والفسوق قبله. وقد يحمل العصيان هنا على ما يشمل الكفر والفسوق وغير ذلك.

قال ابن كثير[٢]: «أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي الذنوب الكبار والعصيان وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الإشارة لمن حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بعلو منزلتهم ورفعة مكانتهم. و«هم»: ضمير منفصل للتوكيد.

فأكد هذه الجملة بثلاثة مؤكدات، وهي: كونها جملة اسمية، معرّفة الطرفين وضمير الفصل؛ لتأكيد أن هؤلاء هم الراشدون حقًا الذين بلغوا من الرشد غايته.

والرشد: الاهتداء إلى طرق الخير عامة، وهو بالنسبة لكل شيء بحسبه، فالرشد في الدين: الاستقامة عليه، والرشد في المال: حسن التصرف فيه، والرشد في الولاية: حسن التصرف فيما ولِّي عليه، وهكذا. فالمراد بـ «الراشدون» هنا الذين بلغوا من الرشد غايته في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم ولهذا جاء في الدعاء في حديث عبيد الله بن عبد

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٦٧، والترمذي في الجنائز ١٠٠١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٢.

الله الزرقي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين»(١).

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، «فضلا»: مفعول مطلق، نائب عن المصدر. والفضل: الزيادة والتفضل.

«ونعمة» أي: ونعمة منه عز وجل أي: ما حصل لكم من تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوبكم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليكم، وجعلكم من الراشدين هو زيادة وتفضل من الله وإنعام منه عليكم، لا باستحقاقكم ذلك، ولا بحولكم وقوتكم.

فيا له من فضل ويا لها من نعمة لمن عرف قدر ذلك. نسأل الله التوفيق.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، الذي يعلم ويدرك الأشياء كلها على ما هي عليه إدراكًا جازمًا في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة:

الحكم الكوني، وهو: كل ما يقع في الكون من حركة أو سكون، ومنه قول أكبر أولاد يعقوب فيما حكى الله عنه أنه قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠]، أي: أو يحكم الله لي حكمًا كونيًا.

والحكم الشرعي: هو ما شرعه الله من أحكام شرعية كأحكام الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، أي: حكمه الشرعي.

والحكم الجزائي وهي أحكامه الجزائية في الآخرة، حيث يجازي كلاً بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

ويجمع الأحكام الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠] أي: بأقسامه

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٤.

الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

و﴿حَكِيمٌ﴾ أيضًا، أي: ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية. فالحكمة الغائية: هي الغاية من حدوث حكم ما من الأحكام الكونية، أو من مشروعية حكم من الأحكام الشرعية أو الجزائية.

والحكمة الصورية هي: الحكمة من مجيء الحكم سواء الحكم الكوني أو الشرعي أو الجزائي على هذه الصورة، إذ لكل حكم من الأحكام حكمة غائية وحكمة صورية.

فهو عز وجل عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

ويؤخذ من اقتران صفتيه عز وجل: «عليم» و«حكيم» كماله عز وجل، وكمال صفاته؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين هذين الوصفين؛ لأن اجتماعهما- مع كمالهما في حقه عز وجل يزيد كماله إلى كمال.

ولهذا نشاهد- ولله المثل الأعلى- أن من توفيق الله للعالم أن يجمع الله له بين العلم والحكمة، فتأتي أحكامه وفتاواه وتوجيهاته بإذن الله وتوفيقه أسد وأصوب، ويكون لها قبول عند الناس لما عرفوا عنه من العلم والحكمة ويحبونه ويشهدون له بذلك وأحسب أن ممن جمع الله له بين هاتين الصفتين في هذا العصر، فأحبه الناس، وشهدوا له بالفضل، ولقيت فتاواه قبولاً عندهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فأوصي جميع المسلمين بالاستفادة من آثاره العلمية وفتاويه- ولا أزكي على الله أحدًا.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب بهذا الوصف وأن امتثال ما بعد هذا النداء من أمر وتوجيهات من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٣- وجوب التثبت في خبر الفاسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

٤- وجوب تمحيص الأخبار والتثبت فيها، والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها وتنزيه الأسماع والأبصار مما تبثّه وسائل الإعلام المشبوهة.

٥- التحذير الشديد من أذية الآخرين والوقوع فيهم بقول أو فعل بغير جرم منهم، وإنما بناء على وشايات فيهم وإشاعات كاذبة مغرضة؛ ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾.

٦- التثبت في الأمور وعدم التسرع لئلا يندم الإنسان حين لا ينفع الندم.

٧- حفظ الإسلام لحقوق الآخرين، وحرصه على إبعاد المسلم عمّا يضره ويندم عليه.

٨- قبول خبر العدل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية.

٩- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين بوجود الرسول ﷺ في حياته بينهم يدلهم على الخير ويحذرهم من الشر، وما يشق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

١٠- إثبات رسالته ﷺ.

١١- لو تُرك الناس لأنفسهم، أو أطاعهم الرسول ﷺ في كثير من الأمر لشقوا على أنفسهم، ولما عرفوا مصالحهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

١٢- حرصه ﷺ على أمته وشفقته عليهم ونصحه لهم وعلمه بما يصلحهم.

٣١- فضل الله- عز وجل- ونعمته على المؤمنين حيث حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

٤١- أن هداية القلوب بيد الله- عز وجل-.

٥١- امتداح الله- عز وجل- للراشدين وثناؤه عليهم، والإشارة لرفعة منزلتهم، وعلو مكانتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

١٦- إثبات أنه- عز وجل- ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبيّ؟ فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله قد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾»(١).

قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ الطائفة: المجموعة من الناس قليلة كانت أو كثيرة.

﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي: حصل بينهم اقتتال، والاقتتال: ما كان بين طرفين.

وإن مما يحز في قلب كل مسلم ويندى له الجبين أن الاقتتال اليوم بين المسلمين أنفسهم أكثر من الاقتتال مع أعدائهم الكفار، وأن دماء المسلمين التي تراق على أيدٍ مسلمة أضعاف أضعاف الدماء التي تراق منهم على أيدي الكفار وكما قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه(٢)

نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، ويجمع كلمتهم على الحق.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ أي: أصلحوا بين الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين بالأخذ بالطرق التي يكون بها الصلح، والتوسط للقضاء على أسباب هذا الاقتتال، وما ينتج عنه من الاختلاف، وفساد ذات البين التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين كما قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»؟ قالوا: بلى. قال:

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٩، وأحمد ٣/ ١٥٧، ٢١٩.
(٢) البيت لعبد الملك الحلاج. انظر: «الإيجاز والإعجاز» ص١٦١.

«إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»(١).

قال الترمذي ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي: فإن لم تستطيعوا الإصلاح بينهما، أو بغت إحداهما على الأخرى بعد الصلح.

ومعنى «بغت»: تعدت وتطاولت على الأخرى وظلمتها. والبغي: العدوان والتطاول والظلم.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أي: فقاتلوا الطائفة الباغية التي تبغي على الأخرى. والأمر للوجوب.

﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: حتى ترجع الفئة الباغية إلى أمر الله وحكمه الشرعي فتكف عن البغي والعدوان.

ويؤخذ من الآية قتال الفئة الباغية وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. قال يا رسول الله هذا أنصره مظلومًا فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: تكفه عن الظلم، فذاك نصرك إياه»(٢).

﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ أي: فإن رجعت الطائفة الباغية عن البغي ولزمت حكم الله وشرعه.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ فيما تقولون لهما وفيما تطالبون به كلا منهما من التنازل عن شيء من حقه للطائفة الأخرى وغير ذلك.

فالإصلاح الأول لوقف القتال بينهما، والإصلاح الثاني للتسوية بينهما فيما لكل منهما على الأخرى من حقوق أو متلفات.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٩- من حديث أبي الدرداء- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب- أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥- من حديث أنس رضي الله عنه وأخرجه البخاري أيضًا من حديث جابر رضي الله عنه في المناقب ٣٥١٨، ومسلم في البر والصلة- نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ٢٥٨٤، والترمذي ٣٣١٥.

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾: أي: اعدلوا بينهما، وهذا تأكيد لما قبله، واعدلوا أيضًا في جميع أموركم، مأخوذ من «أقسط» الرباعي الذي معناه: عدل وأنصف، واسم الفاعل منه مقسط، وليس من «قسط» الثلاثي الذي معناه: جار وظلم، واسم الفاعل منه «قاسط» ومنه قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن:١٥].

فإن لم يكن الإصلاح بالعدل والقسط بل كان بالجور والظلم فلا يعد ذلك من الإصلاح، بل هو من الإفساد، كما في بعض الإصلاحات بين الأطراف التي لا تقوم على العدل بل على الضغط على أحد الخصمين، أو إماتة القضية حتى يرضى صاحب الحق ببعض حقه ليأسه من وصول حقه إليه، فهذا صلح حرم حلالاً أو أحل حرامًا.

وفي حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:« الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، أي: الذين يعدلون في أنفسهم وأهليهم وما ولوا، كما جاء في الحديث.

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو عز وجل يحب المؤمنين العادلين، وإذا كان عز وجل يحبهم فلا تسأل عما أعد لهم من الفضل.

قال ﷺ: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »(٢).

ويفهم من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، عدم محبته للظالمين الجائرين، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:٥٧، ١٤٠].

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ هذا كالتعليل لقوله:﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ الآية.

«إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: إنما المؤمنون كلهم إخوة في الدين

---

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام ١٣٥٢، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الإمام العادل ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة- فضل الحاكم العادل ٥٣٧٩- من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

تربطهم أخوة الإيمان.

وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(٢).

وعن صفوان بن عبد الله عن أم الدرداء رضي الله عنها أنها قالت له: أتريد الحج العام فقلت: نعم: قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه، قال الملك الموكل: آمين، ولك بمثله، قال صفوان: فخرجت إلى السوق، فلقيت أبا الدرداء، فقال لي مثل ذلك يرويه عن النبي ﷺ(٣)».

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(٤).

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب- الستر على المسلم ٤٩١٠. والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر- فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥ وفي الأدب ٤٩٤٦، والترمذي في الحدود- ما جاء في الستر على المسلم ١٤٢٥، وابن ماجه في المقدمة- فضل العلماء والحث على طلب العلم ٢٢٥ وأحمد ٢/ ٢٥٢، ٢٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٧٣٣، وأبو داود في الوتر- الدعاء بظهر الغيب ١٥٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب- رحمة الناس والبهائم ٦٠١١، ومسلم في البر- تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٦، وأحمد ٤/ ٢٦٨- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة- تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ٤٨١، ومسلم في البر- تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٥، والنسائي في الزكاة- أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه ٢٥٦٥، والترمذي في البر- ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ١٩٢٨، وأحمد ٤/ ٤٠٤- ٤٠٥- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»[1].

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ قرأ يعقوب: ﴿بَيْنَ إِخْوَتِكم﴾ بكسر الهمزة وإسكان الخاء وتاء مكسورة على الجمع، وقرأ الباقون ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بفتح الهمزة والخاء، وياء ساكنة على التثنية.

أي: فأصلحوا بين أخويكم، أي: بين إخوتكم المتقاتلين، والأمر للوجوب، فلا يجوز أن يقف المسلمون من الفئات المتقاتلة من إخوانهم المسلمين موقف المتفرج كما هو حال كثير من المسلمين اليوم، أو ربما يعمد بعضهم ويعمل على إشعال تلك الفتنة. نسأل الله العافية .

ولا شك أن الاستعمار جنى ثمار تمزيقه للمسلمين وتفريقهم إلى دويلات بل وإيجاده روح العداء بين الدول الإسلامية فأصبح حال المسلمين اليوم كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعًا فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر[2]

ولكن هذا لا يعفي المسلمين من التبعة والمسؤولية أمام الله- عز وجل- فإنهم- وهم أكثر من مليار ونصف مليار مسلم- لو صدقوا الله لنصرهم الله، ولما استطاع أن ينال منهم العدو مهما كان. نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين في كل مكان.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الواسعة التي بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذا وعد من الله، ووعده حق وصدق، فبالقيام بحقوق المؤمنين والإصلاح بينهم وتقوى الله تحصل لنا الرحمة من الله عز وجل.

ويؤخذ من الآية أن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من كبائر الذنوب التي هي دون الشرك، وعلى هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوراج والمعتزلة.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠ وقال ابن كثير في (تفسيره) ٨/ ٣٥٥ : «تفرد به، ولا بأس بإسناده».

(٢) انظر: «ديوان الحماسة» ١/ ١٧٦.

ومن هذا قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[١]، أي: كفر دون كفر، وقوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت»[٢].

قال ابن كثير:[٣] «فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، ثم ذكر حديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يومًا، ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[٤]» فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة».

الفوائد والأحكام:

١- وجوب الإصلاح بين الطوائف المتقاتلة من المؤمنين ولا يجوز للمسلمين الوقوف منها موقف المتفرج كما هو حال المسلمين اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾.

٢- أن التقاتل بين المؤمنين لا يخرجهم من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾.

٣- وجوب قتال الطائفة الباغية حتى ترجع إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر ٤٨، ومسلم في الإيمان- قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ٦٤، والنسائي في تحريم الدم ٤١٠٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٣، وابن ماجه في المقدمة ٦٩- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان- إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ٩٣٤- من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٣٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في الصلح- باب قول النبي ﷺ للحسن: إن ابني هذا سيد ٢٧٠٤، وأبو داود في السنة ٤٦٦٢ والنسائي في الجمعة ١٤١٠، والترمذي في المناقب ٣٧٧٣.

٤- تأكيد أمر الصلح بين المسلمين وأهميته، وأنه يجب كونه بالعدل والقسط؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾.

٥- إثبات صفة المحبة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٦- فضل المقسطين ويكفيهم شرفاً أن الله يحبهم. ويفهم من ذلك ذم الظالمين وعدم محبة الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٧- إثبات الأخوة بين المؤمنين، وأنها لا تزول بالتقاتل بينهم لكن يجب إصلاح ذات بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. وفي هذا رد على المعتزلة والخوارج، الذين يكفرون مرتكب الكبيرة، أو يقولون: هو بمنزلة بين المنزلتين.

٨- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأنها سبب لرحمة أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

أمر الله عز وجل في الآيتين السابقتين بالإصلاح بين المؤمنين والمحافظة على الأخوة بينهم ثم نهى عمّا يكون سبباً في العداوة بينهم من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والظن السيء والتجسس والغيبة في هذه الآية وما بعدها إلى قوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ السخرية: هي الاستهزاء والازدراء والاحتقار للآخرين واستصغارهم وهو من الإعجاب بالنفس والكبر الذي هو من أعظم الكبائر والمحرمات.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: **بَطَر الحق وغَمْط الناس**[1]»[2]

والقوم: هم الجماعة من الناس الذكور والإناث في الأصل، لكن المراد بقوله هنا ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ الرجال خاصة لذكر النساء بعدهم منفردات فالمعنى هنا: لا يسخر رجال من رجال.

﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: عسى أن يكون القوم المسخور منهم خيرًا وأفضل من القوم الساخرين بهم- كما هو الواقع غالبًا؛ لأن السخرية بالناس تدل على نقص في الساخر فهو بسخريته من الآخرين يريد تكميل ما فيه من نقص، كما تدل على أنه بلغ من الشر نهايته، كما قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[3].

---

(١) بَطَر الحق: رده. وغَمْط الناس: احتقارهم.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، وأبو داود في اللباس ٤٠٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، وابن ماجه في المقدمة ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٦٤. من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون النساء المسخور منهن خيرًا وأفضل من النساء الساخراتْ بهن.

وخص النساء بالذكر بعد قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ والذي إذا أطلق وحده يشمل الجنسين إشارة- والله أعلم- إلى كثرة السخرية بين النساء- كما هو واقع- لضعف عقولهن ودينهن.

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين، وأن المسخور منه حري أن يكون خيرًا وأفضل من الساخر؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وعسى من الله واجبة كما قال ابن عباس وغيره. وهذا يؤكد أن المسخور منه خير من الساخر غالبًا.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: هو التنقص للآخرين بالقول. والهمز هو التنقص للآخرين وعيبهم بالفعل بالإشارة باليد والحواجب ونحو ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، وقال تعالى ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، أي: همّاز للناس يحتقرهم ويزدريهم وينتقصهم بفعله، ومشاء بالنميمة بينهم بقوله.

ومعنى قوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يلمز بعضكم بعضًا. ولمز المؤمن لأخيه المؤمن بمثابة لمزه لنفسه لهذا قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال تعالى ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، أي ليسلم بعضكم على بعضكم، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

وأيضاً فإن لمز الإنسان لأخيه سبب لأن يلمزه أخوه، كما في الحديث: «لعن الله من لعن والديه. قيل كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه»(١).

واللمّاز الهمّاز مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، لأن الله توعده بالعذاب فقال ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٩٠، وأبو داود في الأدب ٥١٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٢- من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما.

واللمز والتنقص إن كان لعيب خِلْقي فهذا فيه تنقص للخالق سبحانه وتعالى. وإن كان لعيب خُلقُي فقد يعافيه الله ويبتليك. والواجب على المؤمن عون أخيه المؤمن والدفاع عنه ونصحه إذا وقع في مخالفة.

قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»(١).

وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه(٢)».

وقال ﷺ: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولايبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(٤).

وإذا كان هذا هو واجب المسلم على المسلم بل الواجب عليه ما هو أعظم من ذلك وهو أن يحب له ما يحب لنفسه، الأمر الذي لا يتم إيمان العبد إلا به كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٥).

فكيف يليق به أن يسخر منه أو يلمزه ويتنقصه؛ ولهذا سمى الله الأخ المسلم نفسًا لأخيه المسلم لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هذا حالهم.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٣١- من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث حسن».

(٤) سبق تخريجه قريباً.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦- من حديث أنس رضي الله عنه.

فيا لها من مبادئ سامية وآداب عظمية وأخلاق كريمة- لو أخذنا بها لكان لنا شأن- فالله المستعان.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ التنابز: التداعي والتنادي على وجه يشعر بالكراهة. والألقاب: جمع لقب، واللقب: اسم لما يسمى به المرء غير اسمه الأول- مشعرًا بمدح أو ذم. والمراد به هنا ما أشعر بذم.

والمعنى: لا يُعيِّر أحدكم أخاه ويلقبه بلقب يكرهه ويسوؤه سماعه فهذا محرم ولا يجوز، بل يجب أن يدعو المسلم أخاه بأحب الأسماء إليه.

قيل: إنهم كانوا يقولون لمن أسلم من أهل الكتاب: يا يهودي أو يا نصراني.

لكن إن كان اللقب غير مذموم، بل مما يميزه عن غيره ونحو ذلك على سبيل التعريف، لا على سبيل التنقص والاحتقار فهذا لا بأس به كما جاء في ذكر بعض رواة الحديث : «الأعمش» و«الأعرج» ونحو ذلك.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ بئس: أي : قبح، والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى بالسخرية بالآخرين ولمزهم والتنابز بالألقاب ونحو ذلك.

﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بعد الإيمان الذي حرم عليكم هذه الأشياء، وأوجب عليكم الأخوّة في الله.

أي: قبح وساء أن تنتقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسق بارتكابكم هذه الأعمال.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾، «من» شرطية، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يتب» فعل الشرط.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية. أي: ومن لم يتب من تلك الأعمال التي هي من الفسوق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين بلغوا مبلغًا عظيمًا في الظلم، وأكد هذا المعنى بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والتوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة. قال ابن القيم[1]: «والتائب: هو الراجع إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته».

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨١، ١٨٢.

وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله عز وجل، فلا تكون خوفاً من الخلق أو طمعاً فيما عندهم.

الثاني: الإقلاع عن المعصية وتركها فإن كان فيها حق لآدمي رده؛ لأنه لا يُعد مقلعاً عن المعصية في هذه الحال حتى يرد حقوق الآدميين إليهم، إن أمكن ردها، وإن لم يمكن ردها كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب والغيبة والنميمة ونحو ذلك وجب أن يتحللهم منها إن أمكن ذلك بلا ضرر، فإن لم يمكن ذلك أو خيف أن يؤدي ذلك إلى زيادة الشر وبخاصة إذا علم أنهم لم يعلموا بذلك، ونحو ذلك، فإنه يستغفر لهم، ويثني عليهم في المجالس التي اغتابهم فيها، ويدفع عن أعراضهم إذا تُكُلِّم فيهم، فتكون هذه بتلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما من امرئ يخذل امرأً مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرأً مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته»(١).

الثالث: الندم على فعل المعصية والتحسر، والحياء من الله- عز وجل.

الرابع: العزم على عدم العودة إلى المعصية، فإن لم يعزم على تركها لم تصح توبته، وإن عزم على تركها لكنه وقع فيها مرة أخرى فعليه تجديد التوبة.

الخامس: أن تكون في وقتها، قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم.

و﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: جمع ظالم. والظلم وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وهو النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]؛ أي ولم تنقص.

وأظلم الظلم: الشرك بالله، كما قال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- باب من رد عن مسلم غيبته ٤٨٩٣.

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله أعظم الحقوق وأوضحها؛ فإنه تعالى خلق ورزق وأنعم على الخلق بسائر النعم وأعظمها نعمة الإسلام.

أي: ومن لم يتب ويرجع عما اقترفه من المعاصي من ترك واجب أو ارتكاب محرم ومن السخرية بالآخرين ولمزهم والتنابز بالألقاب والفسوق بعد الإيمان وغير ذلك فأولئك الذين بلغوا الغاية في الظلم، فالناس قسمان: تائب وظالم.

قال ابن القيم[١]: «وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله».

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين ولمزهم، وتحريم التنابز بالألقاب، وأنواع الفسوق وأن ذلك من الظلم، ووجوب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[٢] وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما «فإني أتوب في اليوم مائة مرة»[٣] وكان يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»[٤].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- مناداة المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وعلى اجتناب ما بعده من نواهٍ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- تحريم السخرية بين المؤمنين رجالاً ونساءً، وتأكيد ذلك في حق النساء، لكثرة السخرية بينهن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات- استغفار- النبي ﷺ في اليوم والليلة ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٧٩٤، ومسلم في الصلاة ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

٤- أن المسخور منه غالباً خير من الساخر، لأن الساخر لولا نقصه ما سخر بالآخرين، فهو يريد تكميل نقصه بهذه السخرية؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

٥- النهي عن تنقص المؤمنين بعضهم بعضاً، وأن تنقص المؤمن لأخيه بمثابة تنقصه لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

٦- تحريم التنابز بالألقاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

٧- التنفير من السخرية بالمؤمنين وتنقصهم ونبز بعضهم بعضاً بالألقاب وتقبيح ذلك وأنه من الفسوق بعد الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾.

٨- وجوب شكر نعمة الإيمان والابتعاد عما يشينها ويدنسها.

٩- وجوب التوبة من هذه الأعمال السيئة، ومن جميع الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٠- من لم يتب من هذه الذنوب وغيرها فهو الظالم لنفسه ولغيره غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١١- حرص الدين الإسلامي على صفاء القلوب والتأليف بين المؤمنين، وتجنيبهم كل ما يسبب الفرقة والاختلاف بينهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾: أي: ابتعدوا عن كثير من الظن، وهو الاتهام للآخرين بلا علم ولا دليل، بل بمجرد الظن.

وإذا وجب اجتناب كثير من الظن- مع أن الظن هو الاحتمال الراجح فمِن باب أولى يجب الابتعاد عن الشك وهو ما كان متردد الطرفين لا رجحان فيه.

قال ابن كثير[1]: «هو الاتهام والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله».

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي: ذنب محض - وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك. وإذا كان بعض الظن إثمًا فليجتنب كثير منه احتياطًا لئلا يقع المؤمن في هذا البعض الذي هو إثم وذنب وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[2].

وعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يُخرج من ذلك: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»[4].

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ٦٠٦٤ ومسلم في البر- تحريم الظن والتجسس ٢٥٦٣، والترمذي في البر ١٩٨٨.

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٥٧.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا- انظر «الجامع الصغير» ٣٤٦٦.

وقد رُوي: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يعس ومعه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وبينما هما يطوفان في شوارع المدينة وجدا باباً مجافا على قوم ولهم أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن: «أتدري بيت من هذا؟ قال: قلت: لا. قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن في شرب فما ترى؟ قال عبدالرحمن: أرى قد أتينا ما نهانا الله عنه؛ نهانا الله فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقد تجسسنا. فانصرف عنهم عمر وتركهم»(١).

فيجب على المؤمن اجتناب كثير من الظن، وهو الظن السيء بمن هم ليسوا محلاً لذلك، فإن سوء الظن بهم من الإثم والذنب، بل يجب حسن الظن بمن هم كذلك من المؤمنين وغيرهم، وحمل ما يصدر منهم على أحسن محمل ما أمكن ذلك.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا»(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً»(٣).

ويفهم من قوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أن ما عدا الكثير منه لا يؤمر باجتنابه، وهو ما لا يكون إثما بدليل قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. فالبعض الآخر وهو ما عدا الكثير منه ليس بإثم.

فالظن الذي في محله جائز، كأن يوجد له قرائن ودلائل ممن هم أهل لذلك من أهل الشر والسوء، وممن ليسوا محلاً لحسن الظن بهم، احتياطًا واحترازًا منهم ومن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ١٠/ ٢٣١ (١٨٩٤٣)، والبيهقي في «سننه» ٨/ ٥٨٧ (١٧٦٢٥)، والحاكم في «المستدرك» ٤/ ٤١٩ (٨١٣٦) وصححه، ووافقه الذهبي، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ص١٥٢ (٤٤٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتن- حرمة دم المؤمن وماله ٣٩٣٢، قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧: «تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧.

شرورهم.

وإذا كان الحال وصل بالبعض إلى تهريب المخدرات في أحشائهم وفروجهم فليس هناك محل لحسن الظن بمثل هؤلاء، والله المستعان.

(ولا تجسسوا) التجسس غالبًا يطلق في الشر، والتحسس في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧] وقد يطلق التحسس في الشر كما في الحديث : «لا تجسسوا ولا تحسسوا»(١) ومن التحسس: الاستماع إلى حديث قوم وهم له كارهون كأن يستمع على أبوابهم ونحو ذلك.

والتجسس: هو تتبع عورات المسلمين والتنقيب والتفتيش عنها(٢) .

قال ﷺ: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»(٣).

فيجب حمل الناس على ما يظهر منهم، والحكم عليهم ومعاملتهم بذلك.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»(٤).

أما ما خفي من أحوال الناس فلا ينبغي البحث عنه، بل ينبغي التغافل ما أمكن عن زلاتهم التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها»(٥).

---

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) وقيل التجسس بالجيم أن يطلب العيب بنفسه، والتحسس بالحاء أن يلتمسه من غيره، وقيل التجسس أن يطلبه لغيره، والتحسس أن يطلبه لنفسه. وقيل معناهما واحد. انظر «النهاية» مادة «جسس».

(٣) سيأتي تخريجه قريباً.

(٤) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٤٤، ٣٨٣، والبيهقي ٨/ ٣٣٠. وقال الحاكم : «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب- النهي عن التجسس ٤٨٨٨.

وعن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»(١).

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: لا يخبرني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»(٢).

وروي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أُتي برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: «إنما نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به»(٣).

لكن من كان يتعدى ضرره مباشرة إلى الآخرين ويعظم خطره كمروجي المخدرات والمتفجرات فتجب متابعته والتجسس والتحسس عليه، لأنه من المفسدين في الأرض، بخلاف من يعمل معصية في بيته فيما لا يتعدى ضرره مباشرة إلى غيره فلا يجوز التجسس عليه.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره.

كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»(٤).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتعجب، أي: هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا، والجواب: لا ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: بل أنتم تكرهون ذلك غاية الكراهة، فلا يمكن أن يأكل الإنسان لحم أخيه الميت.

والمراد بهذا أن اغتياب المسلم لأخيه بمثابة أكله للحمه ميتًا، فكيف يقع ذلك من

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- النهي عن التجسس ٤٨٨٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- رفع الحديث من المجلس ٤٨٦٠، والترمذي في المناقب- فضل أزواج النبي ﷺ ٣٨٩٦-. وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه أبو داود في الموضع السابق ٤٨٩٠.

(٤) أخرجه مسلم في البر ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة- ما جاء في الغيبة ١٩٣٤.

الكثيرين.

وفي قوله (ميتًا)- إضافة إلى دلالته على شدة الكراهة- إشارة إلى أن الذي اغتيب- لكونه غائبًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه- أشبه بالميت فاقد الروح.

وقد بلغ القرآن الكريم الغاية في التنفير عن الغيبة بهذا التشبيه، إذ لا يتصور منظر أبشع من أكل المسلم للحم أخيه الميت.

قال ابن كثير[١]: «والغيبة محرمة بالإجماع. وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت» كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعًا؛ فاكرهوا ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منها، كما قال ﷺ في العائد في هبته: «ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يقيء، ثم يعود في قيئه»[٢].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[٣]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره»[٤].

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٩- ٣٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٦٢٢ ومسلم في الهبات ١٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨. والترمذي في البيوع ١٢٩٨- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٦٧، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣، وأخرجه البخاري أيضًا في الحج ١٧٤١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٤٣٨، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩، والترمذي في النكاح ١١٣٤، وابن ماجه في التجارات ٢١٧٢، وفي الزهد ٤١٤٣.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ «حسبك من صفية أنها كذا وكذا- تعني أنها قصيرة- فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»(١).

ومر ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»(٢).

بل إن تتبع عورات المسلمين واغتيابهم من أعظم الدلائل على ضعف الإيمان.

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر من آمن بلسانه ولمّا يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :« لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»(٤).

ونظر ابن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»(٥).

ولا يستثنى من تحريم الغيبة إلا ما كان لمصلحة، كما إذا كان ذلك لرفع الظلم، قال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء:١٤٨].

كما في قول هند امرأة أبي سفيان: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٧٥، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء ٢١٨، ومسلم في الطهارة، ٢٩٢، وأبو داود في ا لطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة ٣٤٧- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الغيبة ٤٨٨٠، وأخرجه أبو يعلى في مسنده من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. انظر (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٢٣٥، وأحمد ٣/ ٢٢٤.

(٥) أخرجه الترمذي في البر- عظم حرمة المؤمن ٢٠٣٢ وقال: (حسن غريب).

وولدي، فقال لها رسول الله ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»(١).

وكما إذا كان ذلك لمشورة في زواج أو غير ذلك، كما في قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس لما جاءت تستشيره فيمن تتزوج قال لها ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه انكحي أسامة بن زيد»(٢).

وكما إذا كان ذلك بغرض دراسة الأسانيد والحكم على الأحاديث، كقولهم: فلان كذاب، فلان سيء الحفظ، ونحو ذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾«تواب»: صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة على وزن «فعّال» تدل على أنه عز وجل ذو التوبة الكثيرة الواسعة بقسميها، وهما:

توفيقه عز وجل للعبد أن يتوب كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

وقبولها منه كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى:٢٥].

﴿رَحِيمٌ﴾ على وزن «فعيل» يدل على أنه عز وجل ذو الرحمة الواسعة؛ الرحمة الذاتية التي هي صفة من صفاته الثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

والرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من عباده كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥] .

ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٦٤، ومسلم في الأقضية- قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق- المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥ من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

ومن رحمته عز وجل أن شرع التوبة، ووفق لها من شاء من عباده، وقبلها منهم ممن تتوفر فيهم شروط التوبة.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً لهم وتكريماً، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعده من أوامر ونواهٍ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- وجوب اجتناب كثير من الظن، لأن بعض الظن إثم، وهو الظن السيء في غير محله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

٤- تحريم الظن السيء بالمؤمنين، ووجوب حسن الظن بهم.

٥- تحريم التجسس والتحسس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

٦- جواز الظن بمن ليسوا محلاً لحسن الظن والاحتراز منهم والتجسس عليهم لدرء شرورهم عن المسلمين.

٧- تحريم الغيبة بين المؤمنين والتنفير منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

٨- بلوغ القرآن الغاية في التنفير فيما يراد التنفير منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

٩- حرص الدين الإسلامي على سلامة الصدور بين المؤمنين والحفاظ على أسرارهم وأحوالهم وصيانة أعراضهم.

١٠- وجوب تقوى الله، باجتناب ما نهى عنه في الآية، وبفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١١- إثبات صفة التوبة لله - عز وجل- وتوفيق عباده لها وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَّابٌ﴾.

١٢- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى:﴿رَّحِيمٌ﴾؛ صفة ذاتية، وصفة فعلية، عامة وخاصة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة المؤمنين أن يسخر بعضهم من بعض أو يلمز بعضهم بعضًا، وعن التنابز بالألقاب، وأمرهم باجتناب كثير من الظن، ونهاهم عن التجسس وعن أن يغتاب بعضهم بعضًا، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم خلقوا من أصل واحد وأن أكرمهم عند الله أتقاهم.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يقال في إعرابه كما قيل في إعراب (يا أيها الذين آمنوا) وقد سبق.

والناس: هم بنو آدم الموجودون وقت نزول الآيات، ومن سيوجد إلى قيام الساعة.

وعمومات الكتاب والسنة كما يدخل فيها عموم الإنس يدخل فيها أيضاً عموم الجن للإجماع على أنهم مكلفون كما كلف الإنس من حيث أصول الشرائع، أما في الفروع فقد قال بعض أهل العلم: إنه لا يلزم أن يكون الجن مكلفين بما كلف به الإنس في جميع الفروع على حد سواء.

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع والعظمة (إنا)؛ لأنه العظيم سبحانه الذي له العظمة التامة، كما قال عز وجل عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري»(١).

(خلقناكم) أي: أوجدناكم وأنشأناكم، وأصل الخلق التقدير.

كما قال زهير(٢):

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

فالمتفرد بالخلق هو الله عز وجل الذي له تمام القدرة وتمام العلم، قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٨٦.

قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢].

وقد يطلق الخلق بمعنى تحويل الشيء إلى شيء آخر كتحويل الحديد أو الخشب الذي أوجده الله عز وجل إلى مصنوعات حديدية وخشبية. ولهذا جمع الله كلمة (الخالق) في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، إذ لا خالق في الحقيقة إلا الله عز وجل.

﴿مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم وحواء، أو من جنس ذكر وأنثى أب وأم.

فهم من أصل واحد وجنس واحد مما يوجب على كل منهم أداء حق الآخر عليه ذكورهم وإناثهم، الأزواج، والوالدين والأولاد والإخوة والأخوات وسائر القرابات، ويوجب على كل منهم أداء حقوق إخوانه المسلمين، وكذا أداء حقوق غير المسلمين ممن ليسوا بمحاربين.

وقدم (الذكر)؛ لأنه من حيث العموم أفضل من الأنثى، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

قال ابن القيم(١): «ولأنه هو الأصل فمنه البذر والسقي، والأنثى وعاء ومستودع للولد تربيه في بطنها كما تربيه في حجرها، ولهذا كان الولد للأب حكمًا ونسبًا، وأما تبعيته للأم في الحرية والرق فلأنه إنما تكوَّن وصار ولدًا في بطنها، وغذته بلبانها، مع الجزء الذي فيه منها. وكان الأب أحق بنسبه وتعصيبه؛ لأنه أصله ومادته ونسخته، وكان أشرفهما ديناً أولى به، تغليبًا لدين الله وشرعه».

على أن التفضيل إنما هو لجنس الرجال على جنس النساء، وإلا فإن من بين النساء من تكون أفضل من زوجها، بل ومن عشرات الرجال، ويكفي النساء أن منهن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون رضي الله عنهن.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ «شعوبا»: جمع شعب، سموا شعوبًا؛ لأنهم تشعبوا عمن قبلهم، كما يتشعب عنهم من بعدهم كما قال عز وجل: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١]، أي: فرّق ونشر وذرأ من آدم وحواء رجالاً كثيرًا ونساءً.

---

(١) في (التبيان في أحكام القرآن) صـ ٣٥٢- ٣٥٣.

و«قبائل»: جمع قبيلة، والقبيلة دون الشعب.

ويتفرع عن القبائل: الفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تتعارفوا فيما بينكم، فَيُدْعى الإنسان باسمه واسم أبيه وجده، فيقال فلان بن فلان بن فلان.

ولتعرفوا أنسابكم؛ ليؤدي بعضكم حقوق بعض من صلة الأرحام والتوارث وغير ذلك، فمعرفة الأنساب أمرٌ مطلوب شرعًا، لأن الله جعل الناس شعوبًا وقبائل لأجل ذلك، لما يلزم عليه من أداء حقوق بعضهم على بعض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»[١].

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: إنما جعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا؛ ليؤدي بعضكم حقوق بعض، لا لتتفاخروا بالأحساب والأنساب وكثرة العدد، فإن أكرمكم عند الله وأرفعكم منزلة عنده ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ لله عز وجل؛ بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وفي الحديث: «فمن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار إلى صدره.

وفي رواية: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في البر- ما جاء في تعليم النسب ١٩٧٩- وقال: (حديث غريب).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨.

(٤) سبق تخريجه قريباً.

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «انظر فإنك لست بخير من أحمر، ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : «لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه. إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية(٢)، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»(٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخًا في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن المسيل، فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ - خطبهم على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برتقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ ثم قال: أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم»(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما أعجب رسول الله ﷺ - شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تُقى»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٨.

(٢) عُبِّيَّة الجاهلية: أي: تكبرها.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١١٦، والترمذي في المناقب ٣٩٥٥.

(٤) أخرجه البزار في مسنده- فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٦٦.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٧، وقال : (حديث غريب). وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٦- الأثر ١٨٦٢٢.

(٦) أخرجه أحمد ٦/ ٦٩.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع، المطلع على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها.

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو الخبرة الواسعة، المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها.

فبعلمه- عز وجل- وخبرته خلق الناس، وجعلهم شعوبًا وقبائل؛ ليتعارفوا، وجعل التفاضل بينهم بالتقوى.

فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع[٢] لم يملؤوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[٣]».

وعن أبي نضرة: «حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى، أبلغت؟**»، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ» [٤].

قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه[٥]:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهُمُ آدمٌ والأم حواء
فإن يكن لهمُ من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء

فالفضل إنما هو بالتقوى فمن اتقى الله فهو الأكرم عند الله، ولو كان عبدًا حبشيًا كبلال وسلمان رضي الله عنهما، ومن لم يتق الله فهو الأذل المهان عند الله ولو كان حرًا قرشيًا كأبي جهل وأبي لهب وغيرهما.

---

(١) في «مجموع الفتاوى» ١١/ ٢٩٨.

(٢) طفّ الصاع: أي: قريب بعضهم من بعض وبمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ٨٩.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٤١١.

(٥) انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» ٢/ ١٠٨.

وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم[١]

وقد قيل:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اعتماداً على النسبْ
فقد رفع الإسلام سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهبْ[٢]

وقد استدل بهذه الآية على عدم اشتراط الكفاءة في النكاح، قالوا: فلا يشترط سوى الدين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للناس بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

٢- عموم القرآن الكريم والرسالة المحمدية لجميع الناس.

٣- تذكير الناس بأصل خلقهم وأنهم خلقوا من ذكر وأنثى؛ ليؤدي بعضهم حقوق بعض، وليعلموا حاجة بعضهم إلى بعض، ولا يفخر بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

٤- فضل الذكر على الأنثى؛ لتقديمه في الآية. وهذا من حيث العموم، لا من حيث الأفراد، فكم من امرأة خير من كثير من الرجال.

٥- أن الأولى أن يقدم في الكلام والخطاب الذكر على الأنثى.

٦- أن الحكمة من جعل الناس شعوباً وقبائل: هي أن يتعارفوا بينهم ويعرفوا أنسابهم ليتواصلوا ويتوارثوا، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

٧- أن معرفة الأنساب أمر مطلوب شرعاً.

٨- أن أكرم الناس عند الله أتقاهم لله- عز وجل ـ، فلا فضل لعربي على أعجمي،

---

(١) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣/ ١٣٣.

(٢) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٤١٤.

ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

٩- إثبات سعة علمه- عز وجل- وكمال خبرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾.

قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾.

قال السعدي رحمه الله[1]: «يخبر تعالى عن مقالة بعض الأعراب الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم مع هذا ادعوا وقالوا: آمنا، أي إيمانًا كاملاً مستوفيًا لجميع أموره».

والأعراب: هم سكان البادية، وهم أقرب إلى الجهل والجفاء كما قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة:٩٧].

﴿آمَنَّا﴾، أي: آمنا الإيمان الكامل المطلق، ظاهرًا وباطنًا.

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾، أي: قل لهم يا محمد لم تؤمنوا بعد، أي: لم تؤمنوا الإيمان المطلق، الذي يحمل صاحبه على الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ في فعل الواجبات والبعد عن المنهيات، كما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع إليه فيها الناس أعناقهم وهو مؤمن[2]».

وكقوله ﷺ: «و الله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[3].

﴿وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، أي: دخلنا في الإسلام، بمعنى استسلمنا وانقدنا ظاهرًا.

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) ٧/ ١٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق. ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٥٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٦- من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

وأَمْرُهم بهذا وعدم وصفهم بالنفاق والكذب، كما وصف الله المنافقين في آيات عدة، وقوله بعد ذلك: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾، وقوله: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾، وقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾.

كل هذا وغيره يدل على أن المذكورين ليسوا بمنافقين.﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: ولمّا يباشر الإيمان قلوبكم فتذوقوا طعمه وحلاوته وبشاشته، وتسعدوا به ويهون عليكم بَذْلُ كل غال ورخيص في سبيله من المال والنفس، والوقت، وغير ذلك.

قال الحسن البصري : «ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»(١).

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ﴾. دون أن يقول: «ولم يدخل» إشارة إلى قرب دخول الإيمان في قلوبهم.

فالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان المطلق، والإسلام المثبت لهم هو الإسلام الشرعي ومطلق الإيمان الذي يثابون عليه وبهذا فسر الآية كثير من السلف واختاره جمع من المحققين منهم الطبري، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم.

وذهب طائفة من المفسرين من السلف وغيرهم إلى أن المنفي عنهم هو الإيمان الشرعي الصحيح، والمثبت لهم هو الإسلام اللغوي، وهو الاستسلام خوف السبي والقتل، فعل المنافقين، واختار هذا بعض أهل العلم منهم البخاري، والصحيح الأول(٢).

قال ابن القيم(٣):« ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ نفيًا للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه منها:

أنه أمرهم وأذن لهم أن يقولوا: أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك.

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

(٢) انظر (جامع البيان) ٢٦/ ٨٩- ٩٠، (فتح الباري) ١/ ٩٩، (التمهيد) لابن عبد البر ٩/ ٢٤٨، (الوسيط) للواحدي ٤/ ١٦٠، (الجامع لأحكام القرآن) ١٦/ ٣٤٨، (الإيمان) لابن تيمية صـ ٢٢٥- ٢٣٩، (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٦٨، (تيسير الكريم الرحمن) ٧/ ١٤٠، (أضواء البيان) ٧/ ٦٣٧- ٦٣٩.

(٣) في (بدائع الفوائد) ٤/ ١٧.

ومنها أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاءً لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان.

ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له.

ومنها أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون؛ كما كذبهم في قولهم: (نشهد إنك لرسول الله) لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها أنه قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ ولو كانوا منافقين لما منَّ عليهم.

ومنها أنه قال: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، ولا ينافي هذا قوله (قل لم تؤمنوا) فإنه نفى الإيمان المطلق، ومنّ عليهم بهدايتهم للإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا، وتركت فلانًا وهو مؤمن. فقال: أو مسلم ثلاث مرات، وأثبت له الإسلام دون الإيمان.

والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان. فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها».

ويؤخذ من الآية أن الإيمان أخص من الإسلام فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً. كما أن الإحسان أخص من الإيمان- كما دل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

ويدل عليه أيضًا حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان، والله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أو مسلمًا» فسكتُّ قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، فقلت: مالك عن فلان، فوالله إني لآراه مؤمنًا فقال: «أو مسلمًا» ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: «يا سعد إني

لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار»[١].

فقوله ﷺ: «أو مسلمًا» يدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.

كما يدل أيضًا على أن هذا الرجل ليس بمنافق، بل هو مسلم لأنه ﷺ تركه من العطاء ووكله إلى إسلامه.

قال ابن كثير[٢]: «فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك- وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير[٣]- قال: «وإنما قلنا هذا لأن البخاري- رحمه الله - ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله (ولكن قولوا أسلمنا) أي: استسلمنا خوف القتل والسباء». قال ابن كثير: والصحيح الأول: أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأُدِّبُوا وأُعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفُضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد».

والإيمان، في اللغة: التصديق. وفي الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان. والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك. والإسلام والإيمان من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت،وإذا افترقت اجتمعت.

فإذا انفرد أحدهما عن الآخر حمل كل منهما على الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمعا حمل الإسلام على الأعمال الظاهرة، وحمل الإيمان على الأعمال الباطنة كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- باب إذا لم يكن الإيمان على الحقيقة ٢٧، ومسلم في الإيمان- تألف من يخاف على إيمانه لضعفه ١٥٠، وأبو داود في السنة ٤٦٨٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٢، وأحمد ١/ ١٧٦.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٦٨.

(٣) انظر (جامع البيان) ٢٦/ ٩٠.

ﱡٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦ﱠ [الذاريات:٣٥، ٣٦].

وكما دل عليه حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، وجعل يديه على فخذيه فسأله عن الإسلام، فقال له: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. فقال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإيمان فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإحسان فقال: الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث[1] .

ﱡوَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥﱠ الطاعة فعل المأمور واجتناب المحذور أي: وإن تطيعوا الله ورسوله بفعل ما أمركم الله به ورسوله، وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ أو اسمه على اسمه عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم؛ لأن هذا في باب التشريع؛ وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ بل هي طاعة لله كما قال عز وجل ﱡمَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَﱠ [النساء:٨٠].

بخلاف باب المشيئة والإرادة فلا يجوز العطف فيه بالواو.

ﱡلَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاﱠ أي: لا ينقصكم من أعمالكم وأجورها شيئًا ولو كان مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﱡفَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥﱠ [الزلزلة:٧، ٨]، وقال تعالى: ﱡوَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَﱠ [الأنبياء:٤٧].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الطور: ﱡوَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦١٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الآية:٢١].

والمعنى: وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من أعمالكم وثوابها شيئًا، بل ستجدون ثوابها عند الله كاملاً أوفر ما يكون، بل ومضاعفًا الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: ذو المغفرة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

فهو عز وجل غفور لمن تاب وأناب إليه يستر ذنبه ويتجاوز عن عقوبته. رحيم به حيث وفقه للتوبة وقبلها منه.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة لقرب مغفرة الله منهم.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية.

«إنما»: أداة حصر- والحصر، معناه: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

فاسم المؤمنين ووصفهم محصور بمن اتصفوا بهذه الصفات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والمعنى: إنما المؤمنون الكُمَّل، الذين يستحقون وصف الإيمان المطلق ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: آمنوا بالله فشهدوا أن لا إله إلا الله، فآمنوا بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: وآمنوا برسوله أي: صدقوا برسوله محمد ﷺ، فشهدوا أن محمدًا رسول الله، فأطاعوه فيما أمر، وصدقوه فيما أخبر، واجتنبوا ما عنه نهى وزجر، ولم يعبدوا الله إلا بما شرع. فلا يتم الإيمان إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ومن لازم الإيمان بالله ورسوله الإيمان بكل ما جاء عن الله ورسوله من الأوامر

والنواهي وغير ذلك كبقية أركان الإيمان الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره وغير ذلك، فهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، «ثم» للترتيب والتراخي والمهلة.

والريب: الشك، أي: ثم استمروا على الإيمان مع طول المدة، ولم يحصل عندهم ريب ولا شك في إيمانهم بالله ورسوله، وما جاءهم عن الله ورسوله، بل عندهم اليقين والتصديق الجازم في ذلك مع الثبات عليه.

كما قال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان:٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

﴿وَجَاهَدُوا﴾ الجهاد: بذل الجهد وما يستطيعه الإنسان.

﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ الأموال كل ما يتمول من النقود والأثاث والمراكب وغير ذلك.

﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: بذلوا أنفسهم ومهجهم رخيصة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فبذلوا جهدهم بالمال والنفس والنفيس في سبيل الله لإعلاء كلمة الله عز وجل قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

وقدَّم الجهاد بالأموال لأهميته؛ لأن الجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالمال لتمويل المجاهدين بالغذاء والمراكب والسلاح وغير ذلك.

ولأن الجهاد بالمال يسبق الجهاد بالنفس إذ لا بد من تهيئة المجاهدين وإعدادهم وإمدادهم قبل دخول المعركة؛ ولأن المجاهد بالمال قد يجهز عددًا كبيرًا من المجاهدين إلى غير ذلك.

لهذا نجد القرآن الكريم يقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس في جميع

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

المواضع التي ورد فيها عدا قوله تعالى في سورة التوبة ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الآية:١١١].

وجعل عز وجل كلا من بذل المال والنفس في سبيل الله جهادًا؛ ليأخذ كل نصيبه من الجهاد، فهناك من يستطيع الجهادين، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالنفس لكنه يستطيع الجهاد بالمال، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالمال ولكنه يستطيع الجهاد بالنفس.

وذكر الجهاد بالأموال والأنفس- بعد الإيمان بالله ورسوله، لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام كما قال ﷺ في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»(١).

فالقيام بالجهاد، من أعظم الأدلة على قوة الإيمان؛ فإن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه فجهاده لنفسه من باب أولى وأحرى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم، الذي صدقوا مقالهم بفعالهم فجمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به رسوله كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

كما قال الحسن رحمه الله: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»(٢).

فتجد الكثير من الناس يهمهم ويحوقل، ويقول: يا الله التوبة، وهو غارق في المعاصي مفرّط في جنب الله، ومقصر في حقوق الخلق، وإذا سمعت كلامه قلت ما شاء الله هذا من صفوة الأخيار لكن إذا سبرت أحواله في تعامله سواء في القيام بحقوق الله أو حقوق الخلق زهدت فيه.

وما أكثر هؤلاء. وقد قيل:

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن٣٩٧٣ .

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

وكـل يـدعي وصـلاً بلـيلى ... ولـيلى لا تقـر لهـم بـذاكا(١)

وقيل:

والـدعاوى إن لم يقيمـوا عليهـا ... بينـات أبناؤهـا أدعيـاء

وقيل أيضًا:

لـولا المشـقة سـاد النـاس كلهـم ... الجـود يفقـر والإقـدام قتـال(٢)

قوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الآية، الأمر للنبي ﷺ - وهذا في معرض الرد على الأعراب في دعواهم وقولهم آمنا، وعلى غيرهم ممن يحذو حذوهم في مثل هذه المقالة، أي: أتعلمون الله وتخبرونه بما في قلوبكم وما تنطوي عليه ضمائركم.

والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار.

ويؤخذ من هذا الإنكار على من ينطق بالنية، فيقول: اللهم إني أريد أن أتوضأ، اللهم إني أريد أن أصلي، اللهم إني أريد أن أصوم ونحو ذلك.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ العلم هو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا و(ما) موصولة- تفيد العموم، أي: يعلم الذي في السموات والذي في الأرض ولهذا قال بعده توكيدًا:

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء قل أو كثر، صغر أو كبر، خفي أو ظهر، بما في ذلك ما تنطوي عليه القلوب والضمائر كما قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وقال عز وجل ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

(١) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٧١.

(٢) البيت للمتنبي. انظر «ديوانه» ص٥٣١.

قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما قال «قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ، فتكلموا، فقالوا: قاتلتك مضر ولم نقاتلك ولسنا بأقلهم عدداً، ولا أكلِّهم شوكة، وصلنا رحمك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر- رضي الله عنهما: أتقولان هكذا؟ فقالا: لا. قال: «إن فقه هؤلاء قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم». قال عطاء في حديثه: فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾»(١).

قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يمن عليك يا محمد هؤلاء الأعراب ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ويغترون بذلك ويُدِلُّون به.

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: يمنون عليك بأن أسلموا، أي: يمنون عليك بإسلامهم ويُدِلُّون به.

ومعنى ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾، أي: أن دخلوا في الإسلام ظاهرًا.

لأن قولهم: ﴿آمَنَّا﴾: إما من باب التعليم لله، وهذا سوء أدب مع الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالهم وغيرها.

وإما من باب الإدلال على الله بذلك، والمنة بذلك، وأنهم كذا وكذا: تكثرًا بما ليس فيهم، وذلك مذموم؛ لأن المنة تبطِل وتفسد الصنيعة وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥﴾ [المدثر:٦].

﴿قُل﴾ يا محمد ردًا عليهم في دعواهم: ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾.

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

أي: بل المنة والفضل لله عز وجل عليكم بذلك أن هداكم للإيمان الذي هو أعظم

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» في التفسير- قوله تعالى: (يمنون عليك أن أسلموا) ٦/ ٤٦٧ رقم ١١٥١٩، وأبو يعلى في مسنده ٤/ ٢٥٠ رقم ٢٣٦٣، والضياء المقدسي في «المختارة» ١٠/ ٣٤٥ رقم ٣٧٣، والطبراني في «الأوسط» ٧/ ١٩٦ (٧٢٥٦).

نعمة وأكبر منة منه عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء:٦٩، ٧٠].

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم الإيمان. والله بذلك أعلم سبحانه.

كما قال النبي ﷺ للأنصار: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

الغيب في الأصل ما غاب عن الأعين، ولم تدركه الحواس. والله عز وجل لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فكل ما غاب في السموات والأرض عن الخلق هو عنده سبحانه ظاهر معلوم، لأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٨].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير: «يعملون» بالغيب، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾.

(ما): مصدرية، أو موصولة، أي: بصير بعملكم، أو بالذي تعملون.

أي: والله بصير بأعمالكم، مطلع عليها يحصيها عليكم، ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهذا فيه وعيد وتهديد لمن خالف أمر الله عز وجل، ووعد لمن امتثل أمر لله وأطاعه.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على هؤلاء الأعراب ونفي ما ادعوه لأنفسهم من الإيمان كأنهم يعلِّمون الله بدينهم وليس معهم في الحقيقة إلا الإسلام الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة- إعطاء المؤلفة قلوبهم ١٠٦١، وأحمد ٤/ ٤٢ من حديث زيد بن عاصم رضي الله عنه.

٢- أن الأعراب سكان البادية هم أقرب إلى الجفاء والجهل.

٣- أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وأن الإيمان في البواطن والقلوب والإسلام علانية.

٤- أن الحقائق لا تثبت بالدعاوى والأمانيّ.

٥- أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا منافقين، إذ لو كانوا منافقين لما أثبت لهم الإسلام ولنفاه عنهم، كما نفى عنهم الإيمان.

٦- أن هؤلاء الأعراب لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولم يتمكن منها وقت نزول هذه الآيات وإن كان قارب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٧- الترغيب في طاعة الله ورسوله، وأن من أطاع الله ورسوله سيوفّى أجره تاماً لا ينقص منه شيء وفاءً منه- عز وجل- وعدلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾.

٨- وجوب طاعة الرسول ﷺ، وأنها من طاعة الله- عز وجل.

٩- إثبات أنه عز وجل ذو المغفرة وذو الرحمة الواسعتين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٠- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدَّم صفة المغفرة؛ لأن بها زوال المرهوب، ثم أتبعها بصفة الرحمة التي بها حصول المطلوب.

١١- أن المؤمنين الصادقين حقًّا هم الذين آمنوا بالله ورسوله من غير شك، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

وفي هذا وصف لهم وثناء من الله- عز وجل- عليهم، كما أن فيه إشارة لبعد هؤلاء الأعراب عن منزلتهم.

١٢- تلازم الإيمان بالله ورسوله، فلا يصح الإيمان بالله دون الإيمان بالرسول، ولا الإيمان بالرسول دون الإيمان بالله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

١٣- التحذير من الارتياب والشك في الدين، وأنه منافٍ للإيمان بالله ورسوله؛

لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾.

١٤- عظمة مكانة الجهاد بالأموال والأنفس في الإسلام، لأن الله خصه هنا بالذكر من بين أعمال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥١- أهمية الجهاد بالأموال، لأن الله قدمه على الجهاد بالأنفس؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾.

١٦- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله، أي: خالصًا لله تعالى؛ لإعلاء كلمته، وموافقًا لشرعه.

١٧- الإنكار على هؤلاء الأعراب تعليمهم الله بدينهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾.

١٨- علم الله- عز وجل- المحيط بما في السموات والأرض وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

١٩- منة هؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم جهلاً منهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْ﴾.

٢٠- تشريفه عز وجل للنبي ﷺ بخطابه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ﴾.

٢١- وجوب الأدب مع الله- عز وجل- ومع رسوله ﷺ وتحريم المنة والإدلال بالعمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾.

٢٢- لا منة لهؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم بل المنة لله- عز وجل عليهم وعلى الخلق كلهم، وعلى المؤمنين خاصة بهدايتهم للإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾.

٢٣- أن الهداية للإيمان والتوفيق إليه، بيد الله تعالى وحده، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

٢٤- إثبات إحاطة علمه عز وجل بغيب السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢٥- بصره عز وجل واطلاعه على العباد وأعمالهم، وإحصاؤه إياها ومجازاتهم عليها.

وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا يوجب مراقبة الله تعالى على الدوام في جميع الأحوال والأعمال.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *